مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية



پوشكين

الأديب .. والعاشق!

قصة حياة شاعر روسيا الأشهر .. وكفاحه .. وغرامياته .. وفاجعته

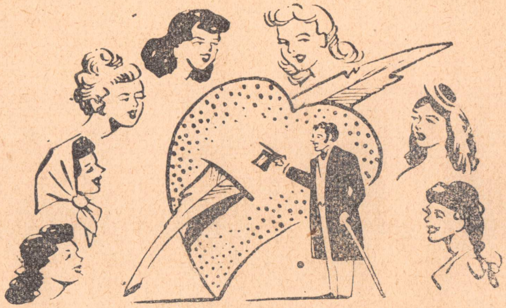
للكاتبة الفرنسية "ليديا الامبير"



ليديا لامبير

پوشكين

الشاعر.. والعاشق!



PUSHKIN
POET & LOVER

By : LYDIA LAMBERT

٢٠٠ صفحة ـ ١٠ قروش

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب السابع والعشرون

بوشكين : الشاعر .. والعاشق

تأليف : ليديا لامير

ترجمة : فرج جبران

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الـكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العـالمية)

صدر منهـا حتى الآن أربعة وستون كتابا ، يضاف اليهـا كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شـارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ما عدا العـدد العاشر وثمنـه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتـداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستةالأولى والعدد العشرون فقد نفدت، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الـكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنـسا وأستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصـة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك عـلى احد بنوك القـاهرة او تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسـل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) ، وثمن كل من الأول والرابع والسـابع والتاسع عشر والثـانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسـابع عشر والثامن عشر والعشرون والحـادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون والخـامس والعشرون والسادس والعشرون ١٢ قرشا ، والثـانى عشر ١٤ قرشا ، والثـالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

مطبوعات كتابي تخطو خطوة كبرى الى الامام

عزيزى القارىء ..

• **بهذا** العدد من «مطبوعات كتابى» ، تخطو هذه السلسلة خطوة أخرى الى الأمام ، فتحقق لك حلما طالما اعربت عنه فى رسائلك المشكورة الى .. **وهو طبعها على هذا الورق المصقول الناعم الذى يطبع عليه «كتابى» منذ صدوره ، والذى يكفل للنسخة «رشاقة» الحجم وصغر الحيز الذى تشغله ، سواء من الجيب أو حقيبة اليد أو رف المكتبة .. كما يكفل هذا الورق وضوح الصور التى سوف تزين بها صفحات «مطبوعات كتابى» ابتداء من هذا العدد** . وقد كانت تحول دون تحقيق هذه الخطوة من قبل ، عقبات شتى ، أمكن تذليلها ولله الحمد ، بفضل اقبالك وتعلقك بهذه السلسلة التى تسعى جاهدة كى تسد فراغا فى المكتبة العربية ، وتؤدى رسالتها الثقافية على أكمل وجه ..

على ان الخطوة الجديدة التى أعددتها لهذه السلسلة لا تقتصر على الشكل والمظهر ، وانما تتجاوز ذلك الى المادة والجوهر .. وأحسبك ستلمس ــ بعد قراءة هذا العدد ــ مدى الجهد الذى بذل فيه : سواء فى اختيار الكتاب الذى ترجم عنه ــ بين عشرات الكتب التى وضعت عن شاعر الروس الأكبر ــ (وقد كانت قراءة هذه الكتب والمفاضلة بينها ، وفقا لذوق القارىء العربى وثقافته التاريخية والأدبية ، شاغلا للوقت ومصدرا للحيرة لا يستهان به !)

وقد تلا ذلك العناء فى الاختيار ، عناء آخر ، هو البحث فى مختلف المراجع التى تخطر على البال ــ عن كل هذه الصور التاريخية النادرة المأخوذة عن لوحات رسمها كبار الفنانين الروس لشاعرهم القومى الأشهر فى مختلف مراحل حياته ،

وشتى مواقف هذه الحياة العاصفة ، وأهم الشخصيات التى لعبت دورا فى تكييف مصيره . . وحسبك كى تقدر الوقت والجهد اللذين بذلا فى سبيل الحصول على هـذه الصور ، ان تعلم ان الكتاب الذى ترجمت عنه هذه السيرة لم يتضمن أية صورة أو رسم، وكذا خلت جميع الكتب التى وضعت عن حياة «بوشكين» ،سواء بالفرنسية أو الانجليزية ، الا من صورة وجهه التقليدية العادية ٠٠ **ومع ذلك لم نيأس أو نكف عن البحث ، سعيا وراء جعل هذا العدد ـ وكل عدد لاحق باذن الله ـ مرجعا ادبيا وتاريخيا له اعتباره.. حتى عثرنا اخيرا على هذه المجموعة من الصور النـادرة ، متناثرة فى بعض الاعداد الخـاصة التى أصدرتها مجلات أجنبية مختلفـة ، فى مناسبات ذكرى مولد ووفاة الشاعر الروسى الكبير ، الذى يعتبر ابو الأدب الروسى، قبل تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف واترابهم !**

على ان المشكلة لم تنتـه عند هذا الحد ، فقـد كانت هذه الصور منشورة بطباعة عتيقة بالية ، وعلى ورق اصفر قديم، بحيث كان نقلها عن تلك المصادر واعادة طبعها بشكل واضح ، حلما ميئوسا منه ٠٠ **لولا أن تضافرت على تحقيق هذا الحلم المستحيل جهود ـ وعدسات ـ كل من الطبيب الفنان الدكتور ناجى يسى (رئيس جمعية التصوير المصرية) ، والفنان القدير رسام (كتابى) .**

بقيت كلمة اخيرة، هى ان هذا التجديد الذى تلمسه فى مظهر هذا العدد وفى جوهره ، ليس الا باكورة سلسلة من القفزات الأخرى التى ستفاجئك بها هذه السلسلة فى اعدادها القادمة باذن الله ٠٠ والتى ستكون أولاها تقديم الترجمة «الكاملة» الأمينة للكتاب الخالد «اعترافات جان جاك روسو» ، وكفى !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

بوشكين

الشاعر.. والعاشق!

للكاتبة الفرنسية
ليديا لامبير





عبد بطرس الأكبر

● **كان** قصر «ميخائيلو فسكو» مستطيلا منخفضا ، بنى — مثل منازل الفلاحين — بالألواح الخشبية المستطيلة . وكانت نوافذه — ذات الزجاج الذى يميل لونه للخضرة — قد فتحت كلها فى ذلك اليوم ، بعد اذ قضى أهل المنزل الشتاء بأكمله منطوين على أنفسهم ، عامدين الى سد كل ثغرة فى المبنى ، خوفا من تيارات الهواء القاتلة ، التى كانت تزحف عليهم من أسفل الأبواب بسبب سوء حالتها . وكان الربيع القصير ، القاسى ، قد تبعته أيام صيف قليلة .. وفى ليلة واحدة ، ظهرت الحشائش فى نفس المكان الذى كان يشغله الجليد فى اليوم السابق فقط .

كان سيد قصر ميخائيلو فسكو شيخا اسود اللون .. وكان القرويون يخافونه بسبب سنه المتقدمة ولون بشرته ، ولأن

اسمه لم يكن من الأسماء المسيحية .. فقد كان اسمه : **هانيبال !** .. وكان ثمة سبب آخر لخوفهم منه .. **فقد كان فى وسعه أن يأمر خدمه بأن يضربوك بالعصا خمسين ضربة ، ولا يبقى لك بعد هذا الا ان تحمل على محفة !**

وأقبل خادمان طويلان قويان ، فى أسمال بالية – لم يمنع مركزهما كخادمين من خدم المنزل من ان يسيرا حافيين ،ومن ان يمسحا أنفيهما فى أطراف قميصيهما – يحملان سيدهما الشيخ الأسود ، وينزلان به على سلم قصره الخشبى . وكان فى وسعه ان يشعر بأيديهما القوية ، الكبيرة ، وهى تساعده فى نزول السلم الذى يؤدى الى الحديقة . وما لبث ان أشار اليهما بأن يجلساه على مقعد فى ضوء الشمس .. هذا هو المهم !. **فالشمس هى التى تدفىء الدم ، وتمده بالحرارة التى تدفعه بقوة الى اعضاء قديمة – فى الجسم – سرى فيها الجمود ! ..** وأغلق الرجل عينيه ، ثم أطبق بيديه على مقبض عصاه ، وأسند ذقنه عليهما جريا على عادة المسنين . كان يبدو – بسترته القصيرة ، والشعر الأبيض القليل الذى كان يتدلى فوق عنقه المغضن – وكأنه صورة من صور الماضى ! .. كانت الحياة تنبض ضعيفة فى جسمه الذى أبلاه الزمن .. وكان يعتبر حيا لأنه كان فى وسعه ان يتذكر ! **فلقد كانت الذكريات تتدفق من أعماق ذهنه غزيرة متدافعة ، وكان أقدم هذه الذكريات أوضحها !** .. وكان الشائع انه بلغ المائة من عمره .. بارون ميخائيلوفسكو ، الشيخ الأسود ! .. انه هو نفسه لم يكن يعرف حقيقة سنه : خمسة وثمانون عاما ؟ .. تسعون ؟ !.. لقد مات القيصر بطرس ، وماتت كاترين .. وكذلك ماتت اليزابيث ، التى كانت تلهو بالقيصر كما لو كان دمية ! .. وبقى هو وحده ، كالصخرة ، يقاوم أمواج الأزل !

وكان يعمل – فى اوائل هذا القرن ، الذى كانت تسوده الفوضى اذ ذاك – خادما . عبدا .. رقيقا ! .. **كان خادما**

لا يزيد فى المرتبة عن الخادمين اللذين حملاه الى هذا المكان . أما اليوم ، فانه بارون : رجل نبيـــل ، يلمع اســـمه فى سجل الأشراف الروس ! .. ولقد اسس أسرة كبيرة . ومن وقت لآخر ، كان أولاده وبناته (وكان له ثمانيةعشر او تسعة عشر ولدا ، فانه لم يعد يذكر عددهم تماما !) يحضرون لزيارته ، أو للاحتفال عنده بزواج أو ميـلاد . وقد مات بعضهم ، ولم يعد يذكر وجوه الباقين .. بل ان أسماءهم كانت تختلط عليه أحيانا . وكان شعر أولاده قد بدأ يصطبـــغ باللون الأبيض ، مثل شعره هو !

أما المصادفة التى جعلت من صبى زنجى صغير ، مؤسسا لبيت من بيوت النبلاء الروس .. هذه المصادفة لم يكن فيها مايبعث على دهشته ! **أفلم يكن الدم الملكى يجرى فى عروقه ؟ ! افلم يكن نبيلا مثل أى فرد من سلالة ((آل روريك)) ؟! .. وفى الوقت الذى كان فيه المستعمرون يحكمون روسيا ، كان اسم جده هانيبال ـ الذى اختار هو أيضا ان يحمل اسمه ـ يبعث الرعب فى روما !**

وفوق قنـــطرة من ذكريات المغامرة ، تحولت أفـــكاره نحو موطنه الأصلى : أثيوبيا ، وقصر والده . كان «الراس» الكبير يحكم ثلاث مدن ، تقع احداها ـ وهى مدينة (لاجان اولاجون) ـ على نهر (مارب) ، وقد بنيت بالأحجار . هنـــاك ، قضى طفولته فى ظلال نخيل أعلى هامة من الـــكاتدرائيات . وكانت والدته صغرى زوجات « الرأس » ، اللواتى بلغ عددهن ثلاثين امرأة ! .. أما عدد أخوته فكان تسعة عشر !

وفى ذات يوم ، هوجم القصر ، وأحرقت غابة النخيل حتى باتت رمادا ، وانطلق الجنود الأتراك يعيثون فى المدينة فسادا . وأصبح « الرؤوس » من رعايا السلطان ، وأخذوا يدفعون له الجزية . فاذا توهم السلطان يوما انه لم يتلق نصيبه من الذهب أو العاج أو البن أو القمح ، ارسل جنوده « الانكشارية » الى

البلاد ، يسرقون وينهبون ويحرقون ويسبون ، ثم ينسحبون بعد ذلك ومعهم أجمل الفتيات ، وأصغر أبناء الأمراء الاثيوبيين ، كعبيد أرقاء ، ولا يتركون الا انقاضا كانت فى الأصل مدنا ! .. وبهذه الكيفية ، اختطفه الغزاة . **وكانت آخر صورة فى ذهنه عن وطنه ــ افريقيا ــ هى صورة أمه وهى تسبح فى النهر للحاق بالقارب الذى يحمل ابنها المخطوف !**

* * *

• **وفتح** هانيبال عينيه نصف فتحة ، فرأى من حوله ريف روسيا ، وهو يمتد منبسطا ، أخضر اللون ، تحت سماء داكنة . وكانت مياه احدى البحيرات تنساب باردة زرقاء ، بين أعواد البوص ، والطيور تغنى من حوله . واغلق عينيه مرة أخرى !

كان فى وسعه الآن ان يرى القسطنطينية ، يحيط بها البوسفور الملىء بالقاذورات ! .. القسطنطينية بأزقتها ، وبروائحها ، وبمساكن الحريم ذات القضبان ، التى كان يملكها السلطان . هناك ، تركه الجنود ذات مساء .. تركوه نحيلا ، ضعيفا ، ولكنه كان حيا ! .. وظل هناك عاما كاملا ، كان خلاله ألعوبة لمائتى « سلطانة » يستولى عليهن الملل طول اليوم . وكن قد أطلقن عليه اسم ابراهيم ــ الذى ظل يحمله طيلة قرن كامل من الزمان ! ــ وكان فى وسعه ان يرى « الحريم » ليلة هروبه ، كما كان فى وسعه ان يشم الرائحة اللطيفة التى كانت تنبعث من النساء السمينات !

وبعد ذلك جاء دور موسكو ، بقباب كنائسها المذهبة .. موسكو التى كانت قد بدأت تخضع لحكم القيصر بطرس العنيد ، الذى لم يكن يعرف الراحة ، والذى كان يرتدى ملابس كملابس الألمان ، ويدخن الغليون ، ويصافح التجار الأجانب ! .. أين ــ وا أسفاه ــ تلك الأيام التى كان قياصرة

الروس لايظهرون فيها قط الا كما يظهر القديسون فى الأيقونات، اذ يلتف الواحد منهم فى عباءة طرزت بخيوط من ذهب وحليت بالجواهر الكريمة ، وقد أحاطت به هالة من التقاليد والآداب لم تتغير منذ عهد الأباطرة البيزنطيين ! .. **وكنت اذا اردت ان تتحدث الى الواحد منهم ، تعين عليك ان تخر على ركبتيك وان تعفر جبهتك فى التراب ! ..** ولم يكن أحدهم يغادر قصر الكرملين الأبيض المذهب قط ! .. ولكن بطرس لم يكد يتوج حتى خرج للسياحة فى مختلف الدول . ولو انه قام بسياحاته تلك فى اطار العظمة اللائق بوارث عرش البيزنطيين ، لما كان فى ذلك اى بأس ! ولكن ، لا ! انه لم يفعل ذلك ! .. فقد عبر « قيصر جميع الروس » المانيا وهولندا وفرنسا وانجلترا على ظهر جواده ، او على قدميه كرجل أفاق : فكان ينزل فى الفنادق العادية ، ويتردد على المحال التجارية والمطاعم والمستشفيات ! .. وفى مدينة (هارلم) ، اشتغل « صبيا » لأحد النجارين الذين يعملون فى بناء السفن !

ولما عاد الى بلاده ، تتبعه فرقة من الأجانب تضم الملاحين والصناع والصيادلة والمهندسين والبنائين ، ومن ورائهم عربات ملأى بالكتب والآلات والاسنان الصناعية والجماجم ، ظنت روسيا أن حكم الكفار قد بدأ ، اذ كانت لا تزال تعيش فى غمرة معتقداتها الدينية ، وأيقوناتها ، وايمانها العميق ! .. وأخذ القيصر يقص بنفسه الذقون الطويلة والأثواب الغالية ، ولم يتورع عن ان يشنق بيديه ــ « الكريمتين ! » ــ كل معارض ! .. وبدأ « البايار » (الأشراف) يشعرون بالخجل، بسبب وجوههم الحليقة ، بعد ان زالت عنها اللحى . ثم تحول القيصر الى أسنان رعاياه التالفة ، فأخذ يخلعها بنفسه ، أسوة بملك فرنسا الذى كان يعالج مرض الشلل فى رعاياه ! .. ولما انضم ابن القيصر نفسه الى فريق المتذمرين، لم يتردد القيصر فى القائه فى غياهب السجون ! ولقد مات القيصر الصغير ــ

لحسن الحظ ـ فى السجن ، نتيجة الخوف والحرمان ، فضلا عن أنه كان معتل الصحة . وبهذا وفر على والده عار شنق سليل أحد أباطرة البيزنطيين علنا أمام الجماهير !

* * *

• **لقد** تغير الزمن حقا ، فأصبح ابناء النبلاء يرتدون اليوم الملابس المزركشة ، ويتحدثون باللغة الفرنسية .. وأخذت الأمبراطورة كاترين تتبادل الرسائل مع مسيو دى فولتير . وكان هو ـ اى هانيبال ـ من صنع ذلك القيصر الذى احدث هذا التطور الذى يعتبر من المعجزات ، ولقد مات القيصر العظيم منذ ستين عاما .. أما هو ، فكان لا يزال يدعى «عبد بطرس الأكبر» !

كان قد جىء به الى موسكو مع غيره من زملائه .. زنوج آخرون اختطفوا من القسطنطينية أو تم شراؤهم من جنود الانكشارية ، ليكونوا من مظاهر الأبهة والعظمة فى البلاط الروسى . وقد صنعوا له الملابس المزركشة بخيوط الذهب ، كما أعطى حذاء له قفل معدنى ! .. ثم ألحقوه بخدمة بطرس الأكبر ، كخادم خاص له ، وياور ، وسكرتير خاص ..

وكان ينام فى حجرة القيصر . وكثيرا ما كانت تخطر برأس بطرس فكرة فى اثناء الليل ،فكان يوقظ الافريقى الصغير ، وهو يصيح به : « ابراهيم ! »

ـ مولاى ؟ !

ـ احضر اللوح .. والضوء !

فكان ابراهيم يقفز من الفراش ، ويحضر اللوح من المكان الذى علق فيه ، ثم يشعل شمعة ،ويقف وهو يتثاءب ، منتظرا حتى ينتهى القيصر من الكتابة . وكان بطرس يحبه ، وكثيرا ما كان يصطحبه للنزهة معه . وكان الناس يرسمون اشارة الصليب على وجوههم ـ لفرط الرعب ! ـ اذا ما مرت بهم تلك

القامة المديدة ، وقد غاص صاحبها فى غلالة من الأفكار ، وأخذ يسير متمهلا وهو يستند الى عصاه . وكان بطرس يبدو ضخما بوجهه المخيف وشاربه الصغير الذى انتصبت شعراته كأنه شارب قط ! .. وكان ابراهيم يثب من خلفه وهو يمسح وجهه بكمه المذهب الأطراف . وقد حدث – فى يوم من الأيام – ان توقف ابراهيم عن المسير ، ليقضى حاجة . وبعد دقيقة ، سمعه القيصر وهو يصيح :

– مولاى ! اننى أشعر بجزء من امعائى وكأنه يخرج من جسمى !

وذهب اليه بطرس ، وانحنى قليلا ، ثم قال له :

– لا ، ليست هناك امعاء ايها الغبى .. انها الدودة الوحيدة !

وأمسك حاكم جميع الروس بالصبى من وسطه ، ثم جذب الحشرة من جسمه !

★ ★ ★

• **وتدافعت** على العبد المسن الذكريات ، كأنها المد ! ولم تكن فى هذه المرة عن موسكو ، وقصر الكرملين ذى السقوف الواطئة والتدفئة الزائدة ، ولكنها كانت عن باريس .. المدينة المرصوفة ، المتلألئة الأنوار ، الظريفة ، اللعوب .. مدينة القانون ودوق دى ريشيليو .. المدينة الساحرة ، الخفيفة ، « المهذبة ! »

لقد سافر اليها ابراهيم برفقة القيصر ، فى رحلته الثانية اليها . وكان ابراهيم ، او بالأحرى ابراهام بتروفيتش ، قد أصبح ربيب القيصر وياوره . وكان القيصر قد اضفى عليه هذا الاسم فى بولندا ، عام ١٧٠٧ ، عندما أمر بتعميده .. وجعلت منه ملكة بولندا – زوجة الملك اوجست – ربيبا لها هى الأخرى !.. وتركه بطرس فى فرنسا ليدرس فن الحرب ،

حتى يصبح شيئا مذكورا . ولم لا ؟ انه كان فى حاجة الى رجال . وكان لأبراهام ملامح أبناء جنسه النبيلة الجميلة ، كما كان عقله يقظا ، محبا للمعرفة والاستطلاع . سوف يجعل منه القيصر مهندسا نابها . **ففيم يهم لون بشرته ؟.. وأى درس سوف يتلقاه الأشراف ، من أصحاب العقول السقيمة الفهم والأجسام الضخمة ، عند ما تصدر لهم الأوامر من « افريقى » ؟ !**

وجاء عام ١٧١٤ وفى أعقابه حرب الوراثة الاسبانية . وشهدت الحرب مهندسا زنجيا صغيرا - تخرج فى مدرسة رى فوبان - يحارب فى صفوف الجيش الفرنسى . وعندما أصيب بجرح فى رأسه ، عاد الى باريس ، وبطرس يكرر له الأمر بالعودة الى روسيا ، لأنه فى حاجة الى رجال ، والى ضباط ، والى مهندسين . ولكن ، هل يكون من السهل عليه ان يغادر باريس الضاحكة ، المتمدينة ، بنسائها الجميلات ، وبمشاربها ومتاجرها ؟ .. باريس ، حيث يعيش كل زى جديد أياما لاتعدو عمر الزهرة الجميلة ، وحيث يمكن لأى فتاة لعوب ان تبدو فى مظهر اى سيدة من النبيلات ! .. **وهل يكون لزاما عليه ان يعود الى موسكو ، المغطاة بالثلوج ، الموحشة ، بعد ان جعلت منه السنوات الست التى قضاها فى باريس ، فرنسيا بعقله وقلبه ؟ !**

وكان القيصر يتلقى - ردا على رسائله - حججا طويلة ، وأعذارا مختلفة : فكان تارة يسمع من ابراهيم ان الدراسة لما تنته بعد ، وانها تحتاج لاتمامها الى عام آخر أو عامين .. وتارة يسمع ان الطرق رديئة ! .. وكان الشاب يسأله دائما اذا كان فى الامكان ان يتلقى مبلغا آخر من الكرونات .. فان الحياة فى فرنسا غالية التكاليف ، فضلا عن انه يجب عليه ان يدفع الى المدرسين أتعابهم ، والا فسوف لايتمكن من الذهاب الى المدرسة ! .. وكان كل خطاب يذيل بهذا التوقيع : «عبدكم

الخاضع : ابراشكا »

ولكن .. وا أسفاه ! لقد كانت الكرونات تقل شيئا فشيئا. وأخذ ابراهام – رغم انه كان ربيب القيصر – يعيش حياة تعسة . كان بطرس بخيلا ، ثم ان الطرق كانت رديئة . وكثيرا ما عاد البائس الى الحجرة التى يقطنها ، فوق السطح، دون طعام ، ليجد نفسه كذلك محروما من الدفء ! .. وكانت باريس تبرق بأنوارها عندما كان ينظر اليها من نافذة حجرته. ولكنه كان يتطلع الى انوار حياة الترف التى يعيشها كبار الملاك وراقصات الباليه ! .. كانت النساء يثرن اعصابه اكثر من اى شيء آخر .. نساء باريس الضاحكات ، اللواتى كان من السهل معابثتهن .. ولم يكن الفتى ، حتى ذلك الوقت، قد عرف غير نساء الشرق السمينات ، الكسولات! .. فكانت اولئك الباريسيات اللواتى يقفن على أحذية لها كعوب رفيعة كالابر يسحرنه بظرفهن .. **ولكن لسوء الحظ لم يكن فى الطالب الزنجي الفقير اى شيء يمكن ان يجذبهن اليه ! كان شكله حسنا ، الا ان ملابسه الرثة وجواربه القطنية لم تكن لتساعده على تحقيق أحلامه !**

وبعد انقضاء ست سنوات ، لم تعد الأعذار تجديه شيئا ، واضحى لزاما عليه ان يعود . وهكذا التمس المهندس الصغير من الحكومة الفرنسية الاذن بالرحيل ، والأسف يملأ قلبه ، ثم شرع فى رحلة العودة الطويلة .

★ ★ ★

• **ولكن** .. لم تعد موسكو عاصمة لروسيا . فقد فتح القيصر نافذة تواجه أوربا : (سانت بطرسبرج) ، التى كانت قد بدأت تقوم فى المكان الذى كانت تمتد اليه المستنقعات الفنلندية، قبل ذلك التاريخ بخمس سنوات . وأخذت لندن وروتردام وهامبورج ترسل الى العاصمة الجديدة فى طلب الكتان

والخشب والفراء. على ان ذلك «البناء» الذى لا يكل، لم يعش طويلا ليجنى ثمرة ما بنى .. فقد مات فى عام ١٧٢٥، فى أحواض ميناء العاصمة الجديدة التى أنشأها!

وكان ابراهام ملكا لبطرس .. عبدا له .. بل «مخلوقا من مخلوقاته!» .. لذلك خلفه موت القيصر بغير صديق يدافع عنه . وما لبث أن شعر بالهوان على يد خليفة بطرس، ثم تبع ذلك النفى! وهكذا ساقت الأقدار ذلك الزنجى المغامر الى حدود العالم .. الى سيبيريا والحدود الصينية، كما كانت قد قضت من قبل بأن يولد فى افريقيا، ثم ينقل الى تركيا، فروسيا، وأن يسافر بعد ذلك الى افرنسا .. الخ

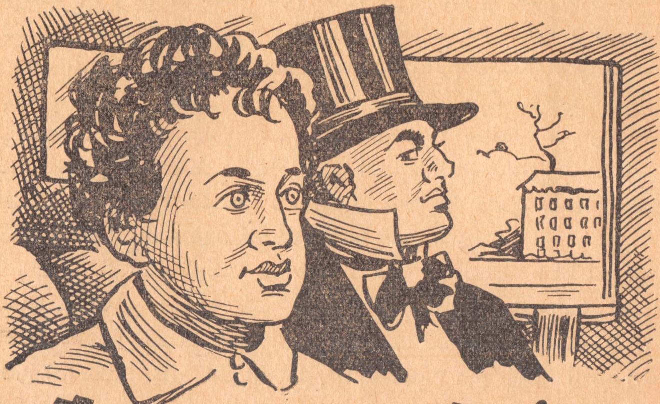
على أن الامبراطورة اليزابيث - ابنة بطرس وخليفته على عرش القياصرة - ما لبثت أن رأت أن تضع حدا لنفى زميلها القديم فى اللعب . ومنذ ذلك الوقت، بدأت مراحل حياته تتميز بازدياد الثروة والجاه : **فقد منحته اليزابيث قصر ميخائيلوفسكو، وألف نسمة من العبيد! وجعلت منه كاترين - خليفة اليزابيث - شريفا من الأشراف، وسمحت له بأن يتخذ لنفسه اسم هانيبال! .. وفى ذلك القصر، عاش أربعين سنة مع زوجته وأولاده وعبيده .. عاش سيدا يوزع العدالة كما كان يفعل والده : «الرأس» الحبشى!**

وقبل ذلك بنصف قرن، كان قد طلب من الكابتن ديوبير - وهو يونانى الأصل - يد ابنته . على أن هذا الطلب لم يرق فى نظر الفتاة . ولما سئلت عن السبب، قالت : «لأنه عبد اسود، وكذلك لانه ليس من جنسنا!» .. اما بالنسبة للأب - الذى كان لديه عشر فتيات يجب عليه أن يزوجهن! - فقد كان ابراهام، سواء اكان أسود اللون أم ابيضه، ربيبا للقيصر بطرس الأكبر! .. ومن ثم تم الزواج، ووضعت الزوجة طفلة بيضاء اللون، فأمر الزنجى بأن تضرب زوجته بالسياط، حتى تفصد الدم من جسمها - بتهمة انها انجبت الطفلة من

رجل آخر ، « أبيض » ! ـ ثم أمر بحبسها فى أحد الحصون ، حيث ماتت جوعا ، بعد سنوات ـ اذ رفض أن يدفع ثمن طعامها طويلا! ـ ومع ذلك فانه لم يكن يفوقها اخلاصا . فانه، قبل أن يحصل على الطلاق منها ، تزوج من عشيقته « كريستين شيبرج » !

وقد استمرت قضية الطلاق مدة عشرين عاما . وأخيرا ، ماتت « يدوكسيا ديوبير » ، وتركته حرا ، قادرا على ان يصحح ـ بالزواج ـ علاقته بعشيقته كريستين، الشقراء الجميلة الماهرة ، التى قالت ذات مرة وهى تتحدث عنه : **« ان الشيطان الأسود ينجب منى أطفالا سود اللون ، ويطلق عليهم أسماء شيطانية ! »** .. وكانت ـ اذ ذاك ـ قد أصبحت امرأة عجوزا ، أصابها الشلل لفرط ما عانت من الروماتيزم ، ودب التجعد فى وجهها . أما هو ، فكان أثرا لحكم بطرس ، ورجلا ينتمى الى عهد مضى ، حتى لقد كان الناس يذهبون لرؤيته والتفرج عليه ـ كما لو كان من الآثار الغريبة ! ـ وهم يحدثون انفسهم: **لابد أن يموت قبل انقضاء وقت طويل ! سيموت ويصعد الى «فوق» ، لكى يقف امام رب البيض !**

وضرب البارون الأسود الأرض بعصاه ، فأسرع اليه الخادمان وحملاه من كتفيه . وسارا ببطء شديد ، حتى صعدا به السلم . وما لبث باب غرفته أن أغلق وراءهم



الأغنية

- ١ -

• **كان** فاسيلى لفوفتش بوشكين متكدر المزاج . . فقد سافر أكثر من ألف فرسخ فى عربة لكى يتمكن من الحاق ابن أخيه ـ المشمول برعايته ـ بالمدرسة الجديدة التى اطلق عليها اسم « الليسيه » . ولم يكن أحد يعرف بعد اذا كان اسم المدرسة مذكرا أم مؤنثا . . تلك المدرسة التى أسسها القيصر اسكندر الأول . وكان مرافقوه فى السفر هم : ابن أخيه المشار اليه ـ اسكندر (وكان اصدقاؤه يدعونه ساشكا) ـ وخادمة من عبيده كان قد اتخذ منها خليلة ، وخادمان ، وطاهيه المسمى فلاس ، وان كان هو يصر على اطلاق اسم بليز عليه ! وكان ينوى أن يقضى ثلاثة أو اربعة أشهر فى سانت

بطرسبرج، وهو الوقت الذى يكفى لكى يتشرب جو العاصمة، ويشترى سترة قصيرة (اذ كان الجميع قد بدأوا يرتدونها فى ذلك الوقت) ، على ان يعود بعد ذلك الى موسكو وجعبته مليئة بأخبار البلاط ، وشعره مصفف طبقا لآخر طراز (موضة) .. ومعه علاوة على ذلك مجموعة جديدة من ربطات العنق والروائح العطرية والأخبار المثيرة التى تتعلق بالفضائح والنساء !.. **وبالاختصار ، سيكون معه ما يجعل منه نجما متألقا فى صالونات موسكو لمدة لاتقل عن شهر !**

ولكن الرحلة انهكت قواه . . فانه لم يعد شابا ! وكان شعره ـ الذى صففه طبقا لشعر الامبراطور تيتوس ، كما رآه على تمثال نصفى لهذا الامبراطور ـ قد أخذ فى السقوط . وكان اذا تكلم تناثر لعابه على المستمعين من خلال الفجوات الواقعة بين أسنانه الباقية فى فمه !

وحين بلغ العاصمة، وجد ان سائقى العربات والخدم فى غاية الوقاحة .. فمنذ قامت الثورة الفرنسية ، كان الدهماء قد أخذوا يرفعون رؤوسهم فى كل مكان !.. ولم يكن هؤلاء الاشقياء يعلمون بالطبع أنهم فى حضرة شاعر أخذت أبياته فى الانتشار ـ على ألسنة الناس ، بل وفى الكتب ! ـ فى صالونات موسكو ! **ثم انه كان نبيلا . . وكان فى ذلك كل الكفاية ! كانت أسرته التى تنتسب الى النبلاء ـ النبلاء الحقيقيين ! ـ قد فقدت ثروتها ، كما فقدت مكانتها فى القصر . ولكن آل بوشكين كانوا قد سجلوا أسماءهم فى أمجد صفحات التاريخ الروسى ، كما انه هو نفسه قد قام بأعمال يمكن أن تخلده فى سجل الانسانية!..** فانه كشاعر ، لم يتردد ـ فى الماضى ـ فى تحمل مشاق رحلة طويلة اراد ان يرتشف فيها من منهل الوحى : باريس . وهناك تردد على (بواكى) الباليه رويال ، ودرس فن الكتابة مع « تالما » ، بل وحظى بشرف تقديمه الى القنصل الاول ..

(فليطلقوا الآن عليه اسم «الغول» أو بونابرت ، ولكن ، كان هذا التقديم ـ على أية حال ـ شرفا عظيما حظى به !)

تلك الرحلة الى باريس ؟ لقد كانت أعظم عمل قام به فى حياته ، كما أنها كانت سببا فى تقربه الى سيدات أرقى الصالونات ، اللواتى كان يسمح لهن بشم شعره المعطر بالزيت القديم النادر !.. وكان ذلك المقعد الطويل الذى صنعه لنفسه ـ بعد عودته ـ يماثل تماما مقعد مدام ريكامييه، يوم جلست امام «دافيد» ليرسم لها صورة زيتية ! . . ولكن كل ذلك قد مضى عليه عهد طويل . . وكان عليه ـ لكى يثير الاهتمام بشخصه مرة أخرى ـ ان يقوم بهذه الرحلة الى سانت بطرسبرج!.. ورفع فاسيلى لفوفتش منظاره المفرد الى عينه اليسرى ـ التى كانت قصيرة النظر قليلا ـ ونظر الى ابن أخيه ، فأرخى الصبى عينيه الزرقاوين . وحول فاسيلى لفوفتش بصره الى جهة اخرى ، وكأنه فكر فى نفسه قائلا : « ان هذا الغلام قد خلق افريقيا خالصا . فلقد كانت أم الفتى حفيدة عبد بطرس الأكبر ! »

أما ألكسندر ، فقد أخذ يحدق فى المنظر الطبيعى الممتد أمامه . . كان قد عاش حتى اليوم فى موسكو ، فى منازل خشبية ، كانت اسرته كثيرة التنقل بينها ، لكنها كانت دائما تتشابه : حجرة فى الطابق الأسفل مليئة بالمقاعد المذهبة ذات المساند وتضم بعض التحف الغالية .. وحجرة فى الطابق الأعلى كانوا يعيشون فيها ، وهى حجرة عارية باردة ندر ان كانت شديدة النظافة ! لقد ترك منزله غير آسف ! الا انه أحس بأنه سيبكى ، عندما فكر فى شخص واحد ، هو شخص مربيته «نيانيا» . لا شك انها الآن ملقاة فى حجرة الخدم ، حيث اعتادوا ان يضعوها ويغلقوا الباب، كلما شربت من الخمر اكثر مما كان ينبغى أن تشرب ! لقد كانت هى الشخص الوحيد الذى يحبه فى ذلك البيت الكبير ، حيث اعتاد الناس أن يصيحوا

دائما ، وحيث كانت الآنية المصنوعة من « الصينى » تتحطم باستمرار !

وكانت هناك جدته : ماريا اليكسيفنا ، وهى الشخص الوحيد الذى كانت لديه ذرة من العقل فى هذا المنزل .. وكانت حجرتها دافئة نظيفة ، تضم آنية ملأى بالفاكهة المحفوظة فى خزانة ملابسها ! . وكان الكسندر ، فى صباه ، يشعر براحة عميقة اذا جلس فى السلة الكبيرة التى كانت تحتفظ فيها الجدة بملابسها الصوفية ، ويستمع اليها ـ مسحورا بصوتها الرقيق ـ وهى تقص عليه القصص : « كان فى سالف العصر والزمان ، ملك وملكة ... » أو قد تروى الجدة قصة حياتها ، وكيف تزوجت من « أوسيب هانيبال » ابن العبد .. عبد بطرس الأكبر . وكان أوسيب هانيبال وجيها رغم سواد لونه . وكان قد تزوج رغم ارادة والده ، الزنجى الشيخ النبيل . وبعد ان تم الزواج ، أراد أوسيب ان يقدم زوجته الصغيرة الى والده ، فأخذها الى قصره . وهناك تركا العربة عند مدخل القصر ، واخترقا الساحة على أقدامهما ، كمظهر من مظاهر الاحترام . وكان أوسيب قد أفهم زوجته أن تركع أمام العبد ، عندما تتقدم لتحيته ، ولكن الوقت لم يتسع أمامها لتفعل ذلك .. فلقد أغمى عليها ـ لفرط الخوف ـ بمجرد ان تخطت عتبة الحجرة التى كان يجلس فيها والد زوجها ، فى انتظارهما ! وبينما كانت الزوجة ملقاة على الأرض فى ملابسها الحمراء اللون ، أخذ الزنجى الشيخ يلقى على ابنه وابلا من التأنيب !

وكانت الجدة تتأوه اذا وصلت الى هذا الجزء من روايتها .. **فقد ثبت لها ان الوجيه الذى تزوجته كان زوجا تافهـا وأبا رديئا . اذ أن ابنتهما الصغيرة « نادزدا » كانت لا تزال فى الثانية من عمرها عندما هجرهما من أجل امرأة شقية هى « أوستينيا تولستوى » ، التى سرقته واستولت على ايراده وجرت عليه**

الخراب ، بسبب الانفاق على ملابسها وحليها والصحاف الفضية المحلاة بالذهب التى كانت تقدم فيها الطعام . وفى الوقت الذى كانت هى ـ أى الجدة ـ تموت جوعا ، كان هو يصمم « الحدائق الفرنسية » لخليلته !.. وقد انتهى به الأمر الى الزواج من تلك المخلوقة ، فى الوقت الذى كانت زوجته ما تزال حية ترزق ، مستخدما فى ذلك وثائق مزورة ! وعلى أية حال ، فقد كان تعدد الزوجات تقليدا من تقاليد الأسرة ، فقداحتفظ هانيبال «الشيخ» نفسه بزوجتين فى وقت واحد!.. على ان القيصرة تدخلت فى الأمر ، فأرسلت الجد أوسيب الى السجن ، ثم سلمت « نادزدا » الى امها ..

وعاشت الجدة وابنتها معا فى سانت بطرسبرج . وكان لابد ، وهما تعيشان مع ثلاثين شخصا آخر ، ان تكونا فقيرتين ، ولكن «نادزدا» كانت لها مربية فرنسية ، تعلمت منها كيف تعزف على الآلات الموسيقية ، وتطورت حتى أصبحت فتاة جميلة ذات عينين نفاذتين .. وعرفت فى المجتمع باسم « كريولا الجميلة » أو «الافريقية الجميلة» !.. وكانت ذات حساسية ، سيئة الطباع ، متحكمة ، ذات نزوات . وكانت الجدة تشعر برعب كلما فكرت فى انها هى التى انجبت مثل هذه الفتاة الافريقية .. بل ان نوبات الاستهتار الغريبة التى كانت تنتابها ، دلت على انها تنتسب للأقاليم الاستوائية .. فقد كانت تقضى أياما عديدة فى حجرتها المغلقة ، وهى تقضم أظافرها ، وقد استرسل شعرها ، دون ان يستر جسمها الا رداء رقيق . ولكنها مالبثت ان أصبحت الشابة الأنيقة التى تتحدث الفرنسية وتعزف الموسيقى !

وفى ذات يوم ، وقع فى غرامها سرجى لفوفتش بوشكين ، أحد ضباط الحرس ، ثم تزوجها . وكان هذا الضابط من ابناء عم أمها ، أى انه ، بشكل ما ، كان يعتبر خالا لزوجته . وكان ، مثل شقيقه « فاسيلى » ، يحب أكثر من أى شىء آخر ان يلمع فى

المجتمع ، وان يمثل ، وأن يلقى الشعر . وكان ممن يؤمنون بالخرافات ويعجبون بفولتير ، كما كان ممن يترددون على الكنيسة . وكان خفيف الروح ، يجد كل شيء عسيرا . فقد ترك الجيش ليدير ضياعه ، ولكنه ما لبث ان ترك ضياعه لكى لايعمل شيئا ! وكان الاعتماد على ايراده يسبب له متاعب مختلفة . فما ان تزوج ، حتى كان اول ما خطر بذهنه ان يستقيل ويتقاضى معاشه ، ليرصد نفسه للواجب الثقيل ، وهو شغل وقت فراغه ! وكانت ثمة مأساة فى حياته .. فقد هزمه شقيقه فى سباق الشهرة ! وكانت حياته الزوجية فشلا يدعو الى اليأس ، اذ كان قد تصور هذه الحياة رحلة دائمة الى السعادة ، تتخللها طائفة من المواعيد الاجتماعية . الا ان هذه الرحلة كانت ذات عواقب لم يقدرها من بادىء الأمر : **فقد كانت نادزدا حاملا فى أغلب الأوقات ، كما كانت سيئة التصرف كمديرة للمنزل ، وقلما كنت تجد أغطية كافية أو ادوات فضية فى المنزل** . ومع ذلك فقد كان سرجى لفوفتش مطلق التصرف فى ألف شخص فى مقاطعة (بسكرف) . وكل ما كان عليه ان يفعله هو ان يبدى بعض الاهتمام بهم ، فيذهب الى هناك ويطلب الحساب من مدير الضيعة . ولكنه كان يفضل على ذلك ان يثير شجارا وهو على مائدة الطعام ، لأن كوبا من الزجاج لا يزيد ثمنه على خمسين فلسا قد كسر!.. وكانوا اذا دعوا بعض الضيوف ، استعاروا الملاعق من الجيران .. ولكن نادزدا مع ذلك كانت ترتدى الملابس الأنيقة المصنوعة من أفخر أنواع « الموسلين » !

وكان أول أطفالهما انثى سميت اولجا . وجاء بعدها ولد هو ألكسندر . وفى اليوم الذى ولد فيه هذا الولد ، كانت روسيا فى احتفال أيضا ، وظلت أجراس المدينة ذات الكنائس الكثيرة ترن ساعات متتالية .. كان الأمبراطور سعيدا لأنه أصبح جدا ، وكانت زوجة ابنه ــ القيصر الصغير ــ قد ولدت

بنتا . فى نفس هذا اليوم كانت هناك أم أخرى فى موسكو ملقاة على فراش بالطابق الأول من منزل كبير ، وكانت هذه الأم هى نادزدا ، وقد تناثرت خصلات شعرها الأسود دون نظام على الوسادة . وكان الطفل الحديث الولادة يمسك بأصابعه السمراء الصغيرة أطراف السلة الصغيرة التى وضع فيها بجانب فراش امه . . وانحنى أبوه فقبل جبهته ، ثم قال للأم : «سوف نسميه ألكسندر . . على اسم جدى ! »

فقالت تسأله وقد تغير شكل وجهها :

ـ هل هو جدك الذى دق عنق زوجته ؟ !

وعبس سرجى لفوفتش . . فقد كان يكره تذكيره بهذه الحلقة من تاريخ الأسرة ! وكانت نادزدا قد أدارت وجهها نحو الحائط وهى تقول : « افعل ما يحلو لك يا عزيزى ، فأنا لا يهمنى ! »

لم تشعر بأى عطف نحو الطفل الذى ولدته . . فقد كان يذكرها ـ بشدة ! ـ بأناملها الصفراء ، وبشعرها ، اللذين كانا يكشفان عن انها نصف زنجية ! . . لقد كانت ابنتها اولجا ، على الأقل ، ذات بشرة بيضاء

على ان الوقت لم يتسع لها لتسبح فى هذا الحلم ، اذ اعلن عن وصول أم سرجى لفوفتش .

وبذلت نادزدا مجهودا لكى ترفع جسمها قليلا ، كعلامة من علامات الاحترام لأم زوجها . . **اذ قلما كانت السيدة العجوز تزور منزل ابنها ، وكانت تلومه دائما لأنه تزوج فتاة بلا صداق ، ولا تملك شيئا . . فتاة سوداء ! فقد كان الأشراف فى عهدها يتزوجون من نساء بيض يجلبن اليهم المال والملابس والعبيد !** . . ولكن الجيل الجديد قد غير كل هذا ، وأصبحت النساء يرتدين ملابس تكشف عن شكل الأرداف ، وكان الفرنسيون قد قطعوا رأس الملك لويس السادس عشر تحت المقصلة ، ووضعوا مكانه جنرالا له اسم يصعب النطق

به ، ولا تستطيع الحماة أن تتذكره .. وكان هو الآخر قدتزوج من زنجية أو ما تقرب من الزنجية !

لقد كان زوجها المرحوم « ليف ألكسندروفيتش بوشكين » رجلا صعب المراس ، وكانت زوجته الأولى قد ماتت فى ذلك السجن الخاص الذى اودعها فيه عقابا لها على عدم اخلاصها له . أما عشيقها ، وهو ذلك المدرس الفرنسى الذى لقن أولادهما الآداب كما لقنهم لغة راسين ، فقد شنقه الزوج ، بغير احتفال ، على باب قصره !

وقبلت العجوز زوجة ابنها ، ثم نظرت الى الطفل من خلال منظار كانت تحمله فى يدها ، وأخذت تكرر القول :

ـ ليس فى وسعى أن أهنئك على شكله يا عزيزتى !

وظهرت لمحة خفيفة من لمحات الخجل علىوجه نادزدا .. وما لبثت ان قالت للخدم :

ـ خذوه بعيدا عن هنا !

• **لم** تحب نادزدا ابنها الكسندر . أما أبوه سرجى لفوفتش ، فانه ما كان يهتم بالأطفال . وكان فى وسعه ان ينسى تماما انه أب ، لولا انه كان يروق له من وقت لآخر ، وهو فى حفلة من حفلاتالاستقبال ، ان يذكرجملة ذات معنى عميق يكون قد قرأها فى كتاب «أميل» ! (١) وأما عن نادزدا ، فانها لم تكن تكلف نفسها عناء اخفاء قلة اهتمامها بابنها .. فاذا اجتمع الاثنان ، بدا ان من المستحيل ان تنجب امرأة جميلة ـ كهذه ـ طفلا قبيحا كذلكالطفل ! علىانالأم استمرت فى انجاب الأطفال ،فجاء بعد ألكسندر ولدان هما : نيكولاس، وليف ، الذى كان يطلق عليه اسم ليون ..

---

(١) كتاب مشهور فى التربية وضعه المفكر الفرنسى « جان جاك روسو » .. وقد لخصه لك (كتابى) فى عدده الرابع .

وقبل أن يبلغ الكسندر سن الثامنة ، كان بدين الجسم ، ثقيل الظل .. وكانت الأشياء تقع من يده ، فاذا اعطى منديلا، فقده على الفور ! وكانت نادزدا — التى لم تقرأ كتاب اميل ! — تقرصه بأصابعها الطويلة عقابا له . أما هو ، فكان قد ورث عنها عادة قضم أظافره بأسنانه . ولكى تشفيه من ذلك الداء، كانت تقيد له يديه خلف ظهره ، وتتركه على هذه الحال يوما بأكمله . وعندما كانت الأمور تتحرج الى اكثر مما يحتمل ، كان يلجأ الى مربيته « نيانيا » ، او يختبىء فى سلة اصواف جدته !

وعندماكان فى الثانيةمن عمره «تعرف» بالاسرة القيصرية ! كانت مربيته نيانيا تصحبه للنزهة فى حديقة يوسوبوف — وهى جنة خضراء — **وفى ذات يوم ، قابلها الامبراطور بول ، الذى كان يقال عنه انه مجنون ، فبلغ من رعب المربية انها نسيت ان ترفع قبعة ألكسندر عن رأسه ، فما كان من الامبراطور الا ان أزاحها عن رأسه ، بحركة سريعة من عصا الركوب التى كان يحملها فى يده .وهكذا بدأت صلة ألكسندر بالاسرة الحاكمة بداية سيئة !**

ولما جاوز الثامنة ، أخذ فى النحول حتى صار خفيفا كالسوط، كثير الضوضاء ! .. وكانت الجدة قد اشترت ضيعة صغيرة على مسافة قريبة من موسكو واطلقت عليها اسم (زاخاروفو). وهناك ، كانوا يقضون الصيف فى منزل خشبى، تحيط به حديقة كبيرة . وكانت القرية صغيرة لايقطنها سوى بضع عشرات من الأفراد .. قرية لم يكن فى وسعها ان تفاخر حتى بوجود كنيسة واحدة فيها ! .. ولذا ففى ايام الآحاد كانوا يذهبون — للاشتراك فى الصلاة — الى قرية مجاورة كان يملكها « بوريس جودونوف » . وفى هذه القرية ، كانت الفتيات يرقصن فى حلقات ، فى أمسيات أيام السوق ..

وفى ذلك الصيف نفسه ، توفى نيكولاس ، شقيق ألكسندر

الأصغر . ولم يكن ألكسندر قد اهتم لمرضه فى بادىء الأمر ، ثم ما لبث أن شعر بالأسف من أجل شقيقه الأصغر وأراد ان يسري عنه . ولكن لم يلبث نيكولاس ان مات ، ودفن فى مقبرة القرية الصغيرة .. وذهب الجميع الى هناك لسماع الصلاة. وسارت نادزدا وراء النعش بقامة منتصبة ، ووجه عبوس ، وعين جافة . وسار من ورائها سيرجى ليفوفتش ، وهو يكاد يغمى عليه . وكان يتكىء على خادمين من عبيده أمسكا بذراعيه، وقد تورم وجهه !

وجاء الخريف ، فأخذ الكسندر يقضى أياما بطولها فى الحديقة .. وكان مبتهجا بكل شىء : بتلك التيجان الصفراء التى كانت تكلل أعالى الأشجار ، وبالهواء يهب عليها فيحدث صوتا كالخرير ، وبتلك الرائحة النفاذة المتصاعدة من الأوراق المتساقطة وقد تعطنت بتأثير مياه الأمطار . وكانت تغمره الحان غامضة ، وأنغام معذبة .. كانت تتركه فى النهاية هامدا سعيدا ، كأنه قد شفى من حمى !

وفى ذلك العام كان مقررا أن يفد اليهم مرب جديد . فقد طرد المربى السابق ـ وكان لاجئا فرنسيا اسمه الكونت دى مونفور ـ لأنه أغوى فتاة من الخدم !.. وكان قد سبق لهم ان ألحقوا بهذه الوظيفة سيدة انجليزية اسمها مس بيللى ، ثم رجلا المانيا ، ثم روسيا كان اسمه « مسيو بيليكوف » .. فلقد بذلت الأسرة كل ما بوسعها لتعليمهم تعليما كاملا ، أو ـ بعبارة أخرى ـ لتعليمهم التحدث بالفرنسية كأنها لغة أمهم !

ولم يكن ألكسندر سعيدا .. فقد كانت أمه تحب ليون اكثر منه ، وكان والده لا يوجه اليه أى انتباه ، ولكن .. كانت هناك ـ لحسن الحظ ـ الكتب .. كان « يفترس » الكتب التى يجدها فى مكتبة والده افتراسا ، دون أن يعرف احد بالأمر . وهكذا قرأ : كورنى ، وموليير ، وراسين ، وبوالو ، وفولتير ، وروسو ، وديدرو .. بل لقد قرأ بواكير الأدب الروسى:

قرأ « ليز المسكينة » لكارامزين ، وقرأ مقطوعات درزهافين وقصائد زوخوفسكى . وما لبث أن وصل الى الجزء المخصص للكتب السرية ، حيث كان سيرجى ليفوفتش يحتفظ بكتب شامفور وجريكور

كان الفتى يشعر بخديه يلتهبان ، وبأنفاسه تلهث ، وهو يقرأ شعر : دى ليل ، وسكارون ، وفيرجيبيه ، وجريكور.. وغيره من الشعر الغزلى الذى تزينه صور مبتذلة تمثل الراعيات وهن يسقطن بملابسهن على الأرض ، فى حين يحاول الرعاة أن يلمسوا تلك الكنوز المخبوءة فى أجسامهن !

« بكلمات متواضعة ونظرات جريئة ،
« كان (دانيز) يتابع (زلير) ، مرة هنا ومرة هناك ،
« وكان يفوز بقبلة فى حلاوة العسل ، ولكنه لا يقنع ،
« الا بعد ان يلمس الكنز المخبوء فى صدرها »

كان قلب بوشكين الفتى يدق حتى ليكاد ينفجر ، وهو يقرأ امثال هذه القصائد الغزلية ، فقد كان يجرى فى عروقه الدم الحار .. دم اجداده الافريقيين ! .. كان الها صغيرا ، نشيطا ، جريئا ، يشبه هؤلاء الرجال الذين رأى اشكالهم فى الصور الممنوعة ..

ممنوعة ؟ ولماذا ؟ ألأنها من أسرار الحب ؟ ! .. لقد كان يدرك هذه الأسرار ادراكا غامضا ، ويكاد يعرفها بجسمه الحار ذى العضلات المفتولة .. النساء ؟ ! لقد بدأت نعومتهن ، ورائحتهن ، والسر العجيب الكامن فى تكوين أجسامهن .. بدأت كل هذه الأشياء تشغل ذهنه وتسبب له الاضطراب ! آه لو كان كبيرا .. لو كان قويا ! .. متى يبلغ السادسة عشرة من عمره ؟ ! .. ومع ذلك فقد كان يحتفظ بسرين . الأول : أن الحب كان قد دخل قلبه . ومن الجلى أن حبه لم يكن له علاقة بالصور الممنوعة . لا ! لقد كان حبا رقيقا ، نقيا ، ساميا ،

وكان هذا الحب يتركز فى « كاتيا شوشكوف » ، وهى فتاة شقراء صغيرة كان يراقصها فى مرقص (يوجيل) . وكان « مسيو روسلو » — المربى الجديد — يصحبهم الى يوجيل ، الذى كان أشهر معلم للرقص فى موسكو . وكانت اخته «أولجا» ترتدى ملابس من الطراز اليونانى ، أما هو وليون فكانا يرتديان السراويل التركية . وكان يوجيل ألمانيا مسنا ، يرتدى طاقية من الشعر المستعار ، وحذاء له قفل معدنى ، كما كان يبدو « فولتير » فى صوره . وكان يعزف على آلة صغيرة ، ويتوقف أحيانا لكى يضرب الأرض بقدمه ويقول :

— واحد ، اثنان ، ثلاثة ! .. واحد ، اثنان ، ثلاثة ! دورة واحدة فى مكانك !

على ان ألكسندر ما كان يعرف الكثير عن كاتيا .. لقد كانت تحضر دائما ومعها مربية انجليزية .. وذات مرة قدمته اليها ، فضم كعبى حذاءيه معا ، وأحنى رأسه ! وكان ان أعطته المربية قطعة من الكعك

أما السر الثانى ، فهو أنه كان يقرض الشعر . نعم ! لقد كان يعرف الآن كيف يهدىء سورة الحمى المشتعلة فى نفسه ! وكان كل ما عليه ان يفعله ، هو ان يضع قافية منتظمة متفقة ، فى نهاية كل بيت : « الحب .. القلب ! اليوم .. النوم ! » . ومن الواضح الذى لا يحتاج الى ذكر ، انه كان يكتب بالفرنسية ، لأنه ما كان يعرف أن من الممكن أن يكتب المرء بأية لغة أخرى ! .. وبهذه الطريقة أيضا كتب رواية تمثيلية دعاها «النشال» ، بل ومثلها لشقيقته اولجا . وكان هو المدير والرسام والممثلين والمخرج ! .. وكانت اولجا هى النظارة ! .. ولكن « النظارة » حكمت على الرواية بأنها هراء وسخف . ولما سمع ذلك ، ألف أربعة أبيات قال فيها :

« لقد أحدث الجمهور الذى شهد حفلة افتتاح : النشال

« ضجة كبرى ، وكان واضحا
« أن المؤلف يستحق ذلك ، لأن روايته
« كانت قد نشلت من جيب موليير ! »

وفى ذات يوم قال سيرجى ليفوفتش لزوجته :
ـ ياملاكى ! كم يبلغ ساشكا من العمر ؟
وفكر « ملاكه » لحظة ثم قال :
ـ لا بد أنه يبلغ الحادية عشرة !
ومر سيرجى ليفوفتش بيده على جبهته ـ وقد اتخذ هيئة شخص يبذل مجهودا ذهنيا كبيرا ـ ثم قال : « يبدو ان الوقت قد حان لارساله الى مدرسة داخلية ! » .. فقالت : « وما السبب فى هذا ؟ ان المسيو روسلو يعلمه تعليما كاملا ! .. ثم ، ألا ترى ياعزيزى ان حالتنا المالية تمنعنا من انفاق المال فى الأوجه غير الضرورية ؟ ! »
ولم يضيع سيرجى ليفوفتش الفرصة ليقوم باستعراض لعواطفه الأبوية .. اذ تذكر « اميل » ، فقال :
ـ يا ملاكى ! اننى لن أكف عن التضحية بنفسى من أجل أولادى . لقد انقضى الوقت الذى كان يكفى أن يكون المرء فيه من اسرة كريمة حتى يحصل على وظيفة حسنة ..
ولم تجب نادزدا ، فوقف أمامها ثم قال :
ـ هذه أمور لا يمكن للنساء فهمها .. يا ملاكى !

وتقرر أن يلحق ألكسندر بمدرسة الآباء اليسوعيين (الجزويت) فى سانت بطرسبرج . كانت المصروفات باهظة ، ولكن «الجزويت» كانوا «موضة» الموسم ، فان صفوة الأمبراطورية: آل جورشاكوف ، وآل تربتسكوى ، وآل دولوجوروكيس ، كانوا يعهدون للآباء الكاثوليك بتربية أولادهم الأرثوذكس ! ولكن ألكسندر نجا من الجزويت ! .. فقد قال عمه فاسيلى ليفوفتش ـ فى المؤتمر العائلى الذى عقد بعد أن انتهى الحديث



ألكسندر بوشكين : رسم رائع لشاعر روسيا الأعظم ، عندما كان طالبا بمدرسة (الليسيه) الامبراطورية

بين سيرجى ليفوفتش وزوجته :

ـ ولماذا لا يذهب الى مدرسة « الليسيه » ؟

وكان قد تقرر افتتاح « الليسيه » فى الخريف .. وانتشرت شائعة بأن الامبراطور ينوى أن يرسل شقيقيه ـ الغراندوق نيكولاس والغراندوق مايكيل ـ لكى يتلقيا العلم هناك . وكانت تعليمات المدرسة تقضى بتحريم العقوبات البدنية ، وكان هذا شيئا لم يسمع به من قبل ! . وتعهد فاسيلى ليفوفتش بتنفيذ الفكرة . وقال للوالدين وهو يضع يده السمينة على رأس ألكسندر المجعد الشعر : « فلتعهدا به الى ! »

هكذا كانت طفولة أكبر شعراء الروس .. فلقد تعلم اللغة الفرنسية ، والذوق ، والهجاء ، بل والرقص أيضا . كان تعليمه كاملا .. ولكنهم كانوا قد نسوا أن يعلموه شيئا واحدا : لغة بلاده !

- ٢ -

• فى الصباح الباكر من يوم ١٩ اكتوبر ١٨١١ ، وصل صاحب الجلالة الامبراطور ألكسندر الى قصره الصيفى فى (تسارسكو سيلو) ، ليفتتح مدرسة « الليسيه » التى ستخصص لتعليم أبناء الأسر الكريمة . وكان وزيره سبرانسكى قد قام بنفسه بوضع قواعد هذه المدرسة الخاصة التى تشرفت باهتمام القيصر الخاص . بل لقد اقترح القيصر ان يتلقى شقيقاه علومهما فيها ، الا أن القيصرة الأرملة ـ والدته ـ عارضت ذلك ، اذ بدا لها أنه من قبيل مشروعات الثورة الفرنسية ! .. وكان الامبراطور نفسه قد أخذ يفيق من أوهام الديمقراطية ، بل لقد اشيع ان منصب سبرانسكى نفسه لم يعد وطيدا . كان الامبراطور قد بات حليفا وصديقا لنابليون منذ عقد صلح تيلست .. أما اليوم فانه أصبح يحلم بابادته! ولكن محاربة بطل اوسترلتز كانت تتطلب ترتيبا دقيقا ، ولذلك

فانه كان يفكر فى ذلك ليل نهار ! **ولم يكن هنــاك من يشك فى ان تغييرا قــد طرأ على افكاره .. فقد كان القيصر مخــادعا بطبيعته ، وكان قــد تعلم كيف يخفى حقيقــة نفسه . ومن الطبيعى ان ((الليسيه)) لم تعد تشغل افكاره ، كما لم تعــد الأفكار الجميلة الخاصة بالتعليم الحر ، فى رأيه ، الا وسيلة من وسائل الانقلاب ! .. كان قد شفى تماما ، حتى من تعــاليم روسو !** ولكنه مع ذلك حفظ وعده ، وتنازل عن جناح من قصره لكى يشغله الثلاثون تلميذا الذين سيلتحقون بالمدرسة الجديدة ، وقدم هو ليفتتحها بنفسه !

كان يقلب جميع هذه الأشياء فى عقله خلال الاحتفال ، وهو يجلس فى الصف الأول ، وأمامه مائدة يغطيها المخمل الأحمر . وكان وجهه يحمل تعبيرا يدل على شعور مهذب بالسـأم . وجــاء دور الخطب التى وصف فيهــا الطلبــة بانهم أعمــدة الدولة . ولم يــكن فى مظهرهم مــا يدل على انهم شبــاب الامبراطورية الذهبى ، او زهرة الارستقراطية الروسية ، بل انهم بدوا كأولاد بعض النبــلاء الريفيــين الذين كان لهم من نفوذهم ما ســاعدهم على الحاق ورثتهم بمدرسة يمــكن أن يتعلموا فيها على حساب الدولة !

وتثــاءب القيصر ثم نهض ، ليزور أقســام المدرســة .. وبينما كان « أعمدة الدولة » يلعبون على الجليد ، على أضواء المشاعل ، أمر الامبراطور باستدعاء العــربة الامبراطورية ، ثم غادر المدرسة .. ولم يعد اليها الا عند تخريج اول دفعة فيها

* * *

• **كانت** صالة الطعام تطن كخليــة النحل ، وتختلط فيها أصوات الحــديث والضحك والأكواب . . وفجأة فتح الباب ودخل المدير مالينوفسكى ، وكان رجلا قصيرا أصلع الرأس ، وتنحنح الرجل ثم قال : « أيها السادة .. ان لدى أعلانا يجب

أن أبلغكم أياه : **ان جلالته يرغب فى الا يغادر التلاميذ المدرسة طوال أعوام الدراسة .. حتى ولا أثناء العطلات المدرسية !»**

ونظر الى التلاميذ من خلال نظارته المذهبه ، ثم أبدى اشارة تدل على عجزه التام فى هذا الموضوع .. فان هو الا منفذ للأوامر العليا ! وحدق التلاميذ فى أطباقهم ، وصرخ بعضهم عندما فكروا فى انهم لن يروا منازلهم خلال ستة أعوام ! وكان بوشين (طالب كبير كان يجلس بجانب ألكسندر) واحدا من هؤلاء الذين صرخوا ، فانسابت الدموع على وجهه السمين الممتلىء وتساقطت فى طبقه . **ونظر ألكسندر الى صديقه الجديد فى دهشة .. فان ما أعلنه ناظر المدرسة لم يثر فى نفسه أى شعور !..** كان يعيش بكليته فى الحاضر .. فقد كان المتنزه يدخل السرور الى نفسه اكثر من أى شىء آخر . وكان متنزه قصر تسارسكو سيلو جميلا جدا رغم اهماله قليلا ، كما كان واسعا ، مملوءا بالطيور ، والأصوات ، والبرك ، والتماثيل ، والأفاعى غير السامة التى كانت تنفلت من بين أصابعك اذا حاولت الامساك بها !

أما القصر ، فكان على العكس من ذلك .. كان قصرا بشعا ، أصفر اللون ، بنى على طراز قصر بوتسدام . وكان الجناح الذى خصص للمدرسة هو ذاك الذى كانت تعيش فيه الاميرات — الغراندوقات — الى يوم الزواج !

وكانت كاترين تحب قصر تسارسكو سيلو ، وتتردد عليه من وقت لآخر لتستريح من عناء الحكم ، وتقرأ خطابات مسيو دى فولتير ، وتزرع الورد . كانت الورود كثيرة جدا ، حتى ان جزءا من المتنزه أطلق عليه اسم « حقل الورد » ، وكان هذا الجزء هو أحب الأجزاء الى قلوب تلاميذ المدرسة الخاصة .. فكانوا يتريضون هناك ويتعاركون ويتلاعبون .. وفى الشتاء يتقاذفون بكرات الثلج . بل انهم — أحيانا — كانوا يستذكرون دروسهم هناك

* * *

• **من** خلال فجوة بين السحب ، كشفت عن السماء الزرقاء، تدفقت كمية عريضة من الضوء الى الفصل الدراسى. وانساب الضوء فى بطء وبرود حتى وصل الى صورة الامبراطور وايقونة « سيدة كازان » المقدسة .. وداعبت الأشعة رؤوس عدد من الفتيان ، ثم طبعت دائرة ذهبية على مقربة من السبورة . وقال المدرس : « مسيو بوشكين .. تعال الى السبورة! ». فوقف مسيو بوشكين ثم تقدم وعلى وجهه مظاهر التفكير . وسأله المدرس : « كم تساوى س ؟ »

فأمسك « عامود الدولة » فى المستقبل بالطباشير ، ونظر الى المعادلة الجبرية.. لقد كان يشعر بالرعب من العلوم الرياضية! وقال دون اقتناع : **« س تساوى صفر ! »**

فقال المدرس : **« غريب جدا هذا يامسيو بوشكين ! ان كل شىء فى دروسى يساوى صفرا بالنسبة لك !.. عد الى مكانك واستأنف عملك فى القصيدة التى تكتبها ! »** .. كان أستاذ الرياضة رجلا عصريا ، ولم يكن متعصبا للرياضة الى درجة تجعله يعلن الحرب ضد الفنون الجميلة !.. لقد كان أمل مؤسسى هذه المدرسة (الليسيه) أن يجعلوا من تلاميذها قواميس متحركة، فلم يهملوا ادراج أى موضوع فى البرنامج.. وكان هذا البرنامج يشمل : اللغة الروسية ، واللاتينية ، والفرنسية ، والدين ، والفلسفة الخلقية، والمنطق ،والحساب، والجبر ، والطبيعيات ، والتاريخ ، والفنون الجميلة ،والقانون، وعلوم الاجتماع ، والاقتصاد السياسى ، وعلم الاحصاء !.. ولم يكن فى وسع أحد أن يلم بأكثر من ربع هذا . الماما رديئا ! وكان من الصعب العثور على الأساتذة ، والذين عثر عليهم كانوا من المتخرجين حديثا فى جامعة (جوتنجن) ، ومن المغامرين الذين وصلوا الى روسيا سعيا وراء الثروة ، فكانوا

خليطا غريبا من الكتاب والفلاسفة والماسونيين والدجالين.

وكان الفتيان يتعلمون شيئا من كل شيء، حتى الرقص والمبارزة.. فقد كان يراد بهم أن يصبحوا فى المستقبل لا مجرد موظفين ولكن من أقطاب العالم !.. وفى الشتاء، كانوا يمارسون رياضة الانزلاق على الثلج الذى كان يغطى سطح البحيرة، أو يتنزهون جماعات فى العربات الزاحفة على الجليد ويجولون بها فى المناطق المحيطة بالقصر الامبراطورى . وفى الصيف، كان البلاط يحول قصر «تسارسكوسيلو» الى عاصمة مصغرة للملك، تعج بالمؤامرات والحفلات ومطاردة اللذات ! .. وكان التلاميذ يعيشون على اتصال وثيق بالقصر الذى كان لايفصله عن المدرسة الخاصة سوى ممر واحد طويل .. وكانوا فى كل يوم - عند الغسق - يشاهدون شخصا بدينا يعبر البساط السندسى الذى يغطى الحديقة، يتبعه شرطيان متنكران، على بعد خطوات، دليلا على سمو مركزه .. **كان أتقى ملوك أوروبا، وأشدهم محافظة على الفضيلة، فى طريقه لزيارة عشيقته، المدموازيل فيبو .. ذات الستة عشر ربيعا !!**

* * *

• **خلع** ألكسندر ملابسه ثم أشعل الشموع .. ووضع يده تحت الوسادة، فأخرج مجلدا من الشعر الفرنسي . كان قد تخلص من سترته الرسمية ذات الأزرار المذهبة، التى كانت تجعله يبدو كأنه من الأشراف . وظهر - بعد أن تخلص من هذه الثياب - على حقيقته: نحيفا، لين العضلات، متوسط الطول، ولكن .. قويا . كان فى وسعه، بقفزة واحدة، ان يعتلى ظهر المائدة ليقوم بالقاء قصيدة، كما كان فى وسعه ان يقفز على أى مقعد من المقاعد وهو يسند ظهر المقعد بيد واحدة . كان نشيطا دائب الحركة كالقرد، ومن ثم أطلق عليه اسم «القرد» ! وكذلك أطلق عليه اسمه « الفرنسي » لأنه كان

أحيانا يتكلم اللغة الفرنسية وهو نائم !

ولم تكن هناك رحمة فى اطلاق هذه الأسماء . كان العام عام ١٨١٣ .. وكان «الوحش» ، أو «الكورسيكى»، أو «بونابرت»، وفى كلمة واحدة : نابليون . . كان قد غزا روسيا دون اعلان حرب ! وفى كل يوم ، كانت بعض فرق من الجنود تمر أمام نوافذ المدرسة الخاصة .. كانت أشباح الجنود، وهم يرتدون معاطفهم الشتوية الطويلة ، وعلى وجوههم مسحة من الحزن، تتتابع امام الانظار . . **كان يبدو كأن دم روسيا هو الذى يتدفق أمام نوافذ المدرسة ، متمثلا فى الجنود الذين كانت تبعث بهم الأقاليم فى كل يوم الى ميدان القتال . ومع ذلك فقد كان نابليون يتقدم !** ومنع ارتداء القبعات الاسطوانية الشكل . ثم حدث شىء غريب : فقد امتنع سماع اللغة الفرنسية فى الصالونات .. وكم كان يبدو غريبا سماع اللغة الروسية وهى تخرج من شفاه السيدات ! فمنذ عهد كاترين ، لم يتحدث ابناء البيوتات الكريمة الا بالفرنسية ، اللهم الا اذا وجهوا الحديث الى أحد الخدم !

وتأوه ألكسندر ، فانه لم يكن محبوبا ! كان عنيفا ، ليس من السهل فهمه . ولكن ، كان هناك – لحسن الحظ – الشعر ! وكانت فى الشعر الذى يتدفق من الطالب الذى لم يبلغ خمسة عشر عاما ، مسحة من الخفة والرشاقة والنقاء ، جعلت انصار «رامازين» و « زهافين » – أبوى الأدب الروسى – يهزون رؤوسهم! وكانت قصائده تظهر فى مجلتى «الناصح» و «حكيم المدرسة » .. وهما من المجلات المدرسية ، ولكن الفتى كان قد بدأ – منذ مدة قصيرة – يبعث بقصائده الى المجلات .. الى مجلات حقيقية فى هذه المرة . وكانت قصيدة « الى زميلى الشاعر» قد ظهرت فى مجلة « الناصح الاوروبى » ، بتوقيع مستعار

كان يفكر شعرا ! وكان الشعر يواتيه وهو نائم ! . . وكان

الوحى يجرفه كما لو كان زوبعة رملية .. وفى هذه اللحظات ، كان يصل ما بين حاجبيه.. ثم يختفى كل شىء من حوله!كان مثل راهبة معبد أبولو : صدفة خاوية ، أو معبدا يؤمه اله غامض !

* * *

• **كان** أبوالأدب الروسى وشاعر كاترين الثانية،«درزهافين»، قد تحول الى أثر حى . كان « كورنى » و « ميلتون » قد اجتمعا فى شاعر روسيا الكبير . ولكن الذوق السائد فى تلك الأيام كان يميل نحو الحزن ، ولم تعد قصائد « درزهافين » والتطلع للمثل العليا « موضة » العصر . . ومع ذلك فقد ظل نفوذه عظيما !

وفى اول يناير عام ١٨١٥ ، ساعده خادماه حتى وضع قدميه داخل حذاء مبطن بالفراء . . فقد كان الدم يتجمد بسرعة فى ساقيه العجوزين المريضتين. وبعد ذلك قاما بلفه فى عباءة من الفراء ، ثم أجلساه بعناية فى عربة زاحفة . وأمسك الحوذى العنان ، فبدأت الجياد السير على الجليد الذى اصفر لونه لفرط ما تساقط عليه من روث الجياد !

وشعر أبو الأدب الروسى بالنعاس . . وكانت مهمته هذه تذكره بشىء ما : فكم من مرة سافر الى (تسارسكو سيلو) لكى يؤدى فروض الولاء والطاعة لـ « سميراميس » الشمال ؟! ولكن سميراميس ، أو بالأحرى كاترين ، كانت قد توفيت منذ مدة طويلة .. كذلك مات ابنها بول ، الذى جاء ثمرة عبث امبراطورى !.. وبقى هو وحده على قيد الحياة !

ووصل الى المدرسة الخاصة بعد سفر استغرق عدة ساعات .. وصل متجمدا ، متعكر المزاج ، وقد جمد الدم فى قدميه رغم الفراء . ومن وقت لآخر ، كانت تتساقط من أنفه الاحمر نقطة من الماء تقع على ملفحته. وسارع الخدم فخلصوه

من كل ما كان يلتحف به ، فبدا ــ بطاقية الشعر المستعار ، تزينها المساحيق ــ وكأنه شبح من اشباح الماضى ..! وكان هناك طالب جاء يعدو لكى يقبل تلك اليد التى كتبت قصيدة « الشلال » ، ثم عاد خائبا دون ان يؤدى ضريبة الاعجاب !

وأخذ كورنى الروسى يصغى ، وهو نصف نائم ، الى امتحانات الجغرافيا والرياضيات والتاريخ ... رياضيات ؟ وتاريخ ؟ لقد أصبح الشباب كثير العلم فى هذه الأيام!.. وأخيرا جاء دور الأدب . وسمع نقاشا يدور حول قصائده ، فهب واقفا ، وقد لمعت عيناه تحت حاجبيه الأبيضين الغزيرين . وفجأة ، سمع اسما يتردد : بوشكين. بوشكين! يبدو ان هذا الاسم يذكره بشىء ما . ورفع عينيه فرأى فتى مراهقا، نحيف البنية ، مجعد الشعر ، ينظر اليه بعينين زرقاوين كبيرتين ، تغايران تماما شكله العام الذى كان لايختلف كثيرا عن شكل زنجي !.. ورفع الفتى يده اليمنى، ثم بدأ الالقاء فى نغمة غنائية متزنة ، وبصوت يرتجف من فرط التأثر :

« ان الريح وهى تهب على أوراق الأشجار تكاد تستنشق ، والقمر يتحرك فوق السحب الفضية مثل بجعة عظيمة، والليلق، ملك الحقول ، يزدهر فى جمال يباهى به ، والحوريات يعبثن فوق مياه البحيرة الناعسة ... »

هذه الموسيقى .. هذا النغم العظيم البطىء ، هو من صنع الفتى ذى الشعر المجعد الذى يشبه وجهه وجه القرد ؟! .

يا للتعس ! لقد أراد « درزهافين » ان يقف على قدميه العجوزين .. كان يريد أن يصيح فى المدعوين ، وفى الوزير ، وفى جميع الموظفين الرسميين اصحاب الملابس اللامعة الأزرار، الذين لم يتنبهوا الى هذه الموهبة الجديدة التى أمامهم ! كان يريد ان يصيح بهم : **« أمامكم يقف الآن درزهافين الجديد .. انه يتمثل فى هذا الصبى ! »**

وكان يريد أن يقبل الصبى ، وأن يسلم اليه شعلة الشعر ،

مشهدا على بيعته « أبولو » وباقى الالهة !

وفجأة ، غطى بوشكين وجهه بيديه ، وتدفقت الدموع بغزارة وقسوة من خلال أصابعه ، فشق طريقه بين الموظفين ـ بملابسهم الرسمية ـ وصفوف السيدات ، وأسرع هاربا دون ان يلتفت الى الخلف . ولم يتمكن أحد من أن يعثر له على أثر ، بقية ذلك اليوم !

- ٣ -

« فلتحب اذن ، لأن الوقت يفر طائرا
« فمن أسعد أيامنا هذه ، نصنع أفضلها !
« أفى سن الشيخوخة الباردة
« يمكن أن يشعر الرجل بنار الحب فى صدره ؟ »

• **كان** الامبراطور ألكسندر يستعد للنزهة . ولما كان قد نما وأصبح قويا ، فانه كان يشعر بنوع من الثقة فى النفس . كان هو قاهر نابليون ، وكان هو روح المحالفة المقدسة ، ومنقذ أوروبا .. كان مصير العالم المتحضر بين يديه هو ومترنيخ ! أما تهمة القتل التى علقت به حينا ، فانها كانت قد تبددت .. وكان الروس ينظرون اليه دائما على انه فاتح باريس !

وكان بلاطه أتقى بلاط فى أوروبا .. وكان هو معروفا باسم « الملاك » ، نظرا لميوله الدينية ! .. كما كان يحب دائما ان يقارنه الناس بلويس الرابع عشر ! .. وقد اعتاد ـ خلال هذه النزهات الصباحية ـ ان يناقش المسائل السياسية .

وكان فى ذلك اليوم قد أرسل يستدعى «انجلهارت»، المدير الجديد للكلية الامبراطورية الخاصة ، فلما ادخل اليه قال له : « اننى غير راض عن سلوك تلاميذك ، فقد وصل بهم الأمر الى حد معاكسة وصيفات زوجتى ! » . وابتسم انجلهارت فى أدب ثم قال : « هل تقصد جلالتك الحادث الاخير الذى وقع

من بوشكين ؟ »

ـ بالضبط . . فقد شكت الأميرة فولكونسكى الى الامبراطورة . فماذا وراء كل هذا ؟

ـ انه أمر بسيط جدا يامولاى : فقد كان تلاميذى يمرقون من الرواق الذى يصل الكلية بالقصر لكى يشهدوا الحفلة الموسيقية التى تقام كل مساء فى المتنزه ـ وأظنكم تعرفون انه يوجد فى الطريق ممر مظلم جدا تطل عليه حجرات الوصيفات ـ **وفجأة ، سمع بوشكين صوت باب يفتح ، فظن أنها ناتاشا خادمة الأميرة فولكونسكى ، وهى فتاة صغيرة يحبها هو . . فانطلق من فوره ليعانقها ! ولسوء الحظ كانت هى الأميرة فولكونسكى نفسها !**

ـ يبدو أن تلميذك بوشكين هذا فتى متوحش ، فاننى لم أنس بعد حلقة الشراب بالليل ، وقد قص أمرها على ، فى وقتها ، رازوموفسكى . **ومعنى هذا أنه لايكتفى بتحريض اصدقائه فقط على شرب الخمر ، ولكنه يعقد الصلات أيضا مع الموظفات بالقصر . أليست هذه حالة تستوجب العقاب ؟**

ـ مولاى ! سوف تسامحنى جلالتكم اذا ما تحدثت اليكم بصراحة . **ان لبوشكين أخطاءه ، وأنا أول من يعترف بهذه الأخطاء . . ولكن ، يجب أن لاننسى أنه ينحدر من أصل افريقى ! ثم ان مواهبه الاستثنائية تتطلب ، بلا شك ، تقديرا خاصا . وان أعظم كتابنا ـ مثل زوكوفسكى وفيازمسكى ـ ليرون فيه أمل الأدب الروسى فى المستقبل !**

ـ ومع ذلك فان الأشعار التى نظمها بمناسبة عودتى من باريس لم تكن جميلة !.. تعال هنا ياشارلو !

وأخذ القيصر يربت بيده على الكلب . اذن فان هذا الشاعر الصغير ، الذى أخذ كل الناس يتحدثون عنه ، لم يجد وحيا يستلهمه من حكمه ؟ وهل كان من الممكن ان يتحقق نصر (واترلو) لو لم ينفق القيصر عشر سنوات فى توحيد اوروبا ضد « الوحش »

بونابرت؟!.. وضغط على الوردة التى كان قد التقطها ، ثم القى بها أرضا ..

وأخذ «انجلهارت» يسير فى صمت ، اذ خشى أن يكون قد أغضب القيصر . لقد كان فى قرارة قلبه النقى يعتبر بوشكين اباحيا . فقد كان هو نفسه يميل الى روح القرن الثامن عشر .. القرن الذى كان فاضلا ، عاطفيا . على انه كان ماسونيا ، حرا ، من تلاميذ روسو ، فكان يعامل تلاميذه معاملة الأب لأولاده .. ومن ثم كانت مهمته أن يدافع عن بوشكين . ولكنه لم يكن يحبه .. وكان بوشكين يبادله هذا «الحب المفقود»!..

وكان ألكسندر قد استأنف سيره ، فوق حبات الرمل التى كانت تحدث صوتا تحت قدميه . وقرر أن يتساهل ، فقال : « وما هى نصيحتك اذن ؟ »

ــ الرحمة يامولاى !

وتذكر الامبراطور فى هذه اللحظة شفتى الأميرة فولكونسكى الرقيقتين ، وعنقها ذا التجاعيد ، فابتسم ببطء . ثم قال يخاطب ناظر المدرسة :

ــ انك على صواب .. فى النهاية ! ربما كانت الوصيفة العجوز قد سرت بالخطأ الذى وقع فيه الشاب !

* * *

• **لم** يشعر بوشكين بالعاصفة التى مرت فوق رأسه . وكان لايستذكر دروسه الا قليلا ، وبطريقة رديئة .. ومع ذلك فان سنواته فى الكلية كانت تقترب من نهايتها . وكان لايكاد ينطلق وراء أسوار الكلية حتى تتبدد من أمامه أوهام الفضيلة والمساواة ، تحت انفاس الحقيقة القاسية ! **كانت المظالم والعبودية تحدق فى وجهه .. فقد كان هناك رجال «يملكون» رجالا غيرهم ، وكان فى وسعهم أن يعرضوهم للبيع « بالجملة او بالقطاعى!»» ، فيفرقون بين الولد وأمه ، وبين الزوجة وزوجها!**

وكان فى وسعك أن تقتل العبد ، فلم تكن هذه جريمة ، وانما كانت « خسارة » فقط .. فقد كانت هذه الأرواح ثروة لصاحبها !

كل هذا حدث بعد مونتسكيو و فولتير و روسو .. بل بعد شيللر الذى كان يعتقد أن المجتمع قد بلغ أقصى درجات الكمال ! كل هذا حدث بعد الثورة الفرنسية !.. كان كل فرد يشعر بأن من المحال ان تستمر هذه الحال، لأنها بالية ، آثمة. وقد كان من الجنون ان يفكر أحد فى مهاجمة الأوتوقراطية والعبودية ، وهما الركنان الصنوان اللذان كانت تقوم عليهما امبراطورية القياصرة . ولكن منذ سقط الباستيل ، آمن الناس بأنه ليس ثمة نظام فى العالم يمكن ان ييأس القوم من القضاء عليه . وكان هذا النظام القائم فى روسيا قد أكله الدود !.. وعلى الرغم من نشاط البوليس الذى انتشر فى كل مكان، فانه لم يمكن انتزاع مبادىء الحرية ، التى كانت تعتبر جريمة موجهة ضد الدولة ! حتى الجيش كان قد « تلوث » بهذه المبادىء !!

ورابطت فصيلة من الحرس فى تسارسكو سيلو . وكان فتيان الكلية يقفزون من فوق السور ويعقدون الصداقات مع الفرسان .. وكان بوشكين واحدا من هؤلاء الفتيان ، فقد كان يحب الشمبانيا ، والنكت ، وتناول وجبات الطعام فى جو من الأخوه ، ودخان التبغ ، والمناقشات الحامية حول : الله ، والحب ، وسياسة مترنيخ . . وآخر عشيقة حظيت برضاء القيصر !.. كان الفرسان يختلفون عن غيرهم من المغرورين الفخورين المسرفين .. فلقد كانوا من الضباط الشبان الذين صلصلت سيوفهم المنتصرة فى جوانب باريس ، ثم عادوا الى بلادهم ورؤوسهم لاتكاد تستقر على أكتافهم لفرط مااستنشقوا من نسيم الحرية !.. كان بينهم « شاديف » ، الجندى الفيلسوف الماسونى ، الذى كان فى جمال ووداعة «ملاك» هبط

على الأرض . . وكان فى وسعه ان يستمتع بالجانب الحسن من الحياة ، الا انه فضل على ذلك الجوانب الفلسفية . وكان بينهم «كافرين» ، ابن الحظ، الذى كان يشرب ويغنى ويعبث، اذ كان جميلا ، مرحا ، غنيا ، نبيلا . وكان بينهم «رافسكى»، الذى يبلغ من العمر ستة عشر عاما ـ مثل بوشكين ـ وكان والده الجنرال رافسكى هو الذى قاده بيده الى المعركة ضد نابليون فى عام ١٨١٢

وكانت الحياة فى تسارسكو سيلو واتصالها بالبلاط لاتبعث على احترام القيصرية .. فلم يكن القيصر سوى منافق متوج، يحيط نفسه بعجائز النساء والكهنة والرجعيين . **وكانت الصلاة لله واستغفال عباد الله يسيران عنده جنبا الى جنب !.. فلقد استغفل الجميع : زوجته ، وحلفاءه ، ورعاياه ، ونابليون!**

وبعد منتصف الليل ، وحول دخان السيجار وزجاجات الشمبانيا ، كانت الألسن تنطلق من عقالها ، على الرغم من تلك النظرات القاسية التى كانت تنبعث من صورة « الملاك » وقد اكتسى حلة الجنرال، وعلى الرغم من ان البوليس كان منتشرا فى كل مكان ، حتى بين ضباط سلاح الفرسان !.. وكان ألكسندر بوشكين يقرأ ـ بصوت مرتفع ـ قصيدتى «الراهب» و «شبح باركوف» .. وكانا من قصائد الأدب المكشوف، أودع فيهما كل الأحلام الدنسة التى كانت تراود الصبى المراهق الذى بدأ يحس بالنوازع الجنسية، فضلا عن ان تلك القصائد الاباحية كانت « موضة » العصر ، وكان كل واحد يحاول ان يقلد « فيرجيبه» و «جريكور» و «سكارون» . على ان بوشكين، لم يكن مضطرا الى أن ينفث عنه الحمى فى الشعر الاباحى ، اذ كان قد تمكن من أن يعرف الحب .. حب الجسد الذى يبعث اللذة والراحة ! **.. وكانت عشيقته فى الأصل فتاة من الرقيق ، ولكنها أصبحت ممثلة أطلق عليها اسم ناتاشا !**

وكان الفتى يتردد على المسرح الصغير الذى أنشأه الكونت

تولستوى ــ وهو نبيل عظيم كانت ثروته الواسعة تسمح له بأن يشبع أى رغبة تساوره ! وكانت ناتاشا، الشقراء الجميلة، هى نجمة الفرقة وخليلة الكونت .. كما كان يزورها ــ فى حجرتها الخضراء ــ جمهور من الزائرين . **واغراها الكسندر على مقابلته فى الحديقة** ــ وكانت القيصرة «كاترين» قد ملأتها بالخمائل المستورة عن العيون ! ــ فمالت ناتاشا للفتى الولهان.. كانت خجولا ، وكان هو مسيطرا ، آمرا . وسمحت له بقبلة ، فما كان منه الا ان كشف عن جزء من صدرها . وعلى أية حال، لم تكن هى الا امرأة من الرقيق ، فى حين أنه كان شريفا ، نبيلا من آل بوشكين !

.. وكان الفتى ملهوفا ، لحوحا ، جذابا .. فغمغمت : « مسيو بوشكين ، ينبغى ألا تفعل .. مسيو بوشكين ، هذا شر غير لائق ! » .. لكن مسيو بوشكين لم يصغ اليها .. وجذبها اليه .. هذا الشىء المجهول ، الدافىء ، الناعم .. المرأة ! .. وأخيرا قدر له ان يعرف خفايا الحب ، التى ما فتئت الكتب تتحدث عنها ، منذ الأزل !

على ان غرامهما لم يدم طويلا . . فان الملابس والمناظر قضت على ثروة الكونت تولستوى ، وبيعت فى المزاد المرأة التى عرف أعظم شعراء الروس الحب ــ لأول مرة ــ بين ذراعيها ! .. ومرت الأزمة ، اذ لم يكن لديه متسع من الوقت للأسف، فلقد كان يمتص الحياة بكل وحدة من المسام الموجودة فى جسمه . كانت جريدتا « المتحف الروسى » و « ابن الوطن » قد أخذتا تنشران اشعاره ، فكلفه القصر ان يكتب قصيدة تكريما للأمير «اورنج» ضيف الامبراطور .. وكتبها، فأرسلت له الامبراطورة الأرملة ساعة من الذهب . ولكنه وضع الساعة تحت كعب حذائه ــ فى فورة غضب فجائية ــ وحطمها .. فقد كان شاعر الحرية ، ولم تصنع هدايا القياصرة لكى تقدم اليه !

وجاء كارامزين – كارامزين العظيم ! – الى تسارسكو سيلو، ليرى بوشكين الصغير . وكان كارامزين جادا ، يرتدى ملابس سوداء اللون كلها ، وحذاء له قفل . لقد كان عالما ، ومن رواد القصور . أما زوجته فكانت على العكس منه .. كانت كاترين أندريفنا ساحرة . وكتب لها ألكسندر خطابا يقول فيه انه يحبها ! ولكنها انفجرت ضاحكة، واطلعت زوجها على الخطاب . ولما يئس الفتى ، انصرف عنها .. فقد كان فى جعبته غيرها !

ان ماريا سميث – التى عرفها عند انجلهارت – لم تعامله، على الأقل ، كما لو كان ولدا صغيرا . لقد كانت مرحة، ذكية، وكانت قد منحته «عطايا» معينة، ولكنه ما لبث ان أذاعها فى : « مقطوعة الى ليديا » ، فشكت «ليديا» ما حدث لانجلهارت . وتبين أنها كانت أرملة، تتوقع ان تضع مولودا !.. ان النساء كلهن متشابهات ! ولكن لا يمكن لواحدة ان تماثل عزيزته الثالثة «باكونينا» .. واليك قصته معها :

فى ٢٩ نوفمبر من عام ١٨١٥ كتب فى مذكراته ما يلى : « كنت سعيدا ! لا ، لم أكن سعيدا بالأمس . ففى الصباح ، وأنا واقف تحت نافذتها ، عذبنى الانتظار . وكنت أنظر الى الطريق المغطى بالجليد، يخالجنى شعور لايمكننى التعبير عنه.. ولكننى لم أرها . وأخيرا، وبعد ان فقدت الأمل تقريبا، قابلتها على السلم دون أن اتوقع ذلك . كانت لحظة حلوة ...

« كم كانت جميلة ، وكم كان يناسبها رداؤها الأسود ، معبودتى باكونينا ؟ اننى لم أرها منذ ثمانية عشرة ساعة. أى موقف هذا ؟ وأى عذاب ؟! ولكننى ، لمدة خمس دقائق ، كنت سعيدا ! »

« لقد غنى من فرط حبه ..
« ولكن آه ! لقد كان صوته حزينا
« واأسفاه ، انه لم يكن يعرف من الحب
« غير آلامه ... « زوكوفسكى »

هو – أيضا – لايعرف من الحب غير آلامه . انه يحبها الى درجة انه يصاب بالاغماء كلما لمس يدها ! انه ينتظر وينتظر ، وهو يقف فوق الجليد ، والثلج يتساقط من حوله ، ليرى طيفها !.. وكانت تحضر الى الكلية أحيانا لرؤية شقيقها باكونين .. وكان كل الفتيان يحبون قدميها الصغيرتين – وهما فى حذائيهما اللذين لاكعب لهما – وعينيها السوداوين وهما تلمعان وقد تنديتا بالماء . وكانت ترتدى اثوابا مرتفعة الخصر، تشف عن قوامها المشوق . لقد كانت أجمل سيدات الشرف فى حاشية الامبراطورة اليزابيث . وكانت برامج رقصها أشبه بالقوائم التى تضم اسماء التلاميذ، اذ كانت تحوى أسماء جميع طلبة الكلية !

كان بوشكين اذا أمسك بها من يدها ، أو وضع يده حول خصرها ليراقصها «الفالس» أو «المازوركا» أخذ فى القفز كالمهر الصغير ، وبدا عليه كأنه فقد صوابه ، حتى لتمتلىء صالة الرقص بالابتسامات !.. ولكن الفاتنة الحسناء باكونينا ما كانت لتعبأ بعاشقها الصغير او تعيره أقل اهتمام !.. كانت فى العشرين من عمرها ، وكانت صديقاتها جميعا قد تزوجن ، فكان كل ما تبحث عنه عيناها فى اصرار – فى صالة الرقص – هو «رجل يتزوج» !.. أما بالنسبة لفتاها صاحب الشعر المجعد ، فلم تكن تمنحه سوى الابتسام المرح !

وأسفاه ! لقد رحلت باكونينا الآن ، وأخذ الفتى يبحث – عبثا – عن آثار لمحبوبته فى متنزه الخريف الواسع .. **ولكن صبرا ! ففى خلال أشهر قليلة سوف تتفتح فيه حياة جديدة !.. بعد شتاء واحد ، سوف يصبح رجلا .. كامل النمو !**



الأنشودة

-١-

• **قفز** السيد بوشكين الصغير من فراشه ، وارتدى الثوب الذى قدمه له خادمه نيكيتا ، ثم جلس الى مائدة الزينة لكى يصقل أظافره التى كان يفخر بها . بالأمس أيضا عاد الى المنزل متأخرا .. بعد منتصف الليل بكثير ، وبعد أن شرب أكثر مما كان يجب ان يشرب ، وبعد أن خسر فى اللعب ، وبعد أن أدلى بأكثر من ستة تعليقات سياسية كان أخفها كفيلا بأن يجلب عليه العار ، بل وربما يرسل به الى السجن ! ومع ذلك فقد كان يشعر أنه ممتلىء بالنشاط، وانه على استعداد لأن يكرر كل ما فعله بالأمس !

ونظر الى نفسه فى المرآة بعناية . وأحس ، كما كان يحدث

دائمـا ، أنه غير راض عن شكل وجهـه .. وقد كان وصفه الخاص لنفسه يتضمن أنه : ((سليل السود المشوهين)) !.. **ومع ذلك فقـد كانت النسـاء تجدن شيئا لطيفـا فى عينيه الزرقاوين ، وفى شفتيه الغليظتين ، وفى كتفيه العريضتين،وفى خصلات شعره السوداء وفىخصره النحيل !..** كانت ضحكته مرتفعة «معدية» ! فاذا ضحك ، ألقى برأسه الى الخلف. وكان القول السائر هو أن ضحكة بوشكين من قوى الطبيعة ، وانه عندما يضحك يكون فىوسعه أن يرىأسنانه ! وكانقد احتفظ بعادته القديمة .. عادة القفز فوق الموائد !

ونظر نيكيتا اليه فى المرآة ، ثم ابتسم . وتذكر بوشكين تلك الأبيـات الشعرية الفرنسـية التى كتبهـا فى الكلية بعنـوان ((صورتى)) :

((طولى ؟ وأأسفاه ! انه أقل بكثير
((من ارتفاع الرجال الطوال
((وجلدى ناعم ، ورأسي أشقر
((عليه خصلات .. وخصلات أخرى !))

وأخذ يكرر القول وهو يبتسم: «عليه خصلات.. وخصلات اخرى ! » . كان الشعر قد بدأ ينمو فى رأسه الحليق ، تحت طاقية الشعر المستعار . ولما كانت ممارسة الحب مع العامة لاتكلف الا قطعـة صـغيرة من العملة ، فان بوشـكين أصيب بالمرض ثلاث مـرات ! وقد أكسبه ذلك الامتيـاز ـ امتيـاز الاصابة بالمرض المعروف ! ـ احترام «الأسود» و « الديكة» ، أو على حد تعبير القرن الماضى «الشباب المذهب» ، الذى كان يجتمع أفراده كل مساء عند مدام صوفى، حيث يشربون نوعا رديئا من الشمبانيا كان يباع بثمن مرتفع جدا ، ويعبثون مع فتياتها !

كانت عشيقتـه الرسمية تدعى أولجـا ماسون . . فتاة

شقراء من فتيات الشعب ، كانت تشرب الخل حتى تبدو شاحبة الخدين ، وتلبس أثوابا زرقاء اللون تتفق مع لون عينيها . لقد كانت مسألة مصادفة مرحة .. فان أولجا كانت تحبه ولكنها لم تكن تخلص له ، بل انها – فى الواقع – لم تكن تخلص لأحد مطلقا ، دون أن تفكر فى انها تؤذى أو تضر أحدا! وكانت لاتفهم معنى لثورات غضبه بسبب الغيرة !.. والى جانب ذلك كانت هناك نادزدا ، ومس ستاينجل ، وفتاة بولندية اسمها انجليكا ، وأشباح اخرى شقراء وزرقاء !

وكان الشاب يفاخر بمقدرته على ادخال السرور الى نفوس الصغيرات الجميلات بما كان يتخلل رغباته ونزواته من عنف! فقد كانت تجرى فى عروقه دماء الأمراء الاثيوبيين الكثيفة ، مختلطة بدماء النبلاء الروس الفائرة !.. كان مزيجا عجيبا ! وكان يشعر فى نفسه بحاجة ملحة الى الأسراف . اما اصدقاؤه من شعراء المدرسة الرومانتيكية فكانوا يتهمونه بأنه يغرق نبوغه اليافع فى الخمر ، ويهتكه مع النساء ، ويضيعه فى اغانى الحب الرخيصة ! كما كانوا يلومونه على خروجه الى المجتمعات العامة . واقترح باتياسكوف – الذى كان لامرتين روسيا – ان يبعثوا به الى (جوتينجن) ، حيث لايتناول الا الخبز واللبن و « المنطق » ، لمدة ثلاثة أعوام !

وعندما تذكر ألكسندر ذلك ، انفجر ضاحكا تلك الضحكة التى لاتقاوم ، والتى أبرزت أسنانه الزنجية . وسلمه نيكيتا رباط العنق ، ثم بلل منديله برائحة عطرية . وما ان انتهى من ارتداء ملابسه حتى خرج الى حجرة الجلوس . وكان مسكن آل بوشكين فى (سانت بطرسبرج) على درجة من الفوضى والقذارة لاتقل عما كان عليها منزلهم فى موسكو ! . وكان الجيران يعيرونهم الملاعق والاشواك عند ما يقبل الضيوف لزيارتهم ، وكان والد بوشكين لا يزال يميل الى الاتكاء على المدفأة وانشاد شعر موليير !.. وكان قد ازداد بخلا .. فقد

انقضت ثلاثة أشهر ظل ألكسندر يلح عليه خلالها، كى يشترى له زوجا من أحذية الرقص الواطئـة ، التى كانت « موضة » العصر .. ولكن سيرجى ليفوفتش كان يصر على اعطائه حذاءه هو ، الذى كان تاريخه يرجع الى عهد بول الأول ! .. أما عن الفتاة الجميلة ـ التى دهش ألـكسندر حين ميز فيها ملامح شقيقته التى كاد ينساها ـ فانها كانت تبكى سرا لاضطرارها الى ارتداء الاثواب القديمة التى كانت مرتفعة الخصر الى حد كبير ، والتى كانت لا تتناسب مع قوامها الصغير مطلقا . ومع ذلك فانها كانت قد بلغت سن الزواج

وفيما هو يجتاز الحجرة ، توقف ليلقى نظرة على بطاقات الدعوات ، فوجد بينها دعوة الى حفلة راقصة عند آل أولنين، ودعوة أخرى لحفلة عند الأميرة جولتسين . لقد كان الاقبال عليه شديدا ! .. وكان اذا ذكر أفراد أسرته ، قال النـاس : « انهم أقارب بوشـكين الصغير ! » .. **أما عن نفسـه ، فان الناس كانوا يغفرون له كل شيء .. كانوا يغفرون معـاملاته وما يتخللها من اهمال ، ويغفرون له وقاحته ، بل كانوا يغفرون له قصائده الشعرية الفظيعة !** .. كان قـد ترك الـكلية منذ عامين وهو يحمل شهادة من درجة دبلوم، جاء فيها أن بوشكين، (ألكسندر) ، قد درس بالكلية الامبراطورية فى (تسارسكو سيلو) مدة ست سنوات ، وانه « جيـد » فى مواد الدين ، وتاريخ الانجيل ، والمنطق ، والفلسفة ، والاخلاق ، والقـانون المدنى ، والقانون العام .. وانه « جيد جدا » فى لعبة الشيش واللغة الفرنسية واللغة الروسية .. وانه « ضعيف » فى السلوك !

وكان صاحب الجلالة الامبراطورية قد تعطف فألحقه فورا بالخدمة ، بدرجة « سكرتير » فى وزارة الخارجيـة ، بمرتب يبلغ سبعمائة روبل فى العام . وكان لا يزال فى السابعة عشرة من عمره ، كما كانت الخدمة فى وزارة الخارجية تفسح الكثير من أوقات الفراغ . أما مرتبه فكان لا يكاد يكفى الا لدفع ثمن

مقعده فى المسرح ، وثمن كؤوس شراب « الشيرى » الذى كانت أولجا تحبه !

وانضم الى أسرته فى حجرة الطعام ، حيث قبل يد والدته باحترام . لقد نجحت فى جعله يقلع عن عادة قضم أظافره بأسنانه ، وان لم تقلع هى عن هذه العادة ! وكانت لاتزال المرأة العصبية ، النفور ، وان لم يعد أحد يطلق عليها « كريول الجميلة » . ولم يفلح نجاح ابنها ــ كشاعر ــ فى أن يقربه الى قلبها .. وكان ابنها الأثير لا يزال هو ليون . ونظرت الى ألكسندر دون مبالاة أو اهتمام ، ثم ضغطت على الجرس تستدعى الخادم ، الذى أحضر له وجبة من الطعام الحقير الذى أعيد تسخينه ! .. وبعد ذلك أخذ الشاب عصاه ذات اليد الفضية الثقيلة وخرج . كان يحب السير على الأقدام ، ولم يكن معه نقود ، فكان هذان السببان كافيين لأن يعدل عن استئجار عربة . كان ، للمرة الثانية فى حياته ، يعيش فى (سانت بطرسبرج) ــ التى تختلف تماما عن موسكو ــ بمنازلها الخشبية ، وارصفتها الغريبة ، وأزقتها المغلقة ، ومسحتها الريفية ..

ووصل الى شارع نيفسكى وقد بدأ الثلج فى السقوط . وكان يحب الوقوف أمام المحال التجارية ، كى يرى ــ مثلا ــ امرأة من العملاء ترفع رداءها لتكشف عن قدم صغيرة تنتعل حذاء لا كعب له ، وقد عقدت عليه شريطا أسود فوق جوارب بيضاء !

وكانت العربات الخاصة تسير بأقصى سرعتها ، وصوت حوافر جيادها يرن على الثلج . ووقفت عربة منها ، ثم فتحت النافذة يد ــ كانت فى قفاز ــ وانطلق صوت يقول : « بوشكين » .. وادار الكسندر رأسه ، فأشار اليه صديقه « كافرين » بالصعود الى العربة . ولما فعل ، قال كافرين للحوذى : « الى تالون » .. فجذب السائق أعنة الخيل التى

انطلقت فى طريقها . وكان تالون مطعما فرنسيا يمكن الاعتماد عليه فى أى وقت لتناول الأطباق الفرنسية المشهورة والشمبانيا، مصحوبة بموسيقى الغجر .. ! وكنت تذهب الى هناك لتتناول العشاء مع امرأة فى حجرة خاصة ، أو مع بعض الرجال لتقيموا حفلة أخوية خاصة ، تذهبون بعدها الى المسرح . وكانت الأثمان مرتفعة جدا ، ولكن ألكسندر قلما كان يدفع الحساب، بل انه كان لا يدفع اطلاقا .. **كان أصدقاؤه أغنياء ، وكانوا يعرفون أنه لايملك مالا . وكان أحيانا يشعر بجرح فى كبريائه لهذا السبب !**

ووصلا الى تالون ، فتقدم أحد الخدم وحمل عباءة كافرين العسكرية ثم معطف بوشكين الاسبانى . وجلس الاثنان ، فقال كافرين وهو يفرك يديه من شدة البرد : « أظننى لست فى حاجة لأن أسألك اذا كنت ذاهبا الليلة الى حفلة الأميرة جوليتسين ؟ » ، فاحمر وجه بوشكين قليلا .. **كان هيامه معروفا بهذه السيدة التى بلغت الأربعين من عمرها ، والتى كان يبدو فى عينيها اثر شعلة دائمة لحب كبير !** لقد كانت بمثابة « مدام دى ستايل » الروسية ، مع فارق واحد ، هو انها كانت ذات جمال رائع . كان الأدباء والمفكرون يجتمعون كل ليلة فى منزلها ، وكان اسمها المستعار هو « أميرة الليل » ، اذ كانت لا تستيقظ من نومها كل يوم الا عند اضاءة المصابيح! وكان بوشكين قد نظم لها ثمانى قصائد ــ كلها مشهورة ــ فقد كان اخلاصه لها يختلف عن كل ما عداه ، سواء بالنسبة لنادزدا أو أولجا أو اية امرأة أخرى !

وأبدى لصديقه اشارة تدل على الانكار ، ثم قال : « لا يا صديقى العزيز .. ان جوليتسين أصبحت أثرا من الماضى، والدليل على ذلك هو اننى ذاهب الليلة الى المسرح ! » . فقال كافرين وهو يقطع اللحم المشوى :

ــ آمين ! ان غرامياتك كلها قصيرة الحياة ! .. وبهذه

المناسبة .. كيف حال انجيلكا ذات الجمال الخالد ؟!

فأجاب بوشكين : « **لقد كسبها منى فزيفولفسكى فى لعب الورق ، علاوة على مجلد من الشعر لم أكتبه بعد ! .. وقد سمعت انها كانت مبتهجة لذلك . وعلى اية حال ، فقد سئمت الشقراوات ..** يوم سعيد يا باركوف ! »

وكانت جماعة من الشبان قد دخلت المطعم المشهور ، واتخذت طريقها الى المائدة التى يجلس عليها ألكسندر وصديقه . كانوا من النبلاء مثلهما ، وكانوا ينتسبون الى ذلك العالم الذى يعتنق دينه كل فرد له آراء حرة واتجاهات أرستقراطية ، ولا شىء فيه يزيد قيمة على قصيدة محبوكة القافية أو على طعنة سيف نافذة !.. كانت السنوات الأخيرة من حكم القيصر الكسندر قد ملأت باليأس قلوب الجميع: الجيل الجديد ، والجيش ، والأحرار . وكان الرجل المقرب من القيصر - أراكشيف - قد أخذ فى تحويل روسيا الى مخزن حراسة كبير . وكانت الجمعيات السرية تؤلف فى كل مكان ، وكان بعضها مصبوغا بالصبغة السياسية الواضحة ، مثل «اتحاد الفضيلة» ، بينما كان غيرها - مثل « المصباح الاخضر » - يدبر المؤامرات تحت ستار النشاط الأدبى ! وكان اعضاء هذه الجمعيات يجتمعون بالليل ، بعد حفلات المسرح ، حول مائدة تغطيها الزجاجات . وعند ما تنفض اجتماعاتهم قرب الفجر ، يكونون قد بحثوا آخر التطورات فى السياسة الأوروبية وفرغوا من انتقاد الحكومة . وكان التهتك جزءا مما يتظاهرون به !

وأحضر الخدم المقاعد للقادمين الجدد . وسأل ألكسندر واحدا منهم : « هل حضرت الليلة لرؤية سيمينوفا ؟ » . فأجاب : « يا صديقى العزيز .. اننى لا أحتمل مشاهدة الروايات الكلاسيكية ، وسيمينوفا لا تصلح لأى دور الا أتالى! » . وقال تروبتوسكى فى جد : « يجب أن لا تقول شيئا يمس

سيمينوفا أمام بوشكين ، فانها غرامه الجديد ، وهو على استعداد للدخول فى مبارزة من أجلها ! تكلم يا ساشا وقل انك تحبها ! »

فقال بوشكين : « **انها ، بالنسبة لى ، أجمل من أن أحبها ! ان لها موهبة عظيمة وقدما صغيرة .. وانا أعبد المرأة ذات القدم الصغيرة ! وهذا ما دعانى الى أن أترك فريفولوفسكى يأخذ منى انجليكا ، فان قدمها كانت مثل قدم الملكة برتا ! »**

وسأله شاديف وهو يشعل سيجاره :

ـ هل تشهد حفلة أولفين الراقصة هذا المساء يابوشكين ؟

ـ كلا .. اننى أتحاشى الحفلات الراقصة منذ أصبح التقشف والاقتصاد السياسى موضة ! ان الناس لا يتحدثون عن شىء سوى آدم سميث والتجارة الحرة ! ان كافرين فى الواقع على صواب .. فهذا الجيل جيل تعس . أليس كذلك يا كافرين ؟

ـ فى اعتقادى أن العالم قد أخذ يهرم . انظر الى الأدب .. لقد أصبح صحراء ! بوشكين ..أريد أن أسمع رأيك الصائب: هل تحب مسيو شاتوبريان ؟

وأجاب بوشكين الذى كانت الخمر قد بدأت تلعب برأسه : «اننى لا أقرأ النثر ..يالها من فكرة أن يكتب انسان النثر..!» فقاطعه شاديف ـ الذى كان قد درس بجامعة جو تنجن ـ قائلا : « والألمان ؟ ان جيته شاعر عظيم ! » . وقال بوشكين وهو يضع قدمه على مقعد حتى كون جسمه زاوية قائمة : « وشيللر نبى ! . . **لايمكن ان يكون للألمان أدب عظيم . حتى لغتهم لا أثر للانسجام فيها : در ـ داى ـ داس ! .. ليس فى وسعى ادخالها فى رأسى ! حتى فى كليتنا كانت اللغة الالمانية تدرس بالفرنسية ! »**

ـ وهنا ، فى دولة الأدب ، ماذا كنت تجد على مائدة الزينة فى حجرة المرأة الجميلة منذ خمسين عاما ؟ كنت تجد كتب

روسو ، و « العلاقات الخطرة » ! فماذا تجد اليوم ؟ كتب « جنج ـ ستيلنج » و « ايكار تهوزن » و « سويد نبورج » وكتب التصوف والسحر ، وأشياء أخرى لا أعرف كنهها . ان أهم موضوع يتناوله البحث والنقاش اليوم هو نهاية العالم! أين تجد المرأة فى الساعة السابعة من صباح كل يوم ؟ هل تجدها فى فراشها تستريح بعد عناء ليلة حب ؟ كلا ! انك تجدها فى الكنيسة ، حيث تستمع الى عظة يلقيها الكاهن البروتستانتى . وهناك أيضا كاشفات المستقبل ، اللاتى فى وسعهن ان يتنبأن بالحظ ..

فقاطعه بوشكين بسرعة ، وقد تجهم وجهه : « أما عن كاشفات الحظ ، فهذه مسألة أخرى ! » . وانفجر كافرين ضاحكا ، ثم قال : « ان بوشكين يدافع عن كاشفات الحظ .. أيها السادة ! انها لمناسبة لطيفة .. » . فقاطعه بوشكين بلهجة حزينة : **« ان واحدة من كاشفات الحظ قالت لى ثلاثة أشياء، تحقق منها اثنان . وعندى كل الدلائل على اننى لن أهرب من الشىء الثالث ! »**

ـ يا له من أمر كئيب ! وأنت تصدق حقا قصص اولئك النساء المخرفات ؟ هذا واحد من أحرار مفكرينا .. اقدمه لكم!

ـ فلتحكموا بأنفسكم على ما حدث : منذ أيام ذهبت الى منزل مسز « كير تشهوف » مع بعض الأصدقاء ، فقالت لى هذه السيدة : **« ستتسلم قريبا مبلغا من المال ، وتتحدث فى مسألة تتعلق بعمل . وسوف تموت صغيرا بين يدى رجل أشقر الشعر ! »** .. وفى طريق خروجى من منزلها، اصطدمت بأورلوف ، فأمسكنى من ذراعى ، ولامنى على حياتى الضائعة، ثم نصحنى بالألتحاق بالجيش . وانتهى الأمر بأن اقترح على ان أصحبه الى فرقته . وعند عودتى الى المنزل وجدت فى انتظارى مظروفا به مبلغ من المال ، وكان من صديق ورث أخيرا ، وكان مدينا لى بمبلغ قديم . لقد كان دين قمار، وكنت

قد نسيته تماما .. فماذا تعتقدون فى هذا ؟
وكانت قصة بوشكين قد سببت رعدة خفيفة سرت بين الحاضرين ، وحاول أحد القادمين الجدد ـ وكان شابا وسيما يدعى « ياكوبوفيتش » ـ ان يرفه عن الحاضرين بدعابة ، فقال وهو يشير الى شعره الأشقر: « الآن عرفت لماذا يتحاشى بوشكين لقائى ! » . على ان الأثر السىء ظل عالقا بالنفوس . كان ياكوبوفيتش أشهر المبارزين بالسيف فى سانت بطرسبرج ، وكان يتحدى الغير احيانا ويدعوهم للمبارزة لمجرد كلمة عابرة! وقال كافرين : « لقد تأخر الوقت أيها السادة . وستفوتنا حفلة مس سيمينوفا » .. وغادروا المطعم

* * *

• **كان** مفروضا فى شباب الأسر الكبيرة أن يظهر فى المسرح عدة مرات فى الأسبوع ـ فى مقاعد الصفوف الأمامية ـ وان يوجه المنظار المقرب الى المقصورات المختلفة استعراضا لمن فيها ، وان يبدأ فى التثاؤب قبل نهاية الفصل الرابع . . حتى فى مباذلهم ومسراتهم ، كان هؤلاء الشبان يتخذون مظهرا من مظاهر السأم !.. **على ان حيوية ألكسندر ـ الشبيهة بحيوية القرود ! ـ لم تكن تتناسب مع هذه النزوات . وكانت نكاته ، وجرأته ، وحيله الصبيانية ، تنتقل من فم الى آخر حتى وصلت أخيرا الى آذان البوليس ، الذى كان يجمع بكل دقة نكات ومقطوعات واستعارات بوشكين . وقد صفق ذات مرة بأن هوى بيده على صلعة جاره !** وكان قوامه النحيل، وشعره المجعد ، وأصبعه الصغرى ذات الظفر الطويل الذى كانت تحميه اسطوانة ذهبية تلتف حوله .. كل ذلك كان معروفا لجميع المترددين على مسارح العاصمة
وأحدث الشبان ضجة عند دخولهم . . وكانت سيمينوفا قد ظهرت فى نفس اللحظة على المسرح ، وهى ترفل فى ثوب

أسود ، وكانت تقول : « من أين يجيء السرور ، الى نفسي التي أنهكتها الهموم ؟ من أين لى الراحة التي تملأ صدري ؟ »

ورأى بوشكين بعض اشارات موجهة اليه من مقصورة كانت تجلس فيها سيدتان ، فأسرع صوب المقصورة وهو يطأ أقدام الناس ! . . وقالت له أصغر السيدتين وهي تقدم له يدها - في قفازها - ليقبلها : « تعال واجلس بجانبي . . بشرط أن تجلس هادئا ! » . فأكد لها بوشكين ذلك وهو ينحني لها : « سأظل هادئا كالتمثال ! »

كانت هذه السيدة هي الممثلة الصغيرة « كولوسوفا » ، التي بدأ ظهورها في مسرحية « انتيجون » ، والتي قيل عنها انها ستصل يوما في التمثيل الكوميدي الى عظمة سيمينوفا في التمثيل التراجيدي .. وكانت قد جاءت الى المسرح لترى مدى حب الجمهور لمنافستها ! .. وجلس ألكسندر الى جانب الممثلة الجميلة ، وأخذ يضغط يدها دون انقطاع . وابتسمت هي ، ثم رفعت أصبعها ولوحت بها قائلة :

- بوشكين : اذا لم تجلس هادئا فسوف أنفذ تهديدي !

- أى تهديد .. يا الهتي ؟

- **سأقطع أظافرك !**

- لا يمكن أن تقومي بعمل شرير كهذا ..

- **بل سأعمله بالتأكيد !**

- لقد كنت أعتقد أنك رقيقة الاحساس ، اذ رأيتك تبكين في الكنيسة يوم عيد القيامة ، دون أى سبب يدعو للبكاء مادام مخلصنا قد قام من بين الأموات !!

- **أليس هنا أى شيء له قدسية عندك يا بوشكين ؟**

- بالطبع يا الهتي .. ان الجمال مقدس !

ورفع بوشكين منظاره المقرب الى عينيه ، ثم وجهه الى خشبة المسرح ، وبدأ يتثاءب . كانت سيمينوفا قد اختفت .. وكان هناك شيطان صغير يتحرك في قلب الكسندر . كان

يريد أن يقوم بشيء مضحك ، مفاجيء ، جريء ! فما ان وقع نظره على وجه رجل يعرفه ، حتى انتزع طاقية الشعر المستعار من فوق رأسه ، كما لو كانت قبعة ، ثم انحنى تحية للرجل !

- ٢ -

• **ارسل** « الكونت ميلورادوفتش » ـ الحاكم العام لمدينة سانت بطرسبرج ـ أحد خدمه ليحضر له « شالا » اسكتلنديا يلتحف به ، ثم جلس على الأريكة فى مكتبه ، وهو يتميز غيظا .. فقد استدعى موظفا شابا من موظفى وزارة الخارجية لكى يوجه اليه عدة اسئلة ، وكان الموظف قد غادر مكتبه منذ برهة . انها مسألة تبعث على الضيق ، مسألة بوشكين هذا ! .. فان الشاب كان ينتسب الى أسرة كريمة ، من النبلاء القدماء ، ولو انها لم تكن اسرة غنية . وكان الشاب واحدا من أكثر الذين تلوك الالسن أسماءهم فى سانت بطرسبرج .. وكم من مرة رآه فى الحجرات الخضراء التى كان هو يتردد عليها !

كان الكونت ميلورادوفتش «جنتلمان» فى حد ذاته .. وكان استعمال هذه الكلمة (جنتلمان) قد اصبح « موضة » فى المدة الأخيرة . وكان ممن يترددون على المسرح بانتظام ، كما كان ينتمى الى الطبقة الراقية ـ ولو انه اشتهر بأنه لا يتكلم الفرنسية جيدا ، وكانت هذه جريمة لا تغتفر ! ـ كان الرجل يكره ان يرشد السلطات المسئولة الى من يتحركون فى نفس الدائرة التى يتحرك فيها ! **اى شيطان يدفع بجميع الشبان الذين ينتسبون للأسر الكريمة الى اعتناق مبادىء حرة ؟ ..** وعلى أية حال ، فقد عرف أن القيصر لم يكن راضيا عن هذا الشاب مذ كان طالبا فى الكلية الخاصة . ألم يقل لانجلهارت ـ مدير الكلية : **« ان بوشكين يغرق روسيا بقصائد متطرفة يحفظها الجيل الجديد عن ظهر قلب ! »** ؟ .. كما يقال انه هدده بالنفى الى سيبريا . واكفهر وجه الحاكم العام لسانت

بطرسبرج ، فربما كان قد تصرف بحماقة عندما قال للشاب ان الحكومة قد سامحته !

والحقيقة أن الشاب كان يستحق العقاب .. فلقد كانت قصائده الشعرية تنتشر سرا فى الأقاليم وفى العاصمتين . ان اعظم الشخصيات ، بل والقيصر نفسه ، رغم شدته ، لم يأمنوا جميعا من شر ذكائه المر . وقد حدث في ذات يوم ان فر دب من قفصه وانطلق الى المتنزه حيث كان من الممكن أن يفترس القيصر نفسه . يومها قال بوشكين بأعلى صوته فى مسرح ممتلىء بالنظارة :

ـ أخيرا ظهر رجل واحد .. ولكن تبين بعد ذلك انه لم يكن الا دبا ! !

وتذكر الكونت المناقشة التى دارت بينهما اليوم . انه لم يأسف للفرصة التى اتيحت له كى يواجه هذا الطير النادر .. هذا البوشكين ، الشاعر الكبير الذى نبت على الأرض الروسية !.. اذن ، فهذا هو .. الشاب الصغير المجعد الشعر ، الذى له نظرة الخادم . كان الحاكم يتوقع أن يرى رجلا احنى ظهره الذل ، ولكنه رأى شابا قبيح الشكل ، كان ينفجر ضاحكا ليكشف عن صفين من الأسنان الكبيرة السليمة . وكان الحاكم قد تحدث اليه بشدة ، قائلا : «سيدى ! لو سلمتنى بنفسك وبمحض اختيارك القصائد الهدامة التى ألفتها ، فانك ستوفر على اسرتك ما سيلحق بها من عار فى عملية التفتيش ، وهى عملية أنا على ثقة أن الاسرة لا تميل اليها ! » . فرد بوشكين قائلا : **« ان بوليس سعادتك لن يجد شيئا فى منزلى .. فقد أحرقت كل أوراقى . ولكن كل شىء كتب هنا ! »** ، واشار الى رأسه ! ثم استطرد يقول : « واذا سمحتم باعطائى ورقا ، فان فى وسعى أن أكتب لك كل ما نظمته من شعر حتى الآن ، ما عدا الذى نشر من قبل ! »

وكان الكونت يحب التعليق دائما ، فلم يتمكن من أن يمنع

نفسه من القول (ولو أنه كان يشعر الآن بالأسف على ما قال): « آه ! ان هذا يدل على الشهامة ! » . وظل بوشكين يكتب مدة ساعة كاملة . وكانت النتيجة واضحة بارزة ، مسجلة فى كراسة الحاكم . كان أعوان الحاكم قد عانوا أشد المصاعب ولم يحضروا اليه الا أقل بكثير مما حصل عليه هو بسهولة !.. لقد تصرف بوشكين تصرف «الجنتلمان» ، فود ميلورادوفتش ان يرد اليه ادبه .. واخيرا ذكر له أن ما ارتكب من أخطاء فى شبابه سوف يغفر له!.. ولكن، ماذا يكون رأى الامبراطور؟..

ودق الكونت الجرس ، وأمر باعداد العربة كى يذهب الى القصر . واستقبله القيصر واقفا ، واخذ يستمع اليه ، واشار ميلورادوفتش الى ذيوع اسم بوشكين وشهرته ، والى الفائدة التى يمكن ان تجنى من عرض مظهر من مظاهر الكرم يسبغ على الشاعر العظيم المشهور ، ثم أبرز كراسته الصغيرة. وحرك القيصر يدا بديعة الشكل - احتفظ بها فى حالة حسنة - من ثنايا ذيل سترته ، ثم أخذ يقلب الكراسة . **كان يتمنى ، للمرة الثانية ، لو عاقب بوشكين . وللمرة الثانية يتدخل قوم - ممن يشغلون اسمى المناصب واشدها تأثيرا فى الامبراطورية - لصالح بوشكين ! ..** أما فى المرة الأولى ، فقد حدث ، عند ما علم كارامزين - المؤرخ ، ومربى ولى العهد - بما حل على الشاعر الصغير من غضب القيصر ، ان تنازل عن أوسمته ، وذهب الى الامبراطورة يرجوها العفو عن بوشكين ! والآن ، ها هو ميلورادوفتش نفسه يتدخل أيضا للدفاع عن بوشكين!

وقرر القيصر ان يترفق، ومن ثم رفع رأسه الأصلع وقال : « مادمت قد تحدثت عن عفوى ، فانه لا يسعنى الا أن امنحه! لقد أخطرنى الجنرال أنزوف ، المفتش العام للمستعمرات فى جنوب روسيا ، بحاجته الى موظفين شبان . . فلنبعث ببوشكين الى الجنوب ، فان السفر خير معلم للشبان ! »



القصيدة

- ١ -

• **مالت** « ماريا رافيسكى » الى الخلف ، وهى جالسة فى عربتها ، ثم اغلقت عينيها وتأوهت . كانت قد سئمت التطلع من النافذة .. فقد مضت عليها عدة أيام والمنظر لا يتغير أمامها : مراعى (الاستبس) فى فصل الربيع . وكان السفر الى ينابيع المياه المعدنية فى جبال القوقاز رحلة شاقة .. كان التقدم بطيئا ، وكنت تجد وراءك مجموعة كبيرة من الممرضات والخدم والخادمات ، وقد تزاحموا فى العربات التى امتلأت بحقائب الملابس والصناديق التى تحوى أدوات المطبخ ، ووضعوا على ركبهم سلالا مليئة بالمواد الغذائية ..

وكانت العربة السوداء المغطاة بالجلد - التى تجلس فيها ماريا وشقيقتها صوفيا ومربيتهما العجوز وخادمتان منسيتان



بوشكين يقرأ احدى قصائده لصديق له ، خلال اقامته
في قصر (ميخائيلوفسكو)

ـ تتبع عربة أخف منها ، جلس فيها الجنرال رافيسكى والكابتن رافيسكى ، شقيقها ، اللذان كانا كلما شعرا بالتعب ـ بسبب جلوسهما فى العربة ـ ركبا جواديهما وسارا بهما الى جانب عربة ماريا . وكانت ماريا اذا أطلت من نافذة عربتها ، رأتهما بقامتيهما الطويلتين ، وجسميهما الممتلئين ، وفكرت بفخر فى والدها الشجاع الذى لو أراد لأصبح أميرا ـ ولكنه فضل أن يظل جنديا ! ـ والذى رد على القيصر ، يوم أن أراد أن يجعل منه كونتا ، بنفس الشعار الممتلىء فخرا .. شعار اسرة « روهان » العريقة :

« ملكا .. لا يمكن أن أكون ! دوقا .. لاأتنازل أن أكون ! فاننى .. روهان ! »

وكان نابليون قد قال عنه انه « العجينة » التى يصنع منها الماريشالات . وكانت روسيا قد كرمت فيه بطلا وطنيا .. وتحولت عينا ماريا الى وجه شقيقها .. كان من نفس « عجينة » الأبطال ، وقد خاض الحرب وسنه لا تزيد عن احدى عشرة سنة .. ولكنه الآن قد أصبح ضابطا برتبة « كابتن » فى سلاح الفرسان . اما هى ، فمنذ عام كانت فتاة مراهقة ، وكانت نحيلة القوام ، غزيرة الشعر ، سوداء العينين ، بارزة العظام . أما اليوم ، فقد حدثت المعجزة ، وتحولت الفتاة الصغيرة الى امرأة ! وكانت اذا سئلت عن سنها ، تقول : « خمسة عشر عاما ! » . ولكن السائل كان يعرف أنها تكذب بهذه الاجابة ، وان سنها كانت لا تزيد فى الحقيقة على أربعة عشر عاما !

كانت فتيات الجنوب يتحولن الى نساء فى سن مبكرة ، وكانت ثمة دماء يونانية تجرى فى عروق ماريا ، عن طريق أمها . وكانت تعرف أنها جميلة ، على طريقتها الخاصة ، التى كانت تتميز بالحياة والعاطفة ، وبالخروج عن المألوف . كما

كانت تتميز بشعر غزير مجعد ــ كانت تتركه أحيانا ينسدل على كتفيها كما لو كان مطرا أسود اللون ! ــ وبعينين قصيرتى النظر ، حانيتين ، وبوجه ينم عن الذكاء ، وفم يدل على مايتميز به آل رافيسكى من عزم وحساسية .. وبالاختصار ، كانت تتميز بالرشاقة اكثر من الجمال ، وبالمزاج أكثر من الكمال ، وبالاغراء المعنوى أكثر من الملامح المنتظمة !

ولم تكن لعوبا .. ولكنها مع ذلك كانت تجـذب اليها كل شخص : والدها ، وشقيقها ، وزميل السفر الذى جمعتها به المصادفة .. بوشكين ! انها لتشعر بوقع عينيه عليها ، وعلى شعرها الأسود ، وعلى صدرها .. صدر الفتاة الصغيرة !..
بل انه سعى الى أن يكون فى اســـتقبالها وهى تنزل من العربة ، وأن يقدم لها يده ، وتعمد ان ينظر الى مؤخرة قدمها الصغيرة وهى تنتعل حذاء أسود ! ..وكانت تحب أن تستمع اليه وهو ينشد شعره ، ولكنها كانت تشرد بفكرها اكثر ممـا تتأثر . لم يكن من الممكن أن تنظر الى بوشكين نظرة جد ، فانه كان على استعداد للعبث مع كل فتاة ، حتى مع اختها صوفيا التى كانت سنها لا تزيد على اثنى عشر عاما !

واعتبرت ماريا أن ماوجهه اليها الشاعر من اعجاب صامت ، انما هو تقدير لها : فقد كانت جميلة ، وكان هو شابا ، وشاعرا . فهل هنـــاك شىء طبيعى أكثر من أن يتوجه اليهـا بشىء من التحية والاعجاب ؟.. أما فى قرارة نفسه ، فانها كانت على ثقة من أنه لا يحب الا قصائده ونبوغه ! ..وضغطت بجبهتها على النافـذة . كان المنظر المـاثل لا يزال هو اقليم (الاستبس) الأخضر ..ولكنها ما لبثت أن رأت ــ عند الأفق ــ الماء الأزرق وقد انعقدت فوقه أشباح السحب . وركض قلب ماريا ، اذ انها لم تكن قد رأت البحر من قبل . وأخيرا أخذ الطريق يتبع ساحل البحر ، واصبح فى وسعها سماع صوت الامواج فصاحت : « هيا بنا لنرى البحر ! » . وقبل أن تنتظر موافقة المربيتين ،

طلبت من الحوذى ان يتوقف .

ونزلت السيدات . وهب النسيم محملا بروائح البحر ، فأسر ماريا ، وجعل ثوبها يلتصق بجسمها الصغير ، كما نفخ فى القسم الأسفل من الثوب فجعله يرفرف كالعلم . فأخذت تعدو فى الهواء متجهة نحو البحر الذى كان يلعق بفمه ذلك الشاطىء الأشقر . لقد كانت ثملة ، أسكرتها الريح والسرعة وروائح البحر . وأخذت تتنقل بقدميها الصغيرتين من حجر الى آخر ، حتى توقفت أخيرا وقد كادت أنفاسها تتوقف . وأخرجها من تأملاتها النشوانة صوت مربيتها الانجليزية وهى تدعوها الى العودة ، فسارت على مهل وقد تحطم حلمها !

وعلى بعد خطوات من العربة التى كانت زميلاتها فى انتظارها ليساعدنها على ركوبها ، رأت بوشكين واقفا يراقبها وعلى وجهه تعبير عجيب يتجلى فى عينيه الزرقاوين . وتمتم قائلا : « لقد ابتلت قدماك يا آنستى ! » . ولم تجبه ، بل صعدت الى العربة مسرعة ، وقد اعتبرت انه لم يكن يليق به أن ينظر الى قدميها !

« انني أذكر جيدا الأمواج الصاخبة
« قبل أن تثور الزوبعة . أنا أيضا
« كنت أود أن أندفع الى الأمام
« ثم أنحسر عن قدميها فى هدوء
« كما كان يفعل الموج وهو يغمرها بالقبل
« وكانت شفتاى تواقة الى نعمهما !
« لا ! عندما كان الشباب والحب يشتعلان
« لم أكن أحترق بمثل هذه الرغبة
« لو دلكت شفتى عذراء
« أو قبلت خدا موردا قبلة نارية
« أو حاولت فى حماس متدفق
« أن أقبل صدرا ..

« فانه لم يحدث اطلاقا من قبل
« أن سبب لى أى المشاعر
« ألما عظيما مثل هذا الألم » (١)

وعاد ألكسندر الى عربته وطلب من سائقها أن يسير على مهل .. فقد كان يشعر بالحاجة الى التفكير . ان منظر ماريا، كما رآها منذ لحظة ، وهى متقطعة الأنفاس ، متناثرة الشعر، مضيئة العينين ، لا يمكن أن يبارح خياله ! .. فلأول مرة فى حياته ، شعر بالتأثر العميق لجمال المرأة وملاحتها .. شعر بالتأثر الى درجة الألم ! فحتى الآن لم تكن غرامياته الا نوعا من ثورة الحواس ، ورجفة قلب تواق . كان قد عبث وغازل عدة مرات ، ولكنه لم يحب مطلقا .. فكيف السبيل لمقاومة ماريا (٢)

كان لقاؤهما محض صدفة ! واخذ يتذكر سلسلة من الأحداث الغريبة غير المتوقعة، هى التى أدت الى لقائهما .. **كانت الأشهر الأخيرة شديدة الوطأة عليه : كان البوليس مجدا فى البحث عن كل ما خطته يداه ، وكان والده ـ الذى يدعى انه رقيق الاحساس وان كان فى الحقيقة جبانا ! ـ قد تخلى عن ولد مغضوب عليه ! .. وكان الوسط المحيط به قد شدد من هجومه الخبيث لينال من كفاءته الشخصية . كان ظهوره وعدم استقراره قد أكسباه عددا من الأسماء المستعارة مثل : « الشرارة » و « اللهب » ! .. أما الآن ، فقد اخترع له أحدهم اسما جديدا كان أشد خبثا من الأسماء الأخرى ، وهو : « القرد » !**

كان الامبراطور ثائرا ، وكان الناس يقولون ان بوشكين سينفى الى سيبريا أو يسجن فى دير سولوفتسكى ، أو ـ وكان هذا افظع ما قيل ـ ان الحكومة لم تأخذ موضوعه بجد

(١) من قصيدة شعرية نظمها بوشكين فيما بعد
(٢) أنظر لوحة تمثال جمال ماريا فى صفحة ١٣٠

واهتمام ، وانه يعامل معاملة الطفل المشاغب ، ولذلك فقد نقل الى مكاتب البوليس السرى حيث ضرب بالسوط - كالمتشردين - ليتلقى درسا ! .. وعند ما تذكر كل هذه التخرصات ، فقد وجهه هدوءه السابق ، وعض شفته . وكانت كل هذه الشائعات تنسب الى الكونت تولستوى الذى كان معروفا باسم « الامريكى » ، والذى كان نصف مغامر ونصف وجيه ! .. ولم يتسع الوقت لبوشكين حتى يتحداه ويدعوه الى مبارزة .. ولكنه لن يخسر شيئا بالانتظار ! .. وتذكر حديثه مع ميلورادوفتش ، وما قاله له : « يا كونت ! لقد أحرقت كل أوراقى .. ولكن كل شىء مدون هنا ، فهل لك أن تتفضل وتقدم لى ورقا .. »

ولكن ميلورادوفتش كان انسانا مهذبا ، وجنديا ، ومثالا للشجاعة الروسية .. فى حين لم يكن القيصر الا رجلا خاضعا للتأثير ، يحب الانتقام ، وصديقا لأراكشيف . وقد تظاهر القيصر بأنه يرسله الى الجنوب ليكون فى خدمة مفتش عام المستعمرات . فى حين أنه أراد أن ينفيه . وبعد الحياة الرائعة فى سانت بطرسبرج ، بدت له هذه المدينة القذرة ، التى لا حياة فيها ، كالكفن ! .. كانت مدينة ريفية : اذا حل الشتاء ، رقدت تحت الثلج . واذا حل الربيع ، رقدت تحت الوحل! .. وكان منظر بيت يتكون من طابقين حدثا فريدا فيها ! ولذلك فان وصول غريب ، بل شاعر ، بل بوشكين ، اليها ، قلب المكان كله رأسا على عقب عدة أيام ، حتى لكأن مهرجانا قد أقيم فيه ! اما بالنسبة لبوشكين ، فان منظر هذه المجموعة من المنازل دفعه الى التثاؤب !.. وفى مثل هذا المكان كان عليه أن يقضى عدة سنوات من حياته !

وأخذ يقضى الأيام وهو يحرك قلمه على الورق ، ويقضم أظافره . وكان الفراغ العظيم - الذى يتميز به ريف روسيا - يثقل على نفسه ، حتى لقد أثر فى صحته . . ومنذ أسبوع

واحد كان نيكولاس رافيسكى مارا بالمدينة ، فوجده مريضا ، مهجورا من الجميع ، وملقى فى حجرة حقيرة بمنزل رجل يهودى !. وكان نيكولاس فى طريقه الى ينابيع المياه المعدنية فى القوقاز ، مع والده وشقيقتيه ماريا وصوفيا .. وقد قرروا أن يصحبوا بوشكين معهم فى هذه الرحلة ، وبكى الشاعر لشدة الفرح عندما ظهر نيكولاس فى حجرته الحقيرة .. الا انه لم يكن يعرف بعد هل يبارك أم يلعن تلك المصادفة التى جعلته يتعرف بماريا !

- ٢ -

• **اختفت** مراعى (الاستبس) الخضراء تدريجا ، وظهرت مكانها حواف تلال القوقاز . وكانت الطرق ضيقة ، فكانت العربات تشق طريقها فى شرائط محدودة يقوم على أحد جانبيها حائط ، وعلى الجانب الآخر هاوية . وكانت تظهر – على البعد – قمة أعلى جبال أوروبا ، وهى تتصل بالأفق . وكان الروس قد نشروا السلام أخيرا فى المنطقة ، ولكن السفر فيها كان لا يزال خطرا ، اذ كانت تعيش فيها قبائل – لم تخضع بعد – من الشش والشراكسة ، كان أفرادها يهاجمون السائحين ، ويسرقون الماشية ، وينهبون الأموال

وسافر الركب فى حراسة ستين من رجال القوزاق المسلحين حتى أسنانهم ! .. وأخيرا ، وصلوا الى المكان الذى كانوا يقصدونه . وكانت الينابيع الحارة تتدفق من الجبال تاركة آثار الصدأ – على شكل علامات ملونة – فى الصخور العارية. ولم يكن هناك شىء ينمو فى تلك الأرض التى تشتعل فيها النيران الداخلية ، والتى كانت تربتها ذات بلة دائمة من تأثير المياه الجوفية الساخنة ، كما كانت تتحرك بتأثير هزات داخلية . كانت الأرض كفيلة بأن تمتلك الشعور ، فى نوع من الرهبة القدسية ، لما كانت تتميز به من فراغ وعظمة !.. ولم

يكن هناك ما يكفى من أى شىء : الأثاث ، والقماش ، والأطباق . وكانوا يحصلون على الماء المعدنى من الينابيع مباشرة ، فى زجاجات مكسورة .. وكان الماء يحرق أصابعهم !

كان العام عام ١٨٢٠ ، وقد شغف المجتمع بحب الأطلال ، وضوء القمر ، والموسيقى المحزنة ، وروايات الحب العنيفة . وكان هناك هؤلاء الذين يتوهمون أنهم قد خدعوا وضللوا ، كما كان هناك المخدوعون حقا . . ومن بين هؤلاء ، الكسندر رافيسكى ، الابن الاكبر للجنرال . وقد وجدوه فى انتظارهم ، فى مدينة المياه المعدنية . وكان بوشكين يحب أن يصغى الى الشاب اللطيف ، الذى كان يتميز بعينين صفراوين مثل عينى الثعبان ! .. **فلقد كان بوشكين يجد لذة غريبة فى اخضاع أقدس المبادىء والأفكار المقررة المفروغ منها ، لذلك التحليل القتال الذى كان يتمخض عنه فكر رافيسكى البارد المر ! .**

كان منطقه الهدام يهاجم كل شىء . فما الحب فى رأيه ؟ انه خدعة من الطبيعة ، تعمل بها على استمرار الجنس البشرى .. خدعة تنتهى بعملية مبتذلة غير لطيفة ! .. وما المرأة فى رأيه ؟ انها ليست الا مسكنا رطبا يجب على الرجل ان يقضى فيه تسعة شهور قبل ان يدخل العالم !

كان يبدو أحيانا أن الدنيا قد أخذت تهوى وتتحطم تحت تأثير هذه الضربات من السخرية الفظيعة ! ومع ذلك فان بوشكين كان يعود دائما الى صديقه وكأنه كان يحس بحاجة الى المرور بهذه المدرسة الساخرة ! على أنهما كانا اذا تحدثا معا فى الليل ، أطفأ بوشكين الشموع ، حتى لا يرى عينى الشاب الصفراوين ، اللتين تشبهان عينى الثعبان ! ثم .. يعود بوشكين الثائر ، الطالب المجعد الشعر ، فيخرج من عزلته ، ويأخذ فى التجول فى الريف ، مسلحا بعصا ثقيلة ، وهو معرض فى كل وقت لأن يتلقى رصاصة فى صدره . كان رأسه حافلا

بالنغم والمناظر الشعرية والمشروعات والتصميمات . وكانت الأغانى تتزاحم فى عقله وتتدفق من فمه .. هناك، على «سطح» أوروبا ، كان عليه ـ فى النهاية ـ ان يتمم اعمالا مجيدة !.. ولكن فكره المغنط كان لاينقطع عن العودة الى الفتاة السمراء التى أحبها حبا غير كامل .. حبا يعذبه، لأنها كانت لاتصدقه! **ذلك انه ، وهو الأفريقى الذى كاد يخرج عن حواسه ـ ذات مرة ـ لمجرد اتصاله بامرأة احبها .. كان ينبغى عليه ان يقنع بصداقة بريئة لاتسمح له الا بلمسة أو نظرة او ضغطة على اليد !..** لقد جعله حبه الغيور ، التعس ، خجولا ، تهرب منه الكلمات ! لم يعد ذلك التابع الوقح ، المجعد الشعر ، الذى كان يعيش فى سانت بطرسبرج ، خليل الممثلات والسيدات ، بل أصبح شابا يحب حبا غريبا وحشيا .. يفكر فى الأشعار ، ويقضى الليل فى نافذته !

- ٣ -

• **كان** شهر سبتمبر على وشك الانتهاء ، وقد انقضت على القوم ثلاثة أسابيع وهم يعيشون فى ذلك القصر القديم ، الردىء البناء ، الواطىء ، الغريب .. فى (جورزوف) بشبه جزيرة القرم .. وهى بلدة تشتهر بالشمس والكروم ، وتقع فى كنف جبل . وكانت حديقة المنزل الأبيض القريب تؤدى الى شريط صغير يتكون منه الشاطىء الذى يحدده زبد الأمواج .. وكانت مملوءة بنباتات الجنوب : فمنها الأشجار ، ومنها الأشواك . وكانت ثمة شجرة معينة بالذات أغرم بها ألكسندر . فلقد كان دائما معرضا لصداقات مفاجئة يعقدها مع الأشجار !

وكان آل رافيسكى قد التقوا فى (جورزوف) بالأعضاء الباقين من الأسرة ، وهم : زوجة الجنرال ، وكريمتاه الكبيرتان كاترين وهيلين . وكانت كاترين مثلا حقيقيا لابنة جنرال .. فقد كانت جميلة ، ذكية ، ذات عزيمة . أما هيلين ، فكانت أجمل الفتيات الأربع ، الا انها كانت آخذة فى الذبول ، لمرضها بذات الرئة !

لقد كان هناك شيء مؤثر ، ملائكى ، فى جمالها . . كانت تحب التردد على الحفلات الراقصة ، ثم تجلس فى ركن من الأركان وهى فى لباسها الأبيض، حتى ليكاد يخيل اليك انها ستطير بعد لحظة !.. كان بوشكين يحبهما، الاثنتين معا ، بل انه كان يحب الأسرة الكريمة الشجاعة كلها !

كاترين .. هيلين .. ماريا !.. لقد كانت أثوابهن ترفرف فى حديقة المنزل ، وفى أحلامه ! كانت كاترين تعلمه اللغة الانجليزية من مجموعة من قصائد بيرون. كم كانت كلمات الحب جميلة وهى تخرج من فمها الثابت ! ولكن ماريا . . ماريا بكتفيها ، وبعينيها الناعمتين القصيرتى النظر .. ان صداقتها كانت تعذبه .. ومع انها لم تكن تتحاشى لقاءه ، الا انها لم تكن تسعى اليه !

كان سعيدا !.. سعيدا بالبحر ، وبالأسرة ، وبالرحلات الجبلية ، وبمعبد (ارتميس) الاغريقى وما يبعثه من خواطر.. ولكن ، كان لابد لهذه السعادة من النهاية .. لابد من الرحيل.. ورفع ألكسندر عينيه ، فرأى ماريا . كانت تجلس على مقعد يواجه البحر ، وقد أولته ظهرها، فكان يرى عنقها الناعم وقد برز من ياقة ثوبها ، وسلسلة ذهبية كان يتدلى منها صليب لاتفارقه قط ، طبقا للتقاليد الأرثوذكسية . وجرى فى الحال يعدو على السلم، وقد نسى قبعته وعصاه. وصاح : «يا آنسة!» . فأدارت رأسها وابتسمت له . . كانت حافة قبعتها المصنوعة من القش تلقى ظلا خفيفا على الجزء الأعلى من وجهها ، وكان ثوبها يكشف عن جزء من كتفيها البيضاوين النقيتين النحيلتين. انها لم تكن تقوم بمجهود ما حتى يبدو الشحوب على وجهها ، أو حتى يختلج صدرها الضعيف . لم يكن يبدو عليها فى جلستها أى نوع من التأثر أو من التجمل . ونظرت اليه وهى تبتسم ، وتهز ذراعها . هذا كل ما هنالك !.. وقال لها فى سرعة : « لقد رأيت انه يجب أن لا أسافر دون أن أخبرك

بمقدار ... » ، فقاطعته الفتاة قائلة : « تسافر ؟ »

ـ نعم ! واأسفاه ! لقد حان وقت سفرى . . فقد نقلت، ادارة الجنرال اينزوف الى (كيشينيف) ، ويجب ان ألحق به بعد أيام قليلة . ولكننى قبل كل شىء أريد منك أن تعرفى أن هذه الأسابيع الثلاثة التى قضيتها هنا كانت أسعد أيام حياتى. واليك انت أنا مدين بهذه السعادة !

وجلس بجانبها، فلم تبتعد عنه وان تحفظت قليلا . وقالت له : « هيا ، هيا ، يابوشكين ! لقد كررت هذه الكلمات بكل تأكيد على مسامع شقيقتى كاترين ، وانت تسير بجانبها على شاطىء البحر ! » . **كم كان يشعر بالسعادة لو أن كلماتها هذه كانت تشف عن أبسط أثر من آثار الغيرة ! ولكن .. هل يمكن أن تشعر فتاة بالغيرة من أجل رجل لا تحبه ؟!** وأجابها بغضب: « كلا ، طبعا ! لم أقل لها شيئا من ذلك . انك تعرفين جيدا ان كاترين نيكولافنا تقوم باعطائى دروسا فى اللغة الانجليزية »

ـ هل تتلقى دروس اللغة الانجليزية فى الساعة العاشرة مساء ، وفى ليلة قمرية مثل ليلة أمس ، وعلى شاطىء البحر ؟!

ـ ولم لا ؟

ـ وأرجوك ان تخبرنى ماذا كنت تفعل فى الصباح المبكر تحت نافذة شقيقتى هيلين ؟!

ـ كنت أجمع بقايا الورق المتناثر على الأرض ، فانها تترجم أشعار بيرون ووالتر سكوت الى اللغة الفرنسية ، ولكنها تمزق ما تترجم وتلقيه من نافذتها ، وأعتقد أن هذا مما تلام عليه ، لأن ترجمتها أمينة ملأى بالشعر !

ـ يا للسماء ! ما كنت أظنك تلميذا متحمسا الى هذا الحد! اذا كان الأمر يتعلق بكاترين، فانها مسألة الدروس التى تتلقاها، واذا كان الأمر يتعلق بهيلين ، فانها مسألة ترجمة ..

واستوقفها ، اذ دعاها باسمها مجردا لأول مرة ، قائلا لها : « لا تمزحى يا ماريا ! انك تعرفين تماما انك الوحيدة .. آه ،

لو انك ... » . وكانت قد نجحت أخيرا فى أن تطلق سراح يدها التى أمسك بها ، فقالت بصوت منخفض جدا وسريع : **« لماذا أردت أن تفسد صداقتنا ؟ انك لاتحب ولن تحب شيئا طول حياتك ، الا شعرك ! اننى أعجب بقصائدك ، وانت تعرف ذلك .. وأنا أحبك كما أحب شقيقى . أما بالنسبة لنفسى فاننى أحلم بمصير آخر ! »** . ونهضت واقفة ، ثم مست بشفتيها جبهة ألكسندر ، وانصرفت . وظل الشاب يتبع شبحها الأبيض بعينيه ، حتى اختفت عن ناظره فى منحنى الطريق . وهكذا رفضته المرأةالوحيدة التى لم تقم بأى مجهود لتجعله يحبها .. بل رفضت أن تستمع الى كلمات الحب منه!

وأطرق برأسه ، وأخذ يبكى فى مذلة وغضب .. وحب ! ولما نهض ، كان رأيه قد استقر على ان يسافر فورا. يجب ان يهرب سريعا من ذلك المكان الجميل المضىء .. واذا لم يكن فى وسعه ان يخصص وقته للحب، فليخصصه للشهرة والمغامرة، واذا لم يكن فى وسعه ان يكون «لوفليس»، فليكن «دون جوان»، ولينتقم من جميع النساء للجرح الذى أحدثته له احداهن !

- ٤ -

• **كانت** مدينة (كيشينيف) قد الحقت بروسيا منذ عشر سنوات ، ولكنها كانت مدينة غريبة . . فان جزءا منها كان ملدافيا ، وجزءا آخر كان يونانيا ، وجزءا كان يهوديا ، الى جانب بعض التتار المنتشرين فيها. كانت مدينة شرقية ،واطئة، قذرة ، ذات مناظر جميلة !.. وفى شوارعها الملأى بالوحل ، المفرطة الضيق ، كان السكان يسيرون فى ملابس مهلهلة ، وهم يبسطون أيديهم بالسؤال، ويحدثون ضجة كبيرة . وكان التجار يمسكون بالمارة من أيديهم ، ويجذبونهم بالقوة ليضطروهم الى دخول متاجرهم ! . . أما افراد الطبقة الأرستقراطية من الاغريق الرومانيين- وهى الطبقة التى تتكون

من آل زمفيراكيس وفارفولوميس وانجليزيس ـ فكانوا يلازمون منازلهم ، وقد وضع كل منهم ساقا على ساق ، ويشربون القهوة التركية ، ويأكلون الحلوى ، ويتحدثون اللغة الفرنسية (التى أدخلها الروس) . وكانت السيدات فى الماضى يضعن الحجاب على وجوههن ، ولكنهن الآن أصبحن يقبلن على محال الأزياء ، ويشربن الخل حتى يبعث الشحوب الى وجوههن !

وكانت المدينة تزخر باللاجئين اليونانيين الذين كانوا يهربون من الحكم التركى . وكان الضباط الروس يظهرون فى الشوارع ، ويترددون على المشارب والمراقص والكازينو ، وقد انتعلوا احذيتهم اللامعة وارتدوا ملابس ضيقة ملتصقة بأجسامهم ، وألقوا بالسترات ذات الأطراف المصنوعة من الفراء على أكتافهم ، وحملوا سيوفهم .

وبدأ ألكسندر يشعر بالسأم . كانت المدينة الغريبة قد أثارت اهتمامه فى بادىء الأمر ، ثم سر منها ، ولكنه ما لبث ان شعر بالضيق . وكان اصدقاؤه الأذكياء فى سانت بطرسبرج قد نسوه .. ففى خلال العامين اللذين قضاهما فى المنفى ، لم يتلق من هؤلاء الأصدقاء عشرة أسطر ! ولكن ، بقى بعض الأوفياء مثل : زوكوفسكى ، وكارامزين ، وفيازيمسكى . وكان هؤلاء يحاولون نقله الى اوديسا ، فهى نموذج مصغر لباريس!

سانت بطرسبرج ! لقد أيقظ هذا الاسم السحرى فى نفسه أسفا حادا . لقد كان معناه الأضواء ، ومراقص الباليه ، وحياة صاخبة ! كانت فى تلك العاصمة نكهة من أوروبا ، وكان قد بدأ يتذوقها !.. **وكان يتظاهر بأنه شارد الفكر ، ولكنه فى الواقع كان يشعر بمرارة ويأس . لقد بدأت حياته بداية سيئة .. فان سنه ـ وهى لاتزيد على اثنين وعشرين عاما ـ وان كانت قد تميزت بالنبوغ ، الا أن صاحبها كان يموت من السأم والتعاسة فى جحر بمدينة ريفية .. دون أصدقاء ودون حب ، ودون مال ، ودون أمل !..** كانت الحكومة تكرهه ، وتحيطه

بعدد من الجواسيس . وكانت شهرته آخذة فى النمو ، ولكن الحال فيما يتعلق بدخله لم تكن كذلك . وكانت الصحف ترحب بنشر قصائده ، ولكنها لم تكن تدفع له ثمنا !.. وكانت الفصول الأولى من قصيدتيه القصصيتين الجديدتين : « أسير القوقاز » و « نافورة باكشيراى » ، قد انتشرت بمئات النسخ التى نقلت بخط اليد .. وكان الناس يحفظون شعره عن ظهر قلب ، ولكنهم لايشترونه. **كان المبدع ، وحبيب روسيا الأول، ومع ذلك لم يكن لديه من المال ما يكفى لشراء سترة جديدة !**

وكان بوشكين يشتغل الى ساعة متأخرة من الليل، ويمارس اطلاق النار وهو راقد فى فراشه ، وقد جرد جسمه من الملابس حتى خصره. وكانت جدران حجرته ملأى بالثقوب الصغيرة .. وقد كان فى امكانه ان يصيب بالرصاص قلب الوردة، وهو على بعد عشرين خطوة منها. وكان الناس يهابونه لأنه كان مشهورا بأنه من أمهر الرماة ، كما أنه كان سريع التحدى !.. أما فى الصباح ، فكان يحب أن يعمل وهو فى فراشه . فاذا بدا يكتب، أمكن لأى انسان أن يرى العضلات وهى تتحرك فى ذراعه الرفيعة العارية، واكتسب وجهه المتحرك هدوءا، وبدا مفكرا. وكان فنه قد بدأ يخشوشن ويتميز بروح الرجولة.. فلم يعد يتمثل فى الأسلوب الساحر اللطيف الذى كتبت به « روسلان ولودميلا» ، التى داعب فيها نبوغه ذكريات لأريوستو وفولتير وبارنى . وانضم — فى اصرار وعزم — الى المحدثين ضد القدامى ، والى الرومانتيكيين ضد الكلاسكيين . ولكن شعره ظل واضحا خفيفا رائقا كالزجاج النقى! وتحت تأثير نار نبوغه، أصبحت لغته الوطنية نقية ، براقة، متبلورة، كقطع الماس .. ولكنه ظل مخلصا لأساتذته من الكلاسيكيين الفرنسيين . لقد كان صانعا ماهرا من صناع الأدب ، تشبع بفن «بوالو» .. وكان يقضى ساعات طويلة وهو ينظم قصيدة واحدة !

★ ★ ★

• **وكان** مجنونا ببيرون ، الرومانتيكى (الخيالى) ، الذى كان نبيلا مثله . . والذى كان ــ مثله أيضا ــ منبوذا من المجتمع . وكان مظهر هذا الجنون يبدو فى كل شىء . فانه كان يحتقر الجنس البشرى ، ويرتدى الياقات الناعمة، تماما كما كان يفعل بيرون . ولم يكن عدوا للتصرفات الغريبة ، فكان يبدو أحيانا بمظهر التركى ، واحيانا أخرى بمظهر اليهودى !.. وكانت ملابسه تتكون من « بنطلون » من المخمل وغطاء للرأس وسترة كانت تبدو غريبة حتى فى كيشينيف . وكان الناس يفدون من المدن المجاورة لرؤية مستر بوشكين ، بطربوشه الأحمر ، وحذائه البرتقالى .. **ولكن هذا المنظر التمثيلى كان يخفى وراءه تعاسة لاتجسر على التصريح باسمها ! . . وكان بوشكين يبدو كأنه يحتج على الزى المألوف ، ولكن الحقيقة هى انه لم يكن لديه المال الكافى ليدفع أجر الحائك !**

وكان بطل قصيدته الجديدة ــ « أسير القوقاز » ــ رجلا مبدد الأمل مثل « مانفرد » ، أما الفتاة القوقازية الصغيرة ــ وكانت هذه أول صورة كاملة يقدمها لأمرأة ــ فقد كانت تتميز بعينين سوداوين ، وشعر غزير ، وكتفى ماريا رافيسكى .

ماريا ! ماريا ! .. ان ذكراها كانت لا تزال تطارده ، حتى بعد انقضاء عامين . لقد كان أبطال قصائده كلهم أشخاصا من نسج خياله .. رجالا كانت قلوبهم مثخنة بجراح لاتبرأ ، لما أصيبت به من حب لم يرتو ! هكذا كان « أسير القوقاز » ، وهكذا كان الخان العاشق فى « النافورة » ! .. لقد كانت ماريا « هى » التى يسعى اليها ، من دون النساء جميعا !

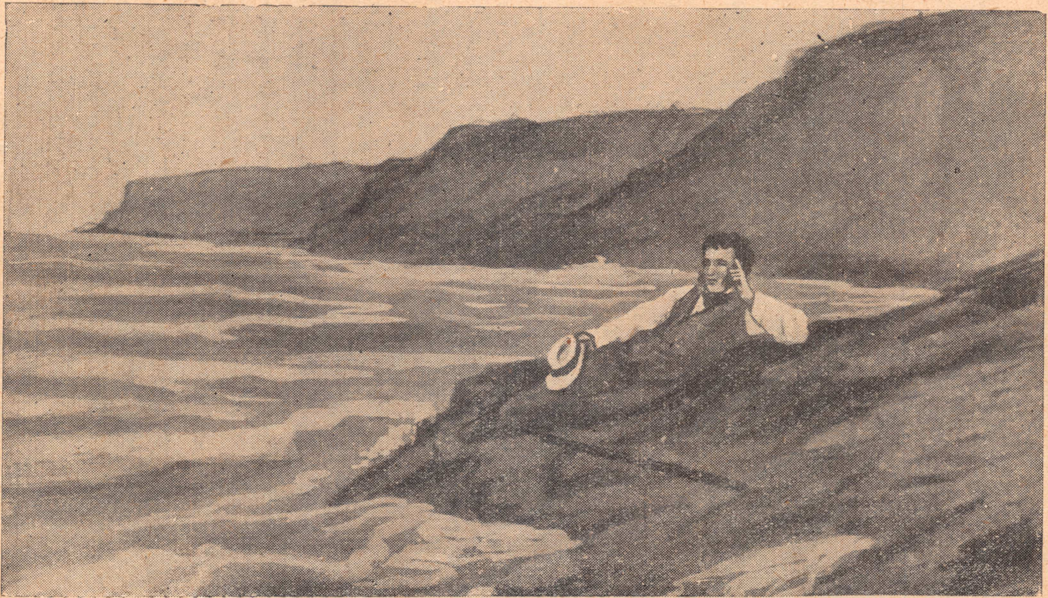
وكانت خليلته الرسمية ــ فى ذلك الوقت ــ هى « كاليبسو بوليخرونى » .. لاجئة يونانية ، ذات عينين سوداوين وشعر

مجعد . وكانت تعيش فى فقر مع أمها التى كانت تكشف عن الحظ والمستقبل بواسطة ورق اللعب أو قاع فنجان القهوة بعد شربه ، كما كانت تذهب الى الراغبين مقابل عشرة روبلات . وكانت كاليبسو قصيرة ، بدينة ، لها هيئة الصبى ، وتكاد تكون بلا صدر . ولكنها كانت مغرمة بانشاد الاغانى التركية — بصوت مرتفع — وهى تعزف على القيثارة . **وكان ألكسندر يحب الجو الشعرى الذى يحيط بها .. فقد كانت عاطفية غامضة ، تسمح للرجال بمضاجعتها مقابل المال وتحلم فى الوقت نفسه بأن تصبح راهبة ! . وكانت قد تعلمت فن الحب بين ذراعى لورد بيرون ، فكان بوشكين يمجد فيها المرأة التى احتوتها ذراعا أعظم شعراء الانجليز !**

وكانت هناك ايضا « بولشيريا فار فولومى » .. ابنة رجل مولدافى كريم . وكانت ممتلئة الجسم كالعروس الجميلة ، يبدو عليها عدم الاهتمام حتى ان والدها لم يتمكن من ان يجد لها زوجا على الرغم من ثروته العريضة ! كانت تبدو مثل تلك الشخصيات الخيالية التى تزين سقف صالة الرقص ، حيث كان والدها يقيم حفلة راقصة مرتين فى كل أسبوع ! وكانت الثريا تتدلى من صدر احدى الصور المرسومة على السقف ، فكان ألكسندر يجد متعة عندما يتخيل أنه لابد أن يكون لبولشيريا صدر مثل هذا الذى تتدلى منه الثريا !

من أيضا ؟ ! .. «ماريولا زيمفيراكى»، و« ماريا ايخفيلد»، و« أنيكا ساندولاكى » و « فيكتوريا فالكار » و« ماريا بالش» — التى صفع زوجها ! — وابنتهما التى كانت فتاة فى الثالثة عشرة ! .. كان يقدم قلبه لأول طارقة ، بشرط أن تكون حسنة الشكل . وكان اذا رأى فتاة حسناء فى نافذتها ، تسلق اليها مستعينا بظهر جواده !

وكانت التقارير السرية تجد طريقها دائما الى سانت بطرسبرج : أخلاق مستر بوشكين رديئة . مستر بوشكين



« بوشكين وهو يناجى البحر » ، لوحة للرسام « ايفازوبسكى » تمثل الشاعر
فى احدى لحظات تفكيره ، أثناء نفيه فى شبه جزيرة القرم

يدخل فى مبارزات كثيرة . مستر بوشكين يقوم علنا باهانة الجيش والبوليس والحكومة ! .. ولكن المستر بوشكين كان لا يهتم أقل اهتمام بحياته ، شأنه فى ذلك شأن قلبه ! وقد بلغ به التباهى بالشجاعة انه كان يذهب الى ميدان المبارزة وقد ملأ قبعته بالكريز ، ويستمر فى تناول الكريز بهدوء وخصمه يصب عليه النار ! كان حلمه هو أن يذهب للقتال فى اليونان .. وقيل ان لورد بيرون كان ينوى ان يقوم بنفس العمل !

وكانت (كيشينيف) ملأى بأنباء الاضطهاد ،اذ كان اللاجئون يفدون عليها باستمرار ويقصون على أهلها قصص العدوان التركى . وكان الناس يتحدثون فى حماس عن فرصة سكان (هيدريا) ، بعد ان حاربوا العثمانيين وهم عزل من السلاح ، ودون سفن ، لايملكون الا عزمهم على الموت من أجل الحرية!.. كانت الأعين كلها تتجه نحو أرض الاغريق القديمة .. فقد كانت أول أرض ، بعد فرنسا ، ترفع علم الحرية . كان الناس ينتظرون ــ فى قلق ــ عملا من جانب قيصر روسيا ، الذى كان يتظاهر دائما بأنه المدافع عن الشعوب السلافية . ولكن الحكومة الروسية لم تكن تريد أن ينتصر اليونانيون الأرثوذكس على الأتراك المسلمين ، لأن اليونانيين كانوا مشاغبين ، محبين للحرية ، ثوريين ! وكانوا يكتبون على علمهم تلك الكلمة المحرمة فى روسيا ، والتى كان مجرد نطقها يبعث الرعشة الى البيروقراطية القيصرية .. كلمة الحرية !

وفى هذا الجو المحدود ، كان بوشكين يشعر بنفسه أسيرا . كان فى وسعه أن يروح ويجىء كرجل حر ، ولكنه كان يشعر ــ من حوله ــ بقضبان سجن لا يراه . كان الجواسيس يتعقبونه ، والبوليس يجمع أخباره ويدون المذكرات عن فورات غضبه ! .. على ان البوليس والمؤامرات ما هما الا وجهان لمدالية واحدة .. فان الطغيان يولد الثورة ! وفى عام ١٨٢٠ ،

لم يكن فى وسع أحد فى روسيا ان يقول لصديقه « أسعدت صباحا » ، دون أن يبدو كأنه من رجال الثورة ، بل دون ان يكون من رجالها فعلا ! كانت المؤامرة فى كل مكان .. ولم يكن خافيا على أحد وجود جمعية سرية (اتحاد الفضيلة) هدفها الغاء الرقيق ، واقامة نظام من اثنين : فاما ملكية ديمقراطية، واما جمهورية ! .. **كان بوشكين يستنشق هواء المؤامرة . وكان أعز أصدقائه ينتسبون الى « اتحاد الفضيلة » ، ولكن الجمعية ظلت مغلقة فى وجهه .. فقد كان المتآمرون يخافون جرأته بل شهرته . ولما كانوا هم أنفسهم من الشعراء ، فقد كانوا يريدون أن يحفظوا لروسيا أعظم شعرائها !** .. الا ان الشاعر الكبير اضطرب لرفضهم ضمه الى صفوفهم . فلماذا لا يتاح له أن يجازف بحياته من أجل قضية عادلة شريفة ،فى الوقت الذى كان فيه يعرض هذه الحياة دائما للخطر - فى مبارزات - من أجل مسائل تافهة ؟ !

وكان رد الفعل قاسيا على نفسه ، فأخذ يرسم بقلمه العصبى ، على هوامش مخطوطاته ، صورا تمثل شياطين صغيرة ، وقرونا ،وحوافر ، ونساء يعرضن أنفسهن، وجماجم بشرية . وكان هذا رده على تعصب البلاط ، وعلى مظهر الفضيلة المصطنع الذى جعله القيصر المنافق « موضة » العصر ! .. وألف سرا قصيدة ضد الدين أطلق عليها اسم « الجبرائيلية » ، وعرض فيها ب « الروح القدس » ، وجعل من السيدة العذراء امرأة عادية ، ومثل الله بالزهرة ، وجعل من الملاك « جبرائيل » وسيطا !

كان يبدو كمن ركبه شيطان يدفع به دائما الى أن يظهر نفسه على غير حقيقتها ، بل وعلى اسوأ مما كانت فعلا . وقد تطرف فى اباحيته الى حد العهر ، وفى وقاحته الى حد الخشونة ، وفى شجاعته الى حد استعمال السيف ! .. بل لقد فكر فى «اوفيد» ، الذى مات فى منفاه قبل ١٨٠٠ سنة - بسبب

ما أصابه من سأم ـ فى نفس المكان الذى كان يحاول هو فيه ان يغرق أسفه على شبابه الضائع ، فى شيئين : فى الخمر ، وفى الافراط العاطفى !

- ٥ -

• **كان** الكونت فورونتسوف ، الحاكم العام لروسيا الجديدة ـ وكانت عاصمتها اوديسا ـ قد اغلق على نفسه باب مكتبه وأصدر أوامره بألا يزعجه أحد . وحل صمت رهيب على المنزل . ان الكونت لم يغضب قط ، ولم يرفع صوته مطلقا ، ولم يؤذ من هم أكبر منه .. ومع ذلك كان مهابا !.. وقد أصبح ـ بعد زواجه من الكونتيسة البولندية اليزابيث برونتيسكا ـ واحدا من أغنى رجال روسيا

ووضع الكونت قلمه ، ثم اسند ظهره الى المقعد . وظهرت على ملامحه المألوفة ، القوية ، صورة تدل على القسوة التى كانت تختفى تحت قناع من الرقة والشفقة . انه يجب أن يكون دقيقا فى كل تعبير يرد فى تقريره ، ويجب ان يراجع فيه نفسه . **انه يكتب ـ للمرة الثانية ـ تقريرا لسانت بطرسبرج ، على أمل أن ينجح فى التخلص من بوشكين . لقد كانت الكراهية تملأ نفسه لمجرد سماعه هذا الاسم !**

وتذكر الأبيات التى ألفها عنه بوشكين :

« انه نصف بطل ، ونصف جاهل
« وماذا أكثر من هذا ؟ لا تنس : نصف أثيم !
« ولكن فى هذا المجال ، يبشر الرجل
« بأنه سيصبح كاملا ! »

نظير أى شىء كان بوشكين يتقاضى مرتبه ؟ ألكى يعمل أم لكى يقرض الشعر ؟ لقد كان يقضى وقته اما فى الاستحمام فى البحر ، أو فى ركوب القوارب ، على أن يسدد الأجر فيما بعد ! .. وكان

يشاهد فى كل مكان : فى المقهى التركى ، وفى مطعم اوثون ، وفى الكازينو ، وفى الأوبرا ـ حيث كانوا ينشدون الحان روسينى ـ ولكنه كان لا يشاهد قط جالسا الى مكتبه . وكان يتصل ببعض أشخاص يدعو مظهرهم للريبة . وكان أحدهم يدعى مورالى .. أو المراكشى على .. وكان عربيا اشتغل زمنا بالقرصنة ثم اعتزلها ، وكان يرتدى الملابس الشرقية . وقد شوهد بوشكين جالسا على حجر هذا الشخص وهو يشرب الشمبانيا ولا يرتدى سوى قميصه !

ومع ذلك فانه ـ أى فورونتسوف ـ قد اعطاه الفرصة لاصلاح نفسه ، اذ أرسله الى الجنوب لمحاربة الجراد ، بعد ان كان يهدد بالقضاء على الولايات الجنوبية . ولكن بوشكين عاد بعد أسبوع واحد ، ومعه هذه الأبيات :

« لقد أصيب الجراد بالاعياء
« فلم يقو على الطيران ..
« وأخذ يتساقط من السماء ،
« ويأكل كل شىء ،
« ثم عاد الى الطيران ! »

وكانت هذه هى الثمرة الوحيدة لرحلته !

من يكون هذا الـ «بوشكين» الى جانبه .. هو فورنتسوف حاكم روسيا الجديدة ، وصاحب الفضل فى رخائها وعمرانها .. وكان قاسيا ، نشيطا ، مستقيما ، يجمع بين النبل والسياسة! كما كان مهذبا كاملا الى اخمص قدميه .. لم يكن له نفع من بوشكين وأمثال بوشكين ! وأمسك بقلمه المصنوع من ريشة الأوزة ، وانطلق يكتب بالفرنسية

وابتسم ابتسامة خبيثة وهو ينظر الى رباط عنقه .. فقد أعجب بأسلوب الخطاب !.. **كان كل انسان فى روسيا يعرف ان القيصر ألكسندر الأول يكره بيرون ، اذ كان الشاعر الوقح**

ينهال عليه بالسخرية فى قصائده السياسية . وقد تعمد فورنتسوف ان يسهب فى وصف اعجاب بوشكين ببيرون ليثير نقمة القيصر عليه

ونهض من مكانه ، ثم أحكم أزرار معطفه الرسمى الطويل، وغادر مكتبه مختالا ، وسار الى مخدع زوجته ، فدخل دون ان يطرق الباب ، ثم تقدم من زوجته فقبل يدها وقال لها : « كيف حالك ، يا عزيزتى ؟ »

لقد كان يحب أن يتحدث بالانجليزية فى المنزل ، ولكن عادة التحدث بالفرنسية كانت تتغلب عليه ، ولذلك فقد قال لها « كيف حالك » بالفرنسية ، وقال « ياعزيزتى » بالانجليزية. وكانت النتيجة هذا المزيج الذى كان يعتبر آخر «موضة» !

وعادت اليزابيث الى التطريز . لقد كانت سنها فوق الثلاثين .. وفى تلك السن، كانت النساء تبدون هرمات . أما هى ، فكانت جميلة ساحرة .. ذلك السحر البولندى الذى يجذب ويبعث على الاضطراب فى وقت واحد !

ونظر الى عنقها المنحنى ، وجلدها الناعم ،وخصلات شعرها الصغيرة ، ثم تأوه . لقد كان زواجهما زواج مال تحول الى زواج حب فى بادىء الأمر .. كان هذا منذ عهد طويل . **ولقد كان يعرف أن زوجته غير مخلصة له ، كما انه هو نفسه كانت له خليلات . وكانت الشائعات تذكر ـ على وجه التحديد ـ أنها كانت تخص بحبها ألكسندر رافسكى ، الابن الاكبر للجنرال ، بل وبوشكين أيضا ! .. ولكن هذه فكرة ما كان ليحتملها !** .. وتنحنح ثم قال : « وبهذه المناسبة ..هـ ..م ! ان عندى أنباء سارة لك !.. ما رأيك .. سوف نتخلص من مسيو بوشكين ؟

وأخذ يراقبها بدقة .. ولكنها لم تتحرك . الا انه عند ما نطق اسم « بوشكين » ، توقفت الابرة عن المضى فى قطعة

التيل .. ووضع يده على جنبه الأيسر . انه يشعر فى هذه الأيام بقلبه يدق بطريقة تزعجه ، كلما غضب أو تلقى صدمة.

اذن ، فالأمر حقيقى ! اليزابيث ، زوجته وأم ابنتهما الصغرى ، تفضل ذلك الشاعر المبتدىء عليه هو ؟ ! تفضل ذلك الرجل المتوحش ، الذى لم يكن يعرف الانجليزية ، وكان ينطق بعض الكلمات طبقا لهجائها ! .. وسألها فى غضب : « أليس عندك ما تقولين فى هذا الشأن ؟ » . فقالت المرأة الصغيرة فى هدوء : « ماذا تريد منى أن أقول .. ياصديقى ؟ » . وقالت له يا صديقى باللغة الفرنسية ، ففكر فى نفسه قائلا : « كم هى مسيطرة على نفسها ! » .. وغادر الحجرة ، فشيعته بعينيها . أى تغيير احدثه الغرور فى نفسه ؟! لقد كان يغضبه ان يرى انها لم تعد تضفى عليه اعجابها دون تحفظ ، كما كانت تفعل فى الماضى ! ولكن السن كانت قد تقدمت بها ، ولم يعد هو الرجل العادل ، الصافى الذهن ، الذى عرفته فى الماضى . انه الآن يسعى الى تلقى الاحترام والتحية ممن هم أقل منه ، بل كان يكاد يستجديهما استجداء !

وتأوهت ، ثم عادت الابرة الطويلة تعمل فى قطعة القماش من جديد .. وأخذت تحيك وقد تدلى رأسها كثيرا الى أسفل . لقد كان نظرها آخذا فى الضعف منذ فترة ، اذ انها لم تعد امرأة صغيرة .. ومع ذلك فقد كان فى امكانها ان تبعث السرور الى الغير ، بل كان يسرها أن تبعث السرور الى الغير بالفعل !

ولقد بدأت علاقتها بالشاعر بداية سيئة . كانت قد قضت الصيف فى منطقة المياه المعدنية ، فلما عادت الى اوديسا كان بوشكين قد وصل اليها منذ مدة ليعمل تحت أمرة الكونت فورونتسوف . وكانت — مثل كثيرات غيرها من نساء العالم — تهتم بالأدب .. كما كانت تحب أن تعرف معرفة شخصية مؤلف قصيدتى « روسلان » و « سجين القوقاز » . وقدم اليها ، فرأت فيه شابا نحيفا يبدو وجهه من الناحية الجانبية

مثل وجه عربى ، غليظ الشفتين ، ينفجر ضاحكا لكى يبرز أسنانا جميلة . وكان رفيع الخصر ، مجعد الشعر ، صغير اليدين . لقد كان يسرها أن تراه .. وكان يبعث شيئا من الاضطراب الى نفسها ! .. وفى احدى حفلات الاستقبال ، سألت صديقا لها : « ماذا يمثلون على المسرح ؟ » . وكان بوشكين موجودا ، فاستدار بسرعة ، ووضع يده على قلبه — كما كان يفعل دائما عندما يستعد ليكون وقحا ! — ثم انحنى أمامها وقال : يمثلون رواية « الزوجة المخلصة ، يا سيدتى الكونتة ! » . وكان يجب أن تصفعه !

كان يقال عنه انه عشيق مسز رزنيخ ، وهى سيدة غريبة الأطوار ، كانت ترتدى القبعة العالية ، والأثواب الطويلة التى تمسح الأرض . ولا شك أنها كانت تفعل ذلك لتخفى ساقيها اللتين كانتا تمتازان بكبر حجمهما ! كان يقال عنها انها رائعة الجمال ، ملتهبة العاطفة . **ألم يكن الدم اليهودى يجرى فى عروقها ؟ ان اليزابيث لا تعرفها ، فان محيط كل منهما لا يلتقى بمحيط الأخرى : كانت الكونتة فورونتسوف سيدة كبيرة المقام ، اما مسز رزنيخ فلم تكن فى نهاية الأمر سوى زوجة تاجر غنى يتعامل فى الحبوب .. ومع ذلك فقد كانتا متنافستين !**

وعندما كان « شباب اوديسا الذهبى » يغادر قصر فورونتسوف الفاخر ، كانوا يذهبون لتناول العشاء فى منزل مسز رزنيخ ، حيث لا يدعى الا الأخصاء . كانت اليزابيث تشعر بالغيرة ، وان لم تعترف لنفسها بذلك . ترى هل تريد أن تسرق عشيقا من هذه المرأة التى سمعت أنها أصغر منها سنا وأكثر منها جمالا ؟ .. **وتبقى الحقيقة ماثلة ، وهى أنها كانت تعامل بوشكين دائما بأرق مظاهر الحب وأشدها تأثيرا ، مما كان كفيلا بادارة رؤوس أشد صلابة من رأس الشاعر !**

ولم تكن المهمة شديدة الصعوبة ، فقد انقضت عدة أشهر

وبوشكين عند قدميها ! وكانت « أماليا رزنيخ » قد سافرت الى ايطاليا ـ مسقط رأسها ـ وذكرت الشائعات أنها كانت على وشك الموت لمرضها بذات الرئة ، وان زوجها وعشاقها قد هجروها . ولقد اعترف ألكسندر لاليزابيث بما ايقظته فيه هذه المرأة ، التى قدمت من الجنوب ، من عاطفة جارفة. كان قلبه ـ وهو قلب ضعيف لأنه قلب رجل وفنان ! ـ قد انتقل وأصبح فى مأمن ، بعد ان كان على شفا هاوية من الغيرة. كانت عاصفة الحواس قد هدأت، وتلاشت صورة امرأة طفلة سمراء فى نار ذلك الحب الشيطانى !.. **كان الآن قد أخذ ينسى المرأة الهلوك ، وهو بين ذراعى اليزابيث البيضاوين. وكانت حلاوتها البولندية توحى اليه بأشعار رقيقة ، ملآى بالموسيقى .. كان قلبه المضطرب ، الشديد الرغبة فى الحياة ، وفى الاحساس ، يطرد كل غرام قديم ليستقبل الغرام الجديد !**

وتنبهت اليزابيث مذعورة.. فان أحلامها قد ساقتها بعيدا عن حجرة زينتها المعطرة . وتذكرت كلمات زوجها ، ومن ثم بادرت الى انذار بوشكين بالخطر

- ٦ -

• فى يوم ٣٠ يوليه ١٨٢٤، دخل شاب يلتحف معطفا طويلا أسود اللون ، ويضع على رأسه طربوشا أحمر اللون ، الى ردهة الفندق الوحيد فى (موجيليف) ، التى كان الدخان يملأ جوها . وفى ركن من اركان القاعة ، جلس فريق من الشبان ينتظرون وصول جياد البريد ، وكانوا يقتلون الوقت بلعب الورق ويشربون نبيذا أبيض من صنف ردىء. أما فى الخارج، فكان الهواء راكدا ، والقيظ مرهقا يقتل كل نشاط

وخلع الرجل معطفه ، ولكنه لم يترك العصا الثقيلة التى كان يحملها . ونظر فى تحد الى الشبان الذين كانوا فى الردهة،وهم يحدقون بنظراتهم، فى ازدراء، الى بنطلونه الواسع وطربوشه.

وفجأة، وقف أحدهم بسرعة وأخذ يصيح: « بوشكين! انه بوشكين!». ثم استدار الى زملائه وقال لهم: **« ايها السادة! انه لمما يشرفكم ان تروا أعظم شاعر اخرجته ارض روسيا!».**

ثم أمسك بيد القادم الجديد وقال: « تعال يابوشكين! الا تعرفنى؟ اننى ابن أخ انجلهارت، مدير كلية تسارسكو سيلو. الا تذكرنى؟ لقد كنت تستعيد على الشعر فى أيام الآحاد!»

وتذكر بوشكين: « آه! ساشا؟ نعم! الآن أذكر! لقد كنت فتى لطيفا!»

ــ لعلك لا ترفض ان تتناول شيئا معنا؟

ــ ان هذا لمما يسرنى، ولكن ليس فى وسعى ان أبقى هنا وقتا طويلا.. اننى مضطر الى ان استأنف رحلتى

وأحضر الساقى عدة زجاجات من الشمبانيا. وأخذ ابن أخ انجلهارت يقوم بتقديم الجميع: « الأمير اوبولنسكى، نيكولاس بانيف، منصوروف. أيها السادة! ان أمير الشعراء ليس فى حاجة الى تقديم!». وسأل أوبولنسكى الشاعر: «هل أكون كمن يحاول ان يكشف سرا لو سألتك الى أين انت ذاهب؟». فتجهم وجه بوشكين وقال: « لا سر هناك.. فأنا عائد الى منزل أبى فى مقاطعة بسكوف»

كان بوشكين يبدو حزينا، منشغل الفكر. وكان يتكلم قليلا ويشرب كثيرا. وما لبثت الخمر أن بعثت اللون الأحمر الى خديه، فبدا عليه الانتعاش. وما وافت الساعة العاشرة، حتى كان الجميع قد سكروا وتوطدت بينهم صلات المودة. وكان الليل قد أقبل، حاملا معه مزيدا من الصراحة فى القول! وقال منصوروف ــ الذى كان مصابا بالفواق (الزغطة): «اذن فهذا المجرم فورونتسوف قد نفاك من أوديسا! ولكن لماذا لم تتحداه وتطلبه للمبارزة؟». فابتسم بوشكين ابتسامة ألم.. كانت الخمر قد جعلته أميل الى الحزن. وقال لهم:

ــ منذ سنوات قلائل أخبرتنى احدى المتنبئات بالحظ أننى

سأموت على يد رجل أشقر ، أو اذا صح تعبيرى هذا ، بسبب حصان أبيض . وفورنتسوف ليس رجلا أشقر فحسب ، بل وحيوان أيضا ! ومن هذا ترون أنه كان لابد لى أن أتخذ حيطتى !

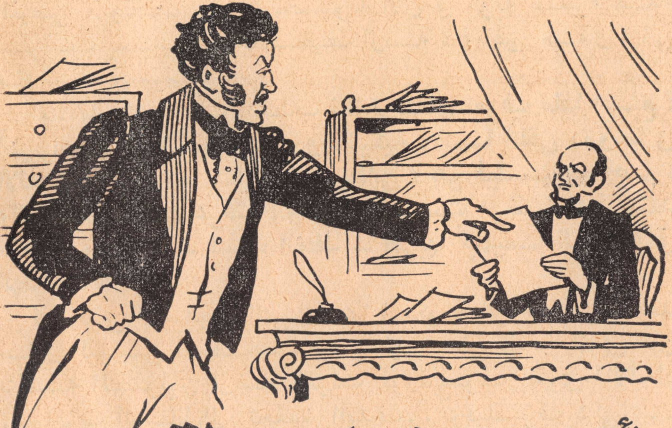
وتأوه اوبولنسكى ثم قال : « يا له من عهد أسود ! أن القيصر يفصل بوشكين بدعوى سوء سلوكه ، ثم يجعل من أراكشيف كونتا مع انه أقذر مجرم فى الدولة ! يا للزمن ! يا للأخلاق ! » . فصاح بوشكين : « أوبولنسكى ! انك تتفوه بكلمات ذهبية ! لماذا لاتسكر دائما ؟ » . واقترح الشباب ان يعدوا لبوشكين حماما من الشمبانيا تكريما له . ولكن الشاعر كان فى عجلة .. واخرج من جيبه ورقة قرأ مافيها لاصدقائه : « يجب أن يذهب مساعد مراقب الضرائب بوشكين الى منزل والده فى مقاطعة بسكوف ، مارا بنيكولايف واليزافر تجارد وكريمنشوج ، دون ان يتوقف فى أى مكان » ! .. وان هى الا دقائق ، حتى كان بوشكين فى عربته التى انطلقت به لفورها ، والشمس على وشك البزوغ !.. وبدد وقع حوافر الجياد افكاره وجعله يميل للنعاس . ها هو من جديد فى الطريق .. ها هو يجد نفسه منفيا من جديد ! وفى هذه المرة ، ليس ما ينتظره هو الجنوب الغريب ، بل انه ريف الشمال ، الذى يتلقاه .. ذلك الأقليم المستوى ، المتماثل ، الذى يصطبغ باللون الرمادى فى الصيف ، وباللون الأبيض فى الشتاء .. ولكن ، الى متى تطول اقامته هناك ؟ هذا ما لايعرفه . لقد تم كل شىء بسرعة ، كما لو كان عاصفة ! لم تكن تهمه كثيرا مسألة حذف اسمه من قائمة أسماء موظفى وزارة الخارجية ، فان قصائده الشعرية كانت تدر عليه ايرادا كافيا . وكان فيازيمسكى — الذى أخذ على عاتقه نشر قصيدته «نافورة الباكشى سراى» — قد أرسل اليه ثلاثة آلاف روبل .. ثلاثة آف روبل ؟ انه مبلغ يزيد على ما كسبه خلال السنوات الأربع التى عمل خلالها فى خدمة

القيصر . ولكنهم سوف يحبسونه الآن فى قرية صغيرة عدة سنوات ، بسبب خطاب سخيف أرسله ، فى غير حذر ، الى صديق له فى موسكو .

لقد قال له فى ذلك الخطاب : **« تريد أن تعرف ماذا أصنع ؟ اننى أقرض أبيات قصيدة رومانتيكية ، كما أتلقى دروسا فى الالحاد . اذ يوجد هنا رجل بريطانى ، هو فيلسوف أصم ، ولكنه أذكى ملحد عرفته ! والوسيلة ليست مرضية كما يعتقد البعض ، ولكنها - لسوء الحظ - أقربها جميعا الى تحقيق الهدف ! »**

لقد نسى الأساليب التى تتبعها الحكومة الروسية .. فقد صادر البوليس الخطاب ، وعثر فيه على العذر الذى كان يتلمسه المسئولون ارضاء للكونت فورنتسوف القوى: «الالحاد ..وأقرب الوسائل الى تحقيق الهدف.. وفيلسوف ذكى!» .. ان هذه الأشياء تكفى لارسال رجل الى سيبريا ! ولكن الحكومة اكتفت مع ذلك ، لشدة رحمتها، بنفيه الى اقطاعية والديه..

وتذكر دموع اليزابيث . يا للمخلوق الجميل ! .. لقد أعطته - عندما افترقا - خاتما عليه بعض نقوش عبرية ، وقالت له وهى تبتسم : « انه طلسم ! لن تكون فيه حمايتك من الموت ، ولكنه سوف يحميك من كل عهود الحب التى لاتصدر عن القلب »



أنشودة الرعاة

- ١ -

• - **يا ملاكي !** هل لك ان تغيرى هذه المنشفة ؟

قالها سيرجي لفوفيتش وهو يتـأوه . وكان مستلقيا على فراشه وقد ارتدى كل ملابسـه ، وغطى وجهـه بقطعة من القماش تنبعث منهـا رائحة الخل النفـاذة . . كان سيرجي لفوفيتش يتـألم من الصـداع ، كمـا يحدث للممثلة الأولى (البريمادونا) . وهذا ما كان يحدث له كلما وجه اليه ابنه الأكبر كلمة !

وأقبلت نادزدا الى جانب زوجها فوضعت يدها على جبهته، ثم قالت له بالفرنسية: « هدىء روعك يا صديقى ، أرجوك! » وأمسك سيرجي لفوفيتش باليد الحانية العاطفة وقبلها . .

فانه ما كان لينسى الأدب ، حتى فى ساعات مرضه! ثم عاد الى التألم فى شهقة لو سمعتها الممثلة المشهورة «مدموازيل جورج» لحسدته عليها ! وقال بصوت المحتضر : **« سوف نترك هذا المنزل . ان واجبى كأب يدعونى الى ابعاد اولادى الآخرين عن تأثير هذا الشيطان .. هذا الابن غير الطبيعى ! »** . ورفع يده الى جبهته، وأخذ يستنزل قطرة من الدمع، مظهرا كل أعراض اليأس المطلق ! كان يمر بتجربة .. نعم ! فانه لم يكن مضطرا الى ان يستقبل ابنا منفيا جر العار على الأسرة كلها — وبالأخص عليه هو : سيرجى لفوفيتش — فحسب ، بل كان عليه أن يحتمل أيضا صمته ، ونظراته الباردة ، وتأنيبه ! نعم ، تأنيبه، لأن سيرجى لفوفيتش كان قد نصح كلا من ليون واولجا بأن يبتعدا عن هذا الشيطان الذى نفى بسبب الالحاد !

لا شك أن سيرجى لفوفيتش نفسه كان ضالا ، اذ كان مفكرا حرا ، ماسونيا ... ولكن شتان بين هذا وبين الالحاد . بل — علاوة على هذا — الاعتراف بالالحاد فى خطاب ! .. ومع ذلك فقد فتح ذراعيه لهذا الأبن غير الطبيعى .. لهذا المذنب ؟ **وفضلا عن ذلك فان ايواء شخص ، كانت الحكومة تعتبره غير مرغوب فيه ، لم يكن أمرا يخلو من الخطر . فقد كان ألكسندر موضوعا تحت رقابة دائمة .. بل لقد ذهب ولاة الأمور الى حد ان اقترحوا أن يتولى سيرجى لفوفيتش هذه المهمة الدقيقة بنفسه .. فانه لم يكن مشبوها، أو منفيا، أو ملحدا ، بل كان مواطنا صالحا .. رب عائلة !**

وقد قبل المهمة ، وتعهد بملاحظة ابنه ، للعمل من أجل صالحه . ألم يكن من حقه ؟ بل ألم يكن من واجبه ان يفتح خطاباته ؟ فهل يكون هذا سببا يدعو ألكسندر الى الانفجار غضبا فى حجرته ، والى ان ينهال عليه تأنيبا ، ويسبب له هذا الصداع الذى يشكو منه ؟ آه ، ان الاولاد مخلوقات عاقة !

وكان شهر اكتوبر على وشك الانتهاء ، وقد أخذ الهواء ـ في الجو الداكن ـ يطارد السحب الممزقة الهائمة . كان هذا هو الوحى ، فأخذ بوشكين يسهر الليالى ، مع قطعة من الورق ، ومع ذلك الصديق القديم الذى يعتمد عليه : القلم !.. ولكن أفكاره كانت مشتتة ، قاتمة .. كان مصابا بمرض عصرى ، هو : **الحقد !**

وغادرسيرجى لفوفيتش(سانت بطرسبرج) مصطحبااسرته، وقد التف فى معطفه ، وفى وقاره ، وفى يأسه ! وتبعته الأسرة . **وبقى ألكسندر ومعه مربيته العجوز ، ومخطوطاته ، وأسفه ، وذكرياته !..** وكانت (ميخائيلوفسكو) قرية تعسة، ليس فيها كنيسة واحدة . وكان منزل والده طويلا ، واطئا ، مصنوعا من الخشب ، ذا طابق واحد ، ويتكون اثاثه من الموائد العرجاء والأسرة الآيلة للسقوط ، والمقاعد ذات المسند الواحد ! وكان الشاعر ينام على احدى الأرائك ، ويكتب على مائدة لعب ، ويضع الحبر فى اناء من اوانى المربى . وفى هذا الاناء ولدت أروع قطع الأدب الروسى . وكانت الحجرات الوحيدة التى تتعرض للتدفئة فى المنزل هى حجرته وحجرة مربيته «نيانيا»!

على ان بوشكين كان مفتوح الشهية ـ الى حد عظيم ـ للحرية ، للحركة ، للسفر ! ففى مكان ما من العالم، كانت هناك باريس ولندن وايطاليا ! كانت هناك مسارح ، ومصانع ، وبرلمانات ، ومشارب ، ومتاحف ، وصحف ، ومراكب تدور بالبخار وتعبر المحيطات دون الاستعانة بالشراع . أما هنا ، فقد كانت الحياة تسير فى تثاقل وبطء ، كما كانت الحال تحت حكم القيصر بطرس ،وكما كانت فى عهد «ايفان» الرهيب : **كانت طبقة الأرقاء تكد فى العمل فى الأرض ، وتسير وراء المحراث الخشبى . أما طبقة الأشراف ، فكانت ترقص ، وتتشدق بالحديث باللغة الفرنسية ، وتقرأ مؤلفات جان جاك روسو . وكانت السيدات يرفعن أصابعهن الصغيرة وهن**

يتحدثن عن الحب الافلاطونى ، وعن حقوق العاطفة ، ولكن لو سرقت الخادم من احداهن منديلا فانها ، أى الخادم ، كانت تتعرض لعشرين جلدة من سوط جلدى يغمس فى الصمغ !

* * *

• **وكان** الكسندر يستيقظ متأخرا ويعمل فى فراشه ، ثم ينطلق على جواده ، فلا يعود قبل الساعة الثالثة . وكانت هذه الساعة هى بداية المساء الطويل الذى لاينتهى ! وكانت الساعة الدقاقة القديمة تنبىء عن الزمن بدقاتها ، وكأنها مصابة بالسعال ، كما كان الخشب يحدث صوتا وهو يحترق فى المدفأة . أما هو فكان يحدق النظر طويلا الى النار ، وهو يردد بصوت منخفض نغما لروسينى ، حتى يبدو له أنه يرى لهبا خضراء فى كل مكان ..

كان بيرون قد مات فى سبيل حرية اليونان ، وأقام بوشكين قداسا على روحه ! ولكنه ـ فى قرارة نفسه ـ كان قد تحرر من بيرون ، كما شعر منذ خمس سنوات سابقة انه قد كبر على فولتير ! أما شكسبير ..؟ لقد كتب بوشكين عنه قائلا : « اننى بعد أن أقرأ شكسبير أشعر برأسي يدور ، وأحس كأننى أنظر من اعلى الى هوة سوداء مرعبة ! »

وتحرك مبتعدا عن الهوة وذهنه يحترق ، فأخذ يشتغل فى تأليف «بوريس جودينوف» .. وهى مأساة شعرية استمدها من التاريخ الروسى ، وقد وصل فيها الى الذروة ، بما ضمنها من اهمال لقواعد الدراما القديمة ، ومن ثروة فى الموضوع ، ومن تصوير حقيقى للشخصيات ، ومن شعر ممتزج باللغة ، حتى ليبدو كل هذا من صنع شكسبير !.. كانت روحه مثل الاناء الممتلىء ، ما تكاد تلمسه حتى يفيض منه النغم فينسكب من قلمه فى شكل شعر بديع . وكان قد أتم قصيدته القصصية «الغجر» ، ونقل اليها ذكرياته عن امرأة أحبها مدة قصيرة ، ومن



« يوشكين يودع البحر » !.. لوحة رائعة اشترك فى رسمها الفنانان « ريبين » ، و « ايفازوبسكى »

أجلهـا قضى بضعة ايام فى الطـريق مع فريق مرح مبعثر من اهل بسارابيا الرومانيين . **ومع ذلك فقـد نسيت عشـيقته المتوحشـة نزهاتهما فى المراعى ، وقـد تشابكت يداهما تحت القمر .. فهجرته !**

أما « تاتيـانا » ، فكانت قصيدة غريبـة سـاحرة ، ملأى بالابتسام وبالتشعب عن الموضوع الأصلى ، وبالاعترافات التى تبدو وكأنها همسات يختلط فيها ابطال الروايات مع الأحياء ! كانت لغتـه وأسلوبه النقى الطاهر قـد ازدادا ثروة ـ بعـد اتصـاله بشكسبير ـ دون أن يفقـدا شيئا من أصـولهما الجوهرية الجميلة ، واختفى من شعره أبولو وجوبيتر ، كمـا اختفت الحوريات وكيوبيد . . اختفى من شـعره كل هـذا التهريج المسرحى ، بعد ان كان الشعراء ، منذ عهـد النهضة ، قد استنفدوه . لقد كان شعرا فى حالة النقاء ، خاليا من كل غبار أرضى ، يكاد يكون هندسيا فى كماله !

* * *

• **ودفع الباب ، ودخل الى المنزل ، فانساب معـه بعض الضباب الذى تكاثف فى الخارج . واتجه مسرعا الى النافذة .. انه لا يرى شيئا غير هذا الضباب السخيف ! لاشك ان الأمر يتطلب ايمانا خارقا حتى يصدق أن هناك شمسا وراء هـذه السماء الداكنة التى كانت تجثم فوق العالم !!**

وتثاءب ، ثم اتجه نحو المرآة ، انه لايزال كما هو : نحيفا ، مجعد الشعر ، يمكن بسهولة أن ينفجر ضاحكا فى أى وقت . وكان قد ترك شعر فوديه ينمو ـ طبقا لمقتضيات « موضة » العصر ـ فكان الاثنان أشبه بالاطار لوجهه الشـاحب . وكان يقص أظافره بزاوية ، وقد استطال ظفر أصبعه الخامسة الى درجة أنه صنع له درعا صغيرة من الذهب ليحميه بها ، مما كان يثير دهشة الفلاحين ! .. وسمع طرقا متهيبا على الباب ،

فصاح : « ادخل ! » . وفتحت فتاة الباب .

كان منذ أيام قليلة ـ اذ لم يجد شيئا أفضل من هذا يصنعه ـ قد دخل الى الحجرة التى تقوم فيها الفلاحات بغزل الصوف تحت رقابة مربيته ، فاستوقفته عند باب هذه الحجرة رائحة نفاذة من العرق .. كانت النوافذ مغلقة ، وكانت هناك عشر نساء يشتغلن بهمة فى الحجرة . **ووقفت المشتغلات بالغزل ، وانحنت كل منهن حتى خصرها ، فكأنها انكسرت الى نصفين ، احتراما له ! كن فتيات كبيرات الأجسام ، حمر الوجوه ، وقد أثرت الشمس والهواء فى شعرهن ، وكادت رموش عيونهن ان تختفى .** وكان على وشك أن يغادر الحجرة عندما وقع نظره على رأس محنى ، وعنق ناعم ، وخصلات من الشعر الأصفر . ووقف يسألها : « ما اسمك ! » . فرفعت اليه الفتاة عينين زرقاوين كانتا تسبحان فى بحر من الخجل . وانتشرت موجة حمراء على عنقها ، وخديها ، وجبهتها . كانت ـ كفلاحة ـ ذات وجه وسيم ! واجابت المربية : « اولجا ! ان اسمها اولجا .. أولجا ألكسندر سيرجيفتش . ماذا أصابك يا فتاة ؟ هل أصبت بالبكم ؟ أليس فى وسعك أن تردى على البارون ؟ » . كانت تقف أمامه ، وقد بدا شكلها قبيحا بتلك المرولة ذات الخصر المرتفع ، التى اعتاد الفلاحون ارتداءها ، وقد تدلت ذراعاها ، وانعقد المنديل تحت ذقنها الجميل . وقال « تعالى يا اولجا ! اجلسى ! لاتخافى ! » .. فجلست على حافة الأريكة ، وقد نكست عينيها ، فرأى ـ من وراء منديلها ـ ذلك العنق الناعم الذى استرعى انتباهه ، وجذور الشعر الأصفر الذى جمع بين ألوان القش وضوء الشمس والعسل . ونظر الى صدرها ، وكان الثديان قد بدآ فى النمو بشكل يبشر بأنهما سوف يستديران ويتكوران . وكانت تتنفس بسرعة ـ ولكن فى خفة ـ كما لو كانت خائفة من أن تستنشق نفسا عميقا ! .. امرأة ؟ !

وجلس بجانبها ، وأمسك بيدها الحارة المرتعشة ، فلاحظ خشونة فى أصابعها بسبب وخزات الابر التى كانت تعمل بها . . ومع ذلك فقد طبع قبلة على تلك اليد ! وسرت رعدة فى ذلك الجسم الكبير الدافىء . وتمتم قائلا بلطف : « أولجا » . ولأول مرة ، تجاسرت على أن ترفع عينيها ، فوجدته قريبا منها ، فى غاية الرقة ، وفى غاية الاختلاف . . كأنه كان ينتسب الى جنس آخر ! . . كانت فى السادسة عشرة من عمرها . وكان المصير المحزن للفلاحات الروسيات يحدد لها مستقبلا لا غموض فيه : حمل مستمر ، وعمل مضن تحت شمس يوليه ، ونقل الحبوب الى الطاحونة رغم العبء الذى تحمله فى بطنها . وبعد عشر سنوات فقط ، تصبح امرأة عجوزا !

ونظرت – خفية – الى ذلك الجسم الصغير الرشيق ،



رسم خطه بوشكين بريشته على مسودة قصيدته المشهورة « الفجر »

الجالس بجانبها .. لقد كان الشبان الذين يسعون وراءها لاجتذابها ـ فى القرية ـ ضخام الأجسام ، حمر الوجوه ، لهم شعر قذر فى لون القش ، وأيد مربعة الشكل ! . أما هو فكان نحيلا ، شاحب الوجه ، مجعد الشعر ، لامع الأظافر ، أحمر الفم . وكانت ملابسه الضيقة تحدد ردفيه كما لو كان انثى !

« أولجا » ! لم يسبق أن تحدث اليها أحد بمثل هذا الصوت العميق ، المليء بالعطف والحنان . **ورفعت اليه عينيها ، وقد تجلت فيهما نظرة اعجاب يصل الى حد العبادة .. نظرة ملأى بالاستسلام الذى يشبه استسلام الحيوان .. وفوق ذلك ، كانت تحمل معنى الغفران مقدما لكل ما قد يحدث !** ووضع يده على صدرها الحار . كما لو كان سيدها ، بل كما لو كان عشيقها !

* * *

• « **عزيزى** فيازيمسكى : انك تمسك لسانك ، وأنا أمسك لسانى .. ومن الخير أن نمسك جميعا ألسنتنا .. فسوف يأتى اليوم الذى يمكن أن نتحدث فيه كما نهوى ، أما الآن فهناك مسألة أخرى !

« ستحمل اليك هذا الخطاب فتاة لطيفة جدا ، طيبة جدا ، صيرها أحد أصدقائك ـ بدون حذر ـ حاملا ! اننى اعتمد على انسانيتك وعلى صداقتك . وأرجو أن تجد لها مأوى فى موسكو .. واعطها من النقود ما تحتاج اليه ، وارسلها بعد ذلك الى (بولدينيو) . وانت تجد مع خطابى من المادة ما يكفى ليملأ مجلدا كاملا ـ بأسلوب زوخوفسكى ـ عن البابا ! ولكن ليس هناك ما يدعو الى ان تعرف الأجيال القادمة مغامراتنا المخجلة !

« والآن ، ارجوك أن ترعى الطفل الذى ستلده الفتاة بحب أبوى حقيقى ، اذا جاء ولدا ، اذ لا أريد ان يرسل الى بيت

من بيوت الأيتام . ألا يمكن ارساله الى الريف، الى (اوستافيفو) مثلا ؟.. أجب فى تفصيل »

- ٢ -

- **آنى !** آنى ! أين أنت ؟ ان بوشكين هنا !

وأسرعت آنى تعدو الى المرآة ، وأخذت تنظم الشعر المنسدل على وجهها ، ثم أمسكت برواية فرنسية ، وتمددت على الأريكة . كان يجب أن يراها فى هذا الوضع العاطفى ، المسترخى ، نصف النائم ، وفى يدها الرواية الفرنسية « الأميرة دى كليف » . ولكنه تلكأ فى الحديقة ..وكانت تسمع صوت ضحكه ، وصوت شقيقتها « ايفبراكسيا » - وقد كانوا يطلقون عليها زيزى - التى كانت فى الرابعة عشرة من عمرها، وقد بدأت تبدو عليها مظاهر الفتنة. وحاولت آنى أن تحافظ على هدوئها ، حتى لا يختل نظام شعرها .. وأحست بجمرة الانفعال تنتشر على عنقها وعلى خديها ، وكأن الحمرة التى تكسوها لم تكن كافية !

كانت قد بلغت الرابعة والعشرين ولم تتزوج بعد ..وكانت مستديرة الوجه ، حزينة العينين . وظلت ترتدى أثوابا ذات خصر مرتفع، مع أنه كان يقال انها لم تعد تتمشى مع «الموضة».. وكانت هذه الأثواب تبرز صدرها بشكل غير عادى . وكانت فتاة عاطفية ، كثيرا ما تبكى وهى تقرأ الروايات الغرامية . **وكان من بواعث سرورها أن تصبح عشيقة بوشكين ، مع أن الناس كانوا يقولون ان له علاقة غرامية بفتاة من طبقة العبيد !..**

كانت قبلاتهما المتبادلة هى اللعبة الصغيرة التى يخرج منها الاثنان وقد احمر وجهاهما واختل نظام شعرهما ، وكانت هذه القبلات هى مظهر الحب المتبادل الذى يقبله منهما العالم، بل ويلتمس لهما العذر فيه . ولكنها كانت تريد أن تتألم من أجله ،وبسببه! كانت تريد أن تضحى بنفسها تضحية كاملة ،

وأن تسلم نفسها تسليما كاملا ، مع انها كانت — فى قرارة نفسها — تدرك تماما أنه لا يهتم بها اهتماما جديا ، وان مايصاب به من سأم كان السبب الوحيد الذى جعله يوليها تلك الدقائق القليلة من الاهتمام التى كانت تحتفظ بها كأثمن ذكرياتها !

كان الاخلاص والصبر والدموع والخضوع .. كل ذلك كان يرهقه . كان يحب من المرأة ان تكون لعوبا ، ذكية ، مرحة ، ترغب فى ارضائه !

كانت زيزى .. أختها الصغيرة — تلك الشيطانة التى لم تتعد الرابعة عشرة من عمرها ، بخصرها الرفيع ، وصدرها الناهد — كانت مبعث سرور أعظم لنفسه ، بألاعيبها ووقاحتها وصدها وصغارها ! كانت جميع نظرات وكلمات وعناية الشاعر الكبير — الذى كان ما يزال فى السادسة والعشرين — تتجه الى زيزى ، فى حين أهمل أختها الكبرى ، المكتملة النمو ، التى تركت باحتقار فى ركن من أركان حجرة الجلوس . كان يعبث فى الحديقة مع زيزى ، ولن يلبث ان يتناول الشاى — الذى ستعده له — فى الشرفة ، ونيتى ، ابنة عمهما ، تعزف قطعة موسيقية لروسينى .. أما هى ، فستظل ساكنة فى ركنها ، تحس بالتعاسة ، لأنها لم تحظ بشاعرها لنفسها ، ولو بضع دقائق ! .. لا فائدة من البقاء هناك على تلك الأريكة القديمة ، متظاهرة بقراءة الرواية الفرنسية . وبحكم العادة ، التفتت الى نفسها فى المرآة ، فبدا وجهها ممتلئا أكثر من أى وقت آخر .. كان النظام الذى اختارته لتصفيف شعرها لا يناسبها !

لو حظيت فقط بفرص أكثر تسمح لها باسترعاء نظره ؟ !

ولكن (تريجورسكو) — وهى الضيعة التى تملكها أسرتها ولا تبعد كثيرا عن منزل بوشكين — كانت مجمعا لكل شباب الجهات المجاورة . وكان معظم الشباب من الفتيات وبنات العم

وكانت لآنى عدة منافسات : ايفبراكسيا ، ونيتى ، وابنة العم « براسكوفيا » التى كانوا يطلقون عليها بولين ! كانت كل واحدة

منهن تدعى لنفسها شيئا من رعايته . حتى والدتها نفسها ـ التى كان حبها الأموى لجارها الذى لا يزال فى السادسة والعشرين من عمره يخفى وراءه عاطفة أعمق ! ـ لم تتمكن من مقاومة أساليبه الرقيقة وملامحه الذكية ! .. كانت آنى ترقب ـ بغريزة المرأة الغيور ـ كيف كانت والدتها تستغل الى أبعد حد ، حقها الأموى فى أن تدس يدها بين خصلات شعر بوشكين الأسود ، لتعبث بها . ولقد كانت خطاباتها الى بوشكين تحوى شيئا اكثر من الصداقة البريئة الهادئة ، التى تربط امرأة بشاب يصغرها ، اذ تقول له : « ياابن قلبى !اننى أقبل هاتين العينين الجميلتين الزرقاوين .. عينيك اللتين أحبهما كثيرا ! » .. لقد كان فى وسعها أن تخدع زيزى وألكسندرا ، بل وبوشكين نفسه .. ولكن لم يكن فى مقدورها ان تخدع آنى ! كانت الفتاة تعرف ان امها تحب بوشكين !

* * *

• **وفى** ذات يوم ، اقبل على قصر «تريجورسكور» ، كعادته طيلة العام الذى قضاه فى منفاه .. وسمع صوت ماريا ـ صغرى بنات مسز أوسيبوف ـ وهى تصيح : « ها هو بوشكين ! » . ثم سارعت اليه تقول : « ان والدتى فى حجرة الجلوس .. فعندنا ضيوف ! » .

ودخل فرفع قبعته عن رأسه ، ثم انحنى . وكانت آنى تصب شايا خفيفا يتصاعد منه البخار . وعلى مقربة من المائدة ، رأى امرأة لم يعرف من هى .. ولكن ، أين سبق له أن رأى هذا الوجه الجميل ؟ .. وقالت مسز اوسيبوف : « آنا .. دعينى أقدم لك بوشكين ! لقد كان من حسن حظنا أن نسعد به كجار لنا ! ياعزيزى بوشكين ، اسمح لى أن أقدم لك ابنة اخى : مسز كيرن » .. وانحنى فى صمت ، بل فى شىء من الخجل ، كما كان يحدث له دائما عند ما يشعر بالتأثر

لشيء ما . كان للمرأة الصغيرة شعر أصفر ، ولم تكن تصففه بتلك الطريقة المنتفخة التى كانت تمليها «الموضة» ، بل جعلت منه اطارا بسيطا لوجهها الجميل وعينيها الرماديتين .. ومرت عينا ألكسندر بسرعة على صدر متناسب وردفين عريضين . واصغى اليها : كانت نبرات صوتها خفيضة حارة . لا بد أنها تغنى غناء جميلا ! وقالت له : « لقد تقابلنا قبل الآن فى مكان آخر يا مسيو بوشكين . آه ! لقد تذكرت . كان ذلك فى منزل آل أولنين ، فى سانت بطرسبرج ، منذ خمس سنوات أو ست ! اننى أتذكر الآن تماما .. لقد كنا نقدم ألغازا تمثيلية لاستنباط شخصيات منها ! » . فقال بوشكين : « وكنت تمثلين دور كليوبترا ياسيدتى ، وهو دور تقمصه شخصك .. »

وعندما انصرف أخيرا ، لم تعبأ بوخزات بنات عمها اللائى ساءهن ان يقع شاعرهن فى هوى امرأة غريبة ، بل مكثت فى مكانها تحلم .. فقد كانت طبيعتها عاطفية ، أعدت للحب والأمومة . كان الأمبراطور ألكسندر ، الذى راقصها خلال رحلة قام بها الى الأقاليم ، قد قارنها بالملكة لويز ! وعندما بلغت السادسة عشرة ، أضطرت الى أن تتزوج من الجنرال كيرن .. وكان رجلا فى الأربعين ، قاسيا ، غليظا ، جاهلا . وشعرت بجرح فى قلبها ، فانطوت على نفسها ، ولكن ظل قلبها اليائس ، كما ظلت حواسها المتعطشة ، تطلب الحب الذى لم تعرفه . كان لها عشاق استطاعوا أن يحيدوا بها عن الطريق القويم ، من الناحية المادية ، دون أن يصلوا الى اثارة قوتها على الحب . وعلى الرغم من يأسها وتبدد أملها ، استمرت تبحث — بين الرجال — عن ذلك الذى يمكنه فى النهاية أن يكشف حقيقتها لنفسها .. على ان كل أبواب المجتمع — تقريبا — كانت مغلقة فى وجهها .. وكان عمرها اذ ذاك ثمانية وعشرين عاما

* * *

• **كان** المساء على وشك الفناء فى شبه ضوء شفاف تغمره رائحة أوراق الأشجار . ومن وقت لآخر ، كان يسمع صوت عصفور ادركه النوم فأخذ صوته فى الخفوت تدريجيا . كان الشهر شهر يونيو ، وهو موسم « الليالى البيضـاء » ، التى يتبع فيها الفجر المساء بعد ساعات قليلة غير واضحة المعالم . ولم تكن المصابيح فى منزل تريجورسكو قد أضيئت بعد حتى لا تجتذب اليها الناموس ..

كانت المناقشة ــ فى بادىء الأمر ــ قد تناولت الأدب والسياسة والأرواح ، وأخيرا ــ كما هى العادة ــ اتجهت نحو الحب . وبحث الموجودون فى موضوع الزواج ، والحب الأفلاطونى ، وحقوق العاطفة . وكان بوشكين فى حالة حسنة، فأخذت النساء يصغين اليه وهن مسحورات ، كأنهن العصافير أمام الأفعى ! وكانت مسز كيرن تصغى اليه وكأنه يتحدث اليها هى ، من فوق رؤوس الأخريات !

وفجأة قطع حديثه قائلا : « سيداتى ! ان المساء على وشك الانتهاء ، ولذلك فاننى أقترح أن نختتمه فى منزلى . ان مسز كيرن لم تزر قصر ميخائيلوفسكو قبل الآن ، وأود أن أريها اياه ! » . وصاحت زيزى وقد سرها أن تعفى من الذهاب الى الفراش : « نعم ! نعم ! نعم يا ماما .. مرى باعداد العربة حتى تتنزه فى ضوء القمر ! »

وتمتمت آنا وهى تلقى برأسها الى الخلف وتحدق النظر فى السماء : « انظروا .. انظروا الى القمـر ! » . كان الضوء الروحانى ، المنتشر فى هـذه « الليلة البيضـاء » ، يلقى على وجهها ــ بشفتيه الحساستين ــ ظلا شاحبا ! ووضع بوشكين يده حول خصرها . كان يشعر بأن كل شىء مباح ، فى هـذا العالم الليلى الذى كان يبدو وكأنه غير حقيقى فى ضوء القمر !..

وتمتم قائلا وهو يبتسم : « القمر سخيف ! » .. فسألته فى دهشة : « ولماذا ؟ »

ـ اننى لا أحب القمر الا اذا أضاء وجها جميلا !

اما آنى ، التى كانت تنهشها الغيرة ، فقد بقيت ساكنة فى ركن من العربة . ولكن ما أهمية آنى لبوشكين ؟ ! فلأول مرة ـ خلال الشهر الذى قضته آنا فى تريجورسكو ـ ينفرد بهذا المخلوق البديع ! ان آنى لا تدخل فى حسابه ! .. وطلب من السائق أن يسرع ، لتكون عربته فى المقدمة . وأخيرا ظهرت (ميخائيلو فسكو) ،يغمرها الضوء الأبيض الشاحب ،وتحددها أوراق الأشجار القاتمة . ومد بوشكين يده يساعد السيدات على النزول ، وأسرعت نيانيا تحمل المصابيح ، واحضرت الخادمات المقاعد ، وفتحت الحجرات المغلقة ..

وقالت نيتى : «تعال يا بوشكين . . نريد أن نرى حديقتك!» . وقدم بوشكين ذراعه الى مسز كيرن ليسندها وهى تصعد السلم ، وتبعتهما السيدات الأخريات . وكان ألكسندر يعدو كالتلميذ ، وهو يقود ضيوفه فى ممرات الحديقة التى كانت تسدها أوراق الأشجار . أما هى ، فكانت تستند اليه بكليتها ، وتميل اليه ، وتسلم نفسها .

قال لها : « هل تذكرين أول مرة رأيتك فيها عند آل أولنين ؟ » .. فأجابت : « نعم ! وكنت أنت لا تحتمل ! »

ـ نعم لأننى كنت أود أن أسترعى بعض انتباهك ! ومع ذلك فانك لم ترفعى عينيك عن ذلك السمج كريلوف !

ـ لقد كنت أمثل دور كليوبترا ، فجئت أنت وأثرت غضب ابن عمى ، اذ قلت : « لا شك ان هذا السيد سيقوم بدور الأفعى ! »

ـ لقد كانت الغيرة هى التى تتكلم !

فابتسمت وهى تقول له : « وكانت تبدو عليك التعاسة ، وانت تقف عند المدخل وتتبعنى بنظراتك ! »

ولم تعد أصوات السيدات تصل اليهما .. كن قد دخلن جميعا المنزل ، أما هما فكانا يسيران وحدهما فى المتنزه الهادىء القديم ، تحت الأشجار الباسقة . وفجأة ، تعثرت «آنا» وكادت تسقط ، فأمسكها بوشكين بين ذراعيه وضمها الى صدره لحظة .. وأحس بجسمها الدافىء - من خلال ملابسه الصيفية الرقيقة - وشعر بالنشوة وهو يشتم رائحتها النسوية الجميلة القوية . وعندما تخلصت منه - فى غير خجل ! - انحنى على الأرض والتقط شيئا . فقالت له : «ماذا تصنع ؟ »

- اننى ألتقط الحجر الذى تعثرت فيه ! اننى أريد أن أحتفظ به !

* * *

• **كان** السفر الى (ريجا) رحلة شاقة ، وكانت وسيلة السفر الوحيدة هى عربة البريد ، التى كان يصعب على المرء ان يجد فيها موطئا لقدميه بين سلال المسافرين . وكنت تصل الى محطة استبدال الجياد منهك القوى ، متوجع الظهر ، كأنك قد سرت على قدميك المسافة كلها ! وكنت بعد أن تتناول وجبة باردة من الطعام ، تشترك فى الفراش مع جيش من الحشرات !.. كانت مسز اوسيبوف تتحرك فى قلق ، وآنى تقف فى الحديقة وقد امتلأت عيناها بالدموع . كانت تنتظر قدوم بوشكين لكى يودعها ، ولم يكن قد حضر بعد . وكانت والدتها قد اضطرتها الى السفر اضطرارا ، بدافع الغيرة ، حتى لاتتركها وحدها مع ألكسندر لتدخل السرور الى نفسه ، أو على الأقل لكى تخفف من حياة السأم التى كان يعيشها ! .. وكانت مسز كيرن تنظر نحو الباب فى صبر نافد .. كانت هى الأخرى تنتظر بوشكين ! وأخيرا ، يسمعن وقع قدميه وصوت

عصاه المعدنية . كان قد جاء راجلا وقد بدا شارد الفكر !

وقال موجها الحديث الى مسز كيرن - وهو يسلمها لفافة تضم بعض الأوراق : « لقد أحضرت لك شيئا .. تذكارا ! » . وعندما رآها تحاول ان تفض اللفافة ، استطرد يقول مندفعا : « لا تقرئيها الآن ! » .. وامسكت « آنى » بيده ، محاولة ان تجتذب انتباهه ، وهى تكاد تبكى . ولكنه استطرد مخاطبا آنا : **« فراق آخر ! انه ليذكرنى بآخر مقابلة لنا فى سانت بطرسبرج .. اذ ذاك رأيتك وأنت تركبين العربة ، ثم تختفين عن حياتى وقتا طويلا جدا ! يبدو أننا قد خلقنا لنلتقى ثم لنفترق توا بعد اللقاء ! »** .. واخذ الهواء يعبث بخصلات شعره ، وقد احنى رأسه ، وأرخى ذراعيه ، حتى لقد نسى ان يساعد آنى عند ركوبها العربة .. كان عاجزا عن اخفاء حزنه !

وركبت آنا ، فأمسك السائق بالعنان . وأخذت المرأة تلوح له بيدها ، التى كانت فى القفاز ، وقد امسكت منديلا . وقبل أن ينحنى الطريق وتختفى العربة ، أطلت من النافذة وألقت نظرة أخيرة على ذلك القوام النحيل ، ثم فضت هدية بوشكين ، وكانت عبارة عن فقرة من قصيدته « اويجين اونيجين » - وقد نقلت دون تغيير ، بخط بديع - وقصيدة مهداة الى ا . ب . كيرن :

« انني لأذكر اللحظة القدسية التى ظهرت فيها أمامى
« مثل رؤيا هائمة .. مثل روح الجمال النقى !

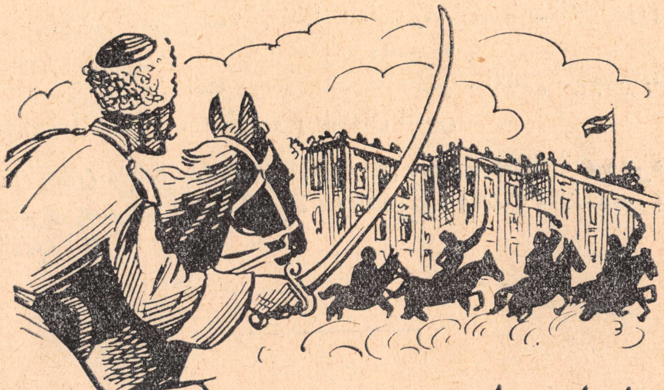
« وظللت مدة طويلة بعد ذلك ، خلال الآلام والاحزان . خلال زخرف الحياة الصاخب .. ظللت أسمع فى أحلامى صوتا رقيقا ، وأرى وجها جميلا !

« ومرت السنوات ، وجرفت الزوابع احلامى الماضية
« فنسيت صوتك الرقيق ، ووجهك السماوى !

« ومرت أيامى ببطء فى ظلال النفى وغمار نسيانه : دون رب ، وبغير دموع .. دون شعر ، وبغير حب !

« ولكن ، استيقظت روحى فجأة ، فظهرت أمامى من جديد ، مثل رؤيا هائمة .. مثل روح الجمال النقى

« والآن ، يدق قلبى مرة أخرى فى سعادة دافقة ، ومرة أخرى يعرف القلب الحياة ، والدموع ، والله ، والشعر ، والحب ! »



الملحمة

- ١ -

• في يوم أول سبتمبر ١٨٢٥ ، غادر الامبراطور ألكسندر سانت بطرسبرج ، متجها الى جنوب روسيا .. وقد فسر ذلك الانتقال بأنه يرجع الى صحة الامبراطورة اليزابيث . ولكن الحقيقة هى أن ألكسندر كان يريد الهرب من عاصمته . وكان أراكشيف ، الذى وضعه فى منصب رئيس الوزراء ، يصرف أمور الدولة العاجلة أثناء غيابه المتكرر ، بل ويحكم بدلا منه . ولم تكن صحة القيصر حسنة ، بل كان يشعر باقتراب الموت . وتملك الذعر المحيطين به ، بسبب لونه الباهت كالشمع ، وتورم وجهه الذى كان جميلا . وكان حب الناس له قد قل كثيرا عما كان عليه فى الماضى ، ولم يعد هو الملاك أو البطل أو الرجل الذى غزا باريس ! كان الناس يكرهونه ، وكان

اتهامه بمقتل والده يزداد رسوخا يوما بعد يوم!.. وكان الرخاء الذى غمر البلاد فى عام ١٨١١ قد مهد لأزمة اقتصادية طويلة. كذلك كره الناس سياسة ألكسندر الخارجية، وقالوا ان انتصاراته الأولى قد أثرت فى سلامة تفكيره، حتى انه كان يعتبر نفسه أكبر ملك فى العالم، ومنح نفسه لقب «امبراطور أوروبا»! كما اتهمه خصومه باهمال روسيا وكراهية كل ما هو روسى!.. **أما الجيش .. الجيش الذى أراد أن يجعل منه حصنا للعرش .. أداة يعزز بها قوته، فقد كان يكلفه كثيرا، ولم يكن فى الامكان الاعتماد عليه. ولم تكن ذكرى الحملة الفرنسية قد تلاشت من الأذهان بعد، رغم انقضاء عشر سنوات. كان الجنود قد استنشقوا عبير الحرية، واقتنعت عقولهم بأنهم وجدوا لخدمة الوطن لا لخدمة الامبراطور!**

وكان الامبراطور يعرف انه مهدد بالقتل، وان القدر لا يشاء ان يتركه يموت فى هدوء، اذ كان بلا وريث، كما ان أخاه قسطنطين تزوج - زواجا مدنيا - من سيدة بولندية، ونزل سرا عن حقه فى العرش لشقيقهما نيكولاس، الذى كان بغيضا لدى الجيش.. فكيف تتقبل الدولة النبأ؟.. على ان ألكسندر لم يلبث أن توفى فى ١٩ نوفمبر، فأفلت **من تلك الميتة التقليدية التى كانت تنتهى بها حياة قيصر روسيا، وهى مقتله بيد فرد من أفراد الأسرة!..** وحلت الفوضى فى القصر، وحاول المسئولون تفادى «الحكم بالانابة»، فقرروا ألا يبقى العرش خاليا، ولو ليوم واحد.. واخذ الكونت ميلورادوفيتش، حاكم سانت بطرسبرج العام، فى التهديد والوعيد: «ان الجيش ينتظر كى يقسم يمين الولاء للامبراطور قسطنطين، فاذا تولى الغراندوق نيكولاس العرش، فاننى لا يمكن أن أكون مسئولا عن رجالى!».. وهكذا بدأ حكم قسطنطين الأول، وضربت العملة باسمه، ونشرت مئات الالوف من صورته بسرعة.



صورة لبوشكين فى سن الثلاثين بريشة الرسام « ريبين » ، نقلها فى سنة
١٩١٣ عن لوحة زيتية للفنان « تروبينين » ، المعاصر لبوشكين

أما هو - الامبراطور - فلم يعثر عليه فى أى مكان ! وظن البعض أنه فى (تاجانروج) ، اى فى طريقه الى العاصمة، ولكن الحقيقة انه لم يتحرك من وارسو . لقد كان سعيدا هناك الى جانب كلابه، وخليلاته ، وأطفاله، وجنوده . وكان يمتلىء غضبا اذا وجه أحد اليه الحديث بقوله: «ياصاحب الجلالة!» .. كان قد غسل يديه نهائيا من الموضوع ! .. فتبوأ نيكولاس العرش !

وانتهت مرحلة رفع الستار .. وبدأت المأساة !

★ ★ ★

• **كانت** المعارضة فى كل مكان . . كان السخط يعم الجميع : العبيد ، والجنود الذين كان الواحد منهم يقضى خمسة وعشرين عاما فى الثكنات، والتجار الذين كانوا يعانون من آثار الأزمة الاقتصادية ، والنبلاء الذين كانوا يبيعون خبزهم بخسارة ، والصناع الذين كانوا لايجدون رأس المال لتنمية صناعاتهم !.. ولكن هذا السخط العام ، الذى كان يمكن ان يولد الثورة ، لم يولد شيئا سوى الشعور المر ! لم تكن المعارضة منظمة ، ولم يكن لها قائد . وكانت جماعة « اتحاد الفضيلة » ضعيفة ، غير منظمة ، منقسمة على نفسها : كان القسم الجنوبى يتكون من اليعقوبيين ، الذين كانوا يريدون جمهورية ديمقراطية تقوم على أساس المساواة. أما القسم الشمالى فكان لايطلب أكثر من الغاء الرقيق واقامة ملكية دستورية . وعلى كاهل هذا القسم الشمالى المتخاذل، الضعيف ، وقع عبء قيادة الثورة . وادرك المتآمرون أن اللحظة مواتية ، فان العرش كان خاليا منذ ثلاثة اسابيع. وكان نيكولاس مكروها بسبب آرائه الرجعية ، ولذلك لم يكن فى موقف يحسد عليه .. وكانت اثارة الجيش أيسر السبل مادام قد أقسم يمين الولاء لقسطنطين .. فانه ان عادليقسم

يمين الولاء لنيكولاس ، فسيبدو هذا نوعا من الحنث بالقسم !

ولكنها كانت حفنة من صغار الضباط فقط ، تخرجوا جميعا فى الكلية الامبراطورية بتسارسكو سيلو ، ولا يمكن ان يدعى أحدهم أنه يملك قياد فرقة بأكملها . وكان أحسن من فيهم من الحالمين ،وأسوأهم من المتفاخرين المتبجحين ! .. **ولكن أكبر مواضع ضعفهم هو انهم كانوا من الثوار الذين يخافون الثورة ! وكان شعارهم هو شعار الطغاة الأذكياء : لأجل الشعب ، ولكن بغير الشعب . فقد كانوا يتشككون الى حد ما فى الشعب !**

ففى فجر يوم ١٤ ديسمبر ، غادر سبعمائة جندى من حامية موسكو ثكناتهم ، وهم يحملون أعلامهم ، وكان يقودهم ضابطان ممن اشتركوا فى المؤامرة. وساروا الى ميدان مجلس الشيوخ ، حيث كانوا على موعد مع الفرق الثائرة الأخرى ، لكى يمنعوا مجلس الشيوخ من ان يقسم يمين الولاء ، ثم يسير الجميع الى القصر الملكى ليجبروا نيكولاس على التنازل عن العرش ، ويحصلوا على دستور حر ، على ان يعقب ذلك الغاء الرقيق . ولكنهم وجدوا الميدان خاليا : فلا بوليس ، ولا جنود ، ولا حلفاء ، ولا أعداء ! ووجدوا نوافذ مجلس الشيوخ حالكة الظلام .. فقد أقسم الأعضاء يمين الولاء فى الليل! وهكذا فشل أول بند فى البرنامج !

وقاد الضباط رجالهم حتى أصبحوا يواجهون المبانى التى تحيط بالميدان ، وأخذوا ينتظرون فى البرد . . وكانت الريح تعصف بأعلامهم ، كما تجمدت أقدامهم . ومن وقت لآخر ، كان الضباط يأمرون رجالهم بأن يصيحوا: « فليسقط نيكولاس! فليحى قسطنطين ! فليحى الدستور ! » . . وبدأ الميدان يمتلىء بالناس الذين كانوا يعطفون على المتمردين ، والذين أخذوا يرددون بعض صيحات التشجيع . ووصل

قواد الثورة ، ولما رأوا أن عدد الجنود غير كاف ، انصرفوا للبحث عن امدادات أخرى . ولم يعد بعضهم بعد ذلك، لا عن جبن وانما عن يأس ! وبدا كأن كل شيء قد ضاع . مع انه لم يكن قد بدأ بعد !

وبعد ساعات وصلت فرقة أخرى من المشاة وانضمت الى الثوار . ووصل بعد ذلك رجال البحرية ، وقد تمكن من كسبهم للثورة اثنان من الضباط . وفي نفس الوقت ، قرر نيكولاس أن يحشد جميع القوات التي ظلت موالية له ، ثم طوق بها الثوار تطويقا كاملا . وكان الطرفان ينتظران اوامر لا ترد اليهم ، وكان كل فريق يتساءل : هل يطلق النار على « زملائه » ؟ **فقد كان جنود القيصر لا يشعرون باية كراهية نحو الثوار الذين كانوا يرتدون نفس الزى الرسمى الذى يرتدونه هم !** .. وكان الثوار كبيري الأمل في انتنضم الفرق الموالية للقيصر اليهم .. كما كان نيكولاس كبير الأمل في ان يعرض الثوار التسليم . ولكنه أحس فيالنهاية أن عدم الحركة يعرض الموقف للخطر . فقد كان منالواضح أن حشود الاهالى تزداد تأييدا للمتمردين ، وأخذ العمال الذين كانوا يقومون ببناء كاتدرائية « سان جيمس » يلقون قوالب الطوب وقطع الأخشاب على الفرق الموالية للقيصر ! ..

وحرضوه على أن يقضى على الفتنة ، فصاح : « اطلقوا النار ! » .. ولكن احدا لم يجبه . وقفز احد الضباط الى الأرض ، ثم أسرع الىالمدفعي وسأله : « لماذا لاتطلق النار ؟ » . فأجاب الجندي وهو يبكي :

ـ انهم اخواننا يا صاحب السعادة !

وصفعه الضابط ، ثم أوقد الشعلة ، وأطلق النار . ولكنه كان قد صوب الى هدف عال ، فانطلقتالقنبلة لتصيب نوافذ الطابق الثاني من مجلس الشيوخ ! .. على ان تصويب الطلقة الثانية كان أفضل من الأولى . **فقد انقسمت صفوف الثوار**

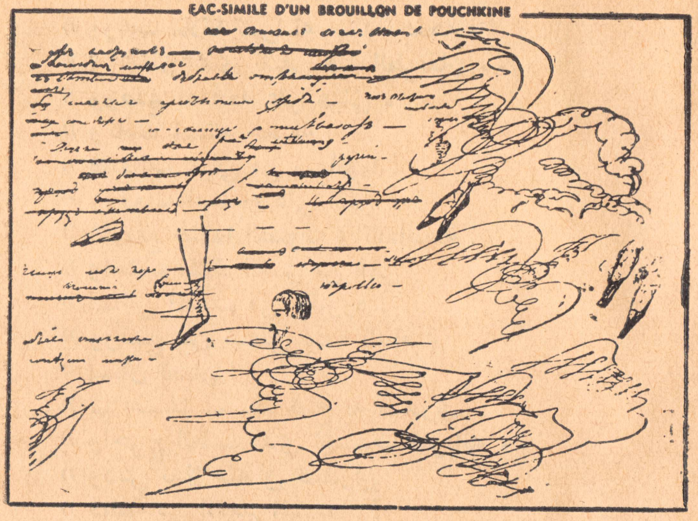
وأخذوا فى الهرب . انهم لم يكونوا على استعداد لقنابل المدفعية ، فتفرقوا الى كل اتجاه ، وتجمع أغلبهم على أرصفة نهر النيفا الذى تجمدت مياهه ، وحاولوا عبوره . وتساقطت القنابل حولهم ، فأخذت تكسر الثلوج وتذيبها .. وغرق كثيرون منهم !

وهكذا قضى على أول ثورة روسية !

- ٢ -

• **كان** بوشكين يشعر بالتعاسة ، والقلق ، واضطراب الأعصاب . لم يكن فى وسعه أن يعمل ، وكثيرا ما كان يقوم فى أثناء الليل ، ويأخذ فى التفكير فى زملائه القتلى .. فى ريليف ، وموراڤيف ، وكاكهوفسكى . وبستزوزيف ، وليستيل الذين شنقوا فى وحشية فظيعة ، نتيجة الثورة . فاذا لم يسعفه الشعر ، رسم على هامش الورق - بقلمه وبطريقة آلية - ولكنه لم يكن يرسم رؤوس وسيقان نساء ، بل كان يرسم مشنقة وقد علقت عليها أجسام خمسة من الرجال . وأخذت الصورة تتبلور فى قلمه شيئا فشيئا ، كما لو كانت قد أصبحت شبحا يلازمه ، أو فكرة تتسلط عليه وليس فى امكانه الخلاص منها .. هو ايضا قد يلقى نفس المصير !

لقد مات من مات ، ولكن السجن لمائة وواحد وعشرين من زملائه كان أمرا فظيعا . لقد اشترك جميع زملائه تقريبا فى المؤامرة ، وقبض على عدد من أصدقائه - أثناء الدراسة - فى ميدان مجلس الشيوخ ، كانوا على رأس القوات الثائرة . وكان على معرفة شخصية بكل واحد من المشنوقين ! .. وكان يحس من حوله بفراغ كبير .. وكان موقفه متناقضا الى درجة خطيرة ، اذ أنقذه النفى من الاشتراك الفعلى فى المؤامرة . **ولكنه كان فى الواقع ، ودون ان يعرف ، هو المحرض الأصلى لأبطال ثورة ديسمبر .. فقد كانت قصائده تتلى فى اجتماعاتهم لاثارة حماسهم . وتردد اسمه أكثر من مرة فى أثناء المحاكمة !**



« عينـــة » من مسودات قصائد بوشكين ، وقـد عبثت فيها ريشــته ببعض الرســوم

وفى هذه الظروف ، كان فعـل أى شيء خيرا من جموده الاضطرارى .. فقد كان يعيش فى انتظار المتاعب ، وكان هذا الانتظار للمتاعب أسوأ من وقوعها فعلا . وكان قد أحرق مذكراته ، وبضع مئات من الخطابات ، وكمية من الشعر ..

ولم يبق من « النبى » ـ تلك القصيدة التى كانت فى صلابة قطعة من الماس ، وفى روعة الكتب المنزلة ! ـ لم يبق منها غير أبيات قليلة ، ولكن .. اى أبيات :

« كنت ظمآن الروح فى غمار الظلام

« فأخذت أتعثر فى صحراء غير آهلة

« ورأيت ملاكا كبيرا له ستة أجنحة ،
« فى المكان الذى يلتقى فيه الطريقان ..
« ووضع أصابعه على عينى ،
« وكانت لمسته خفيفة
« فأيقظت عينى من سباتهما !
« ووقعت أصابعه على أذنى
« فارتفع فيهما الصوت ، كالعاصفة !
« واجتث الملاك الكبير من فمى
« لسانى المذنب من جذوره !
« ووضع بين شفتى بيده الدامية
« لسان ثعبان !
« ثم أمسك بسيف فتح به صدرى
« وأخرج القلب الذى اشتدت ضرباته ..
« ودس بدلا منه فى صدرى
« قطعة من الفحم المشتعل !
« وبقيت فى الصحراء ، ملقى
« كحجر لا حياة فيه ، حتى سمعت صوت الله :
« ألا قم واستيقظ أيها النبى
« وانظر واسمع ، وطعم روحك بارادتى
« فلتجب البحار الداكنة ، والطرق المظلمة
« وأحرق قلوب الناس بهذه : بكلمتى » !

ولكن ما رآه « النبى » لم يعرفه قط انسان ! .. عرفته فقط ألسنة النار التى اندلعت فى الأوراق التى سجل فيها القصيدة .. فى (ميخائيلو فسكو) !



المهزلة

- ١ -

• كان الامبراطور رائق المزاج ، فمنذ أيام قليلة توج فى الحصن القديم الذى كان يملكه القياصرة .. حصن الكرملين ذى الجدران البيضاء والأسقف المذهبة . وكانت حفلات التتويج ما تزال مستمرة ، وموسكو تستمتع بخريف مشمس ، وقد ارتفع الضجيج ونشطت الحركة . وكانت قد مضت مدة طويلة مذ رأى الناس تتويجا عظيما حاشدا كهذا . كان الامبراطور نفسه قد أراده كذلك . وكانت هديته لأمته فى الاحتفال بتتويجه ، هى شنقه خمسة رجال ، وارساله مائة وواحدوعشرين الى سيبريا !.. والآن ، وقد استقر على عرشه ، فانه كان فى حاجة الى القيام بلفتة من لفتات الرحمة ، ولكنه لم يكن يريد ان تكلفه كثيرا .. هذه اللفتة ! وتذكر شخصا عثر

على شعره بين أوراق أبطال ثورة ديسمبر . لقد انقضت عليه ست سنوات فى المنفى ، وكان من نتيجة هذا انه لم يشترك اشتراكا فعليا فى المؤامرة .. فهو مذنب وغير مذنب فى وقت واحد ! ان استدعاء بوشكين ستكون له فوائد كثيرة .. فانه سيجعل المثقفين والنساء يؤيدون النظام ! والى جانب هذا ، فليس ثمة ضرر فى ان يكون الى جانبه شاعر كبير .

ولما عرفت نية الامبراطور ، قالت احدى سيدات البلاط : « ان فى نيتى أن أوطد علاقتى بالقيصر .. فقد قرر استدعاء بوشكين ! » . ونقلت اليه تلك الملاحظة فى الحال ، فكتب الى حاكم بسكوف مصدرا أمره باحضار بوشكين ، المحترم ، الى موسكو ! ولم ينس دقته التى اشتهر بها ، فكتب ملاحظة فى ذيل الخطاب جاء بها : « ان هذا الشخص يجب أن يسافر فى حراسة رسول ، على الا يعامل معاملة سجين » . ثم اصدر أمره الى رئيس الحراس : « احضر بوشكين الى جناحى بمجرد وصوله »

- ٢ -

• **وقف** القيصر نيكولاس بجانب المدفأة التاريخية فى حجرة مكتبه ، والنار المشتعلة تنعكس على وجهه .. وكما كانت الحال دائما ، كان هناك شيء ميت فى النظرات المنبعثة من عينيه الرماديتين . وكان يقف وقفة جامدة ، كما لو كان لوحة مرسومة داخل اطارها . ودخل الحاجب معلنا : « المؤلف بوشكين ! » .. وعندما دخل الشاعر تظاهر الامبراطور بالنظر فى اتجاه آخر

كان بوشكين قد قطع فى ثلاثة ايام مسافة تستغرق فى العادة ستة أيام . وطلب أن يسمح له بأن يحلق ذقنه ، وأن يزيل الغبار عن ملابسه ، وأن يريح أعضاءه ، فكان الجواب : « فيما بعد ! »

كان هذا هو ثالث عضو من أسرة رومانوف يقابله بوشكين .. كان الأول قد نزع قبعته عن رأسه ، وكان الثانى قد طارده

ست سنوات كاملة ثم أرسله الى المنفى بسبب بضع كلمات وردت فى خطاب له . . فمـاذا يفعل الثالث به ؟ واخيرا ، قطع القيصر حبل الصمت ، فقال : « صباح الخير يا بوشكين . أظن انك اكثر من سعيد بسبب عودتك ؟ » . ورفع بوشكين حاجبيه بحركة غريزية . لقد كانت هذه أول مرة يرى فيها القيصر ، ولذلك فانه لم يكن يتوقع أن يتحـدث اليه بهذه اللهجة الأليفة ! . وانحنى باحترام ، فأشار اليه نيكولاس بالتقدم . ثم وجه اليه الحديث قائلا : « لقد أرسلك أخى الى المنفى ، ولم يكن هذا دون سبب . ولكننى أسامحك وأعيد اليك حريتك ، وارجو ان تحسن استعمالها فى هذه المرة ! » . وأحس بضرورة اظهار مزيد من العطف نحو الشاعر ، فما لبث أن أمسك بذراعه ، فى غير كلفة ، وأخذ يسير الى جانبه ذهابا وجيئة فى الحجرة . وقال له كأنه يكشف له عن سر : « بينى وبينك .. دعنى أقول لك انك ارتكبت الكفاية من الأعمال الجنونية . ان للشباب انطلاقه ، وأنا أعرف ذلك . ولكنى أرجو أن تثوب الى رشدك منذ الآن ، وألا يحدث بيننا شىء ! »

وقال بوشكين : « ان هذا يسعدنى كثيرا يا مولاى ! »

ومد القيصر يده الـكبيرة الباردة البيضاء ، فوضع فيها بوشكين يده الصغيرة الحارة . وكان هناك سؤال يتحرق شوقا للخروج من بين شفتى نيكولاس ، منذ أول المقابلة . وأخيرا ، قرر الامبراطور أن يلقى به : « قل لى : ماذا كنت تصنع لو قدر لك أن تكون فى موسكو ، فى اليوم الرابع عشر من ديسمبر ؟ » . فقال بوشكين فى غير تردد : **« ان جميع أصدقائى اشتركوا فى المؤامرة يا مولاى ، فلم يكن بد من أن أشترك مع زملائى . ان غيابى فقط هو الذى أنقذنى ! »** . وأحس بعد هذا الجواب ان من الضرورى ان يدخل عليه تعديلا بسيطا ، فاستطرد قائلا : « وأنا الآن مسرور لذلك ! »

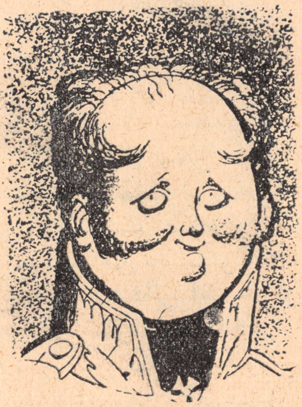
وابتسم القيصر وهو يسمع هذا الجواب .. فقد أحس

بالرضى والاضطراب معا ! أحس بالرضى لاخلاص بوشكين فى جوابه ، وأحس بالاضطراب لأنه فى أعماق قلبه كان يتمنى أن يسمع جوابا غير هذا ! لم يكن فى وسعه أن يفهم لماذا ثار هذا العدد الكبير من الناس فى وجه سلطته الشرعية . ووضع يده داخل معطفه مما جعله يبدو كنابليون ! ثم سأل بوشكين : « ماذا تكتب الآن ؟ »

– لا شىء يا مولاى .. ان الرقابة شديدة جدا !

– حسنا ! اذا ضايقتك الرقابة فسأكون أنا رقيبك ! احضر لى كل ما تكتب ، وأنا الذى سأجيز طبعه ونشره !

ولأول مرة منذ بدأت المقابلة أضاء وجه بوشكين المضنى . وصاح قائلا : « شكرا لك يا مولاى .. ان هذا تصرف ملكى فعلا ! » . واكفهر وجه نيكولاس .. **فان هذا الشاعر الصغير يسمح لنفسه بأن يحكم على ما هو ملكى وما هو غير ملكى ؟**



القيصر الكسندر الاول كما رسمه « بوشكين » بريشته !



رسم كاريكاتورى بريشة «بوشكين» يمثل الاسقف «تيتو»

ووجه نظراته النفاذة الى بوشكين : ترى أهى وقاحة ، أم هو جهل بقواعد آداب اللياقة ؟.. وكان بوشكين يدفىء قدميه المثلجتين ، وقد أدار ظهره للمدفأة . ومرت الفكرة ، فى شىء من النهم والشراهة ، بعقل نيكولاس : فما عليه الا ان يبدى اشارة صغيرة حتى يلحق بوشكين بزملائه فى سيبيريا !.. ولكنه تمالك نفسه.. فقد كان فى وسعه، مثل شقيقه، ان ينافق!..وقال وهو يمسك بذراع الشاعر : « والآن هيا بنا لنعلن هذه الأخبار الحسنة ! »

وغادرا الحجرة وهما يسيران جنبا الى جنب : بوشكين بقامته النحيلة القصيرة ، والقيصر بقامته الطويلة المربعة وشكله المسرحى . ووقف القيصر على عتبة الحجرة المجاورة وألقى نظرة الى الجمع المحتشد من رجال البلاط الذى كان يملأها ، ثم ردد القول : « أيها السادة ! هذا هو بوشكين الجديد .. بوشكينى أنا ! »

- ٣ -

• **كان** صالون الأميرة فولكونسكى الأبيض المذهب عبارة عن فرساى روسية صغيرة ، يتلقى فيها أشهر رجال الدولة آخر شهادة تؤيد استحقاقهم للشهرة ! وكان الصالون مركزا للحياة الفنية والراقية . وكان ضيوف الأميرة يغنون ويمثلون الروايات ويتـــذوقون ما كانت الأميرة تطلق عليه « لذائذ الذهن » !.. وكان المتوقع أن يظهر ألكسندر فى هذا المعبد

ولكن كل ذلك لم يعد يطربه . كان مما يدخل السرور الى نفسه،بعد عودته من ميخائيلوفسكو ، ان يرى النظارات المقربة وقد تركزت على مقعده بمجرد أن يدخل المسرح . لقد أسكرته الشهرة كما لو كان قد شرب خمرا قوية .. ولكن هذا النوع من السكر كان له ايضا صباحه ! **وكـذلك سره فى بادىء الأمر مديح الأميرة فولكونسكى ، وذلك « البخور » الذى كان يحرق**

من حوله . ولكنه الآن كان قد بدأ يمله ، كما أخذ يمل كل شيء . فانه ، بالنسبة للأميرة فولكونسكى وبالنسبة لكل مضيفة أخرى ممن كن يوجهن اليه الدعوة لكى يشرفهن بحضوره ــ لم يكن أكثر من ((نمرة !)) من نمر البرنامج !

وكانت الأميرة قد أخذت تتقدم للقائه ، وقد برزت كتفاها العاريتان . وقالت له بالفرنسية: «آه .. ها أنت ذا يا ألكسندر! أخيرا جئت ! ترى ماذا أحضرت لنا من نتاج عبقريتك الأخير ؟ » .

كان عند زينايدا فولكونسكى الكثير من كل شيء : ثروة كبيرة ، وجمال مفرط ، وذكاء شديد ! وكانت عيناها الزرقاوان واسعتين ، كما كان جسمها ممتلئا ، وصوتها رنانا . كانت تدفعك الى أن تقول لها : « كفى ، ولا ضرورة للمزيد ! » .

واستوقف ألكسندر حاجبا كان يمر بجانبه ، ثم أخذ منه كأسا من الشمبانيا ، واستند الى الباب . لقد أحب هذه الأضواء مدة طويلة ، حيث كانت أصوات المناقشة تختلط بأصوات الموسيقى ، ومع وقع الأقدام فى رقصة « المازوركا » ، ومع الفضائح والأسرار التى تتبادلها النساء من خلف المراوح المرصعة بالماس .. انه جو الحفلات الراقصة الذى أحس بأنه حرم منه طوال سنوات النفى . ولكنه الآن قد بدأ يسأمه .. شعر بالضيق وهو يرى النساء يضحكن ويتهامسن ، وهن يقتربن منه بملابسهن الهفهافة . . وكان لهن جميعا أزواج وأشقاء وأصدقاء شنقوا أو أرسل بهم الى المنفى أو السجن !

ولقد سارعت الأسر ــ بعد هزيمة فتنة ديسمبر ــ الى خيانة أبنائها من أبطال هذه الثورة وانصارها ، بل والوشاية بهم . وكان التنافس شديدا على من يفوق غيره فى درجة الخيانة والنذالة !.. وفى اليوم الذى قبض فيه على الثائر فولكونسكى ، شقيق زينايدا ، وأرسل الى سيبيريا ، بعد أن حلقوا له رأسه كالمجرمين .. فى هذا اليوم افتتحت والدته ــ الأميرة فولكونسكى ــ الحفلة الراقصة التى أقيمت فى المسرح الامبراطورى ، بمخاصرة الامبراطور والرقص معه !



قصة الغرام

- ١ -

• **قبل** أن يدخل بوشكين الى صالة الرقص ، توقف أمام المرآة وأخذ يزيد من نعومة شعره ويعنى بهندامه . وكان يرتدى سترة ضيقة الخصر ، ويبدو عليه أنه تقدم فى السن .. كما كان الاعياء ظاهرا على وجهه . كان متعبا .. كان متعبا من المراقص ، ومن الليالى التى كان لا ينام فيها ليقضيها كلها فى المقامرة بكتب لم يؤلفها بعد ! وكان متعبا من رقابة البوليس وتجسسه عليه ، ومن شتائم الصحافة ، واطراء سيدات الصالونات، وخيانة العشيقات . لقد كان يظن نفسه سجينا فى قصر ميخائيلوفسكو ، ولكن .. هنا كان السجن الحقيقى !
وكانت « بوريس جودينوف » - أول مسرحية روسية

جديرة بالمسرح العالمى ـ ما تزال مدفونة فى أحد أدراج مكتبه ولا أمل عنده فى نشرها . وكان « الرقيب » الخطير الشأن ـ الذى عرضت عليه شخصيا ـ قد كتب على هامش مخطوطها العبارة التالية : « أعتقد أن الهدف الذى يسعى اليه المؤلف يمكن تحقيقه لو أنه حول مسرحيته الهزلية الى صورة تاريخية ، أو رواية يكتبها بأسلوب والتر سكوت ، بعد ان يدخل عليها التنقيح اللازم » !.. **وبهذه الطريقة ، كان القيصر يباشر حقه فى الرقابة على أعمال بوشكين الأدبية . ولكن الجدير بالذكر أن نيكولاس لم يكلف نفسه عناء قراءة « المسرحية الهزلية » . أما التعليق الذى كان يدل على ذوق أدبى رفيع ، فكان صاحبه هو الجنرال « بيكندروف » ، رئيس البوليس !**

وهكذا تحرر من الرقابة الرسمية ـ التى كانت على أية حال ذات صلة بالأدب ، رغم افتقارها للذكاء ـ ليقع تحت رقابة البوليس المباشرة . البوليس ؟ انه لا يمكن أن يطلق شيئا مما يقع تحت يده ! فلم يكن فى وسع ألكسندر أن يغادر سانت بطرسبرج لأربع وعشرين ساعة دون أن يتلقى خطابا شديدا من « بيكندورف » ، يعنفه فيه ، كأنه ما زال تلميذا ! لقد كان مرتبطا بالمكان الذى يقيم فيه كما لو كان عبدا .. ومرت به أوقات خيل اليه فيها أن رحمة القيصر الجديد كانت أثقل على نفسه من اضطهاد القيصر القديم !

وأخيرا ، استقر رأيه على الدخول الى قاعة الرقص .. وكان الحرج الذى سببه حضور القيصر والقيصرة قد زال ، اذ انصرف الاول الى مراقصة سيدة من اجمل نساء موسكو ، بينما كانت القيصرة تراقص سيدا بدينا ! .. ووقف بوشكين فى احد الأركان ، فاقتربت منه الأميرة تروبتسكوى .

وتبعت عيناها عينيه وهما تستقران على امرأة صغيرة الحجم كانت تقف على يمين الامبراطور . كانت فتاة صغيرة جدا ، تكاد تكون طفلة ! وكان ثوبها الأبيض ، يكشف عن عنق

جميل وكتفين رقيقتـين لفتاة مراهقة ، كما أن مشـدها كان يبرز صدرا ناهدا ، وخصرا نحيفا .. اما الباقى فقد ضاع فى وسط الملابس!.. كان لها وجه جميل أشبه بوجه «المادونا» .. وكأنه لايمت لهذا العالم بصلة ،لمـا هو عليـه من كمال ! .. وهمست الأميرة فى أذن بوشكين قائلة : « انك تتطلع الى ابنتنا نتاليا .. انها حقا جديرة باعجاب شاعر . انها نحيفة بعض الشىء ، ولكن هذا سيتغير ! » . ثم استطردت بنغمة المرأة التى كانت يوما ما جميلة : « لابد أن أقدمك اليها .. **لقد خلق كل منكما للآخر : فأنت اول شعرائنا الرومانتيكيين ، وهى فتاتنا الوحيدة ذات الجمال الرومانتيكى الـكامل !** » . ولم يرد على تحيتها اذ أنه لم يقو على الانتظار وانتقل فورا الى الفتاة .

ـ يا ابنتى العزيزة : يسعدنى أن أقدم لك شاعرنا الوطنى الكبير : المسيو الكسندر بوشكين . يامسيو بوشكين : هذه هى الآنسة ناتاليا جونشاروف

وأدارت الفتاة عنقها الجميل فى رشاقة البجعة وتريثها ، ونظرت اليه بعينين سوداوين رطبتين ، ثم أحنت رأسها فى خجل ، ودون ابتسام . وكان واضحا أن اسم بوشكين كان يعنى شيئا بالنسبة لها !

وكانت كل لحظة تمر تشعر بوشكين بأنه يزداد ارتباطا بالوجه الصغير .. وجه « المادونا » الفلورنسية . وشعر بعجزه عن أن يحول عينيه ، وقد سحره الجمال ! ولم يعد يهمه شىء فى الحياة غير هاتين الشفتين غير الباسمتين ، وتلك الجبهة الناعمة ، والعينين الجذابتين . وتوقفت المقارنات السامية ـ كالزهرة والطائر والنجم ـ قبل أن تخرج من بين شفتيه ، وهو يشهد هذا الكمال الانسانى !.. وأخيرا ، قرر أن يطلبها للرقص معه ، فقدمت له يدها بتعبير يدل على الدهشة ويتفق مع شفتيها المنفرجتين . وأحس بوشكين .. بوشكين الذى لا يقاوم ، بوشكين المغرى ، بوشكين صاحب المائة عشيقة ..



لوحة تاريخية تمثل الأميرة « ماريا فولكونسكى » فى شبابها ، يوم كانت تدعى « ماريا رافيسكى » (أنظر ص ٦٥)

كازانوفا الجديد الذى كانت النساء تتناقل أخبار مغامراته فى ذعر لذيذ ... أحس بالاضطراب عندما شعر بخد ناعم قريب الى درجة كبيرة من شفتيه ، وبأنه يعانق جسما لم يعد قوامه البديع قوام فتاة صغيرة ، كما أنه لم يصبح بعد قوام امرأة ناضجة !

وقبل ان تنتهى السهرة اتخذ لنفسه قرارا : **ففى اليوم التالى سوف يتقدم ليطلب يد ناتاليا جونشاروف رسميا . فماذا تهم حريته ، وحياته المغامرة ، اذا قورنت بالاستحواذ على هذه الفتاة التى لا مثيل لها ، والتى فتنت القيصر نفسه ؟!**

- ٢ -

• فى خلال نصف قرن ، ظلت السفن البريطانية والهولندية تصل الى سانت بطرسبرج لتشترى منها الكتان الخام ، ثم تعود به الى مصانع روتردام وجلاسجو وهامبورج والهافر ، دون ان يفكر احد فى اقامة صناعات محلية ، حتى انشأ ايفان جونشاروف مصنعا للتيل فى (كالوجا) ، وسط حقول الكتان . وكان ايفان يستوحى المصلحة الخاصة عندما حرر العبيد ، حتى لايتكفل بنفقاتهم ورعايتهم عندما يكونون أصغر أو أكبر من ان يعملوا . وما لبث تاجر الأقمشة ان أصبح ، بعد فترة وجيزة ، من اغنى رجال هذه المنطقة !

وعندما مات ايفان ، ترك لخلفائه صناعة منتعشة ، كانت تستهلك كل الكتان الذى يزرع فى هذه المنطقة . وظل الذهب خلال نصف قرن ، يتدفق على خزائن « مصانع التيل » . ولكن الدم الشعبى ما لبث ، بعد ان اختلط بالدم النبيل ، ان أخذ يفقد خواصه ، فضعف وصار أقل كثافة مما كان ! وفقد آل جونشاروف سر جمع الثروة !

وكان ابن حفيد ايفان ـ أفاناسى نيكولايفتش جونشاروف ـ

لوردا كبيرا ، لا يتقن غير حرفة واحدة هى : القاء النقود من النافذة ! وتبديد الذهب الذى صنعته أجيال ثلاثة عن طريق العمل الشاق ـ بانفاقه على الألعاب النارية ، وعلى النساء المحترفات ، وعلى « الطفيليات » ، والخدم . واخذت أملاك الأسرة ، التى كانت فى اتساع الولايات ، تختفى حثيثا ، سدادا لنفقات عشيقات جونشاروف وكلابه وصوره الزيتية وغلمانه

ولم تكن أسرته سعيدة ، فان زوجته ـ وكان اسمها الكونتة ميزان بوشكين قبل الزواج ـ لم تحتمل خياناته ، فهجرته وقد أفقدها الحزن نصف صوابها . ولم يكن يولى ابنه الوحيد نيكولاس الا أقل الاهتمام ، رغم جمال الصبى وخجله وتشبهه بوالدته . ولما بلغ نيكولاس التاسعة عشرة من عمره ، تزوج من احدى وصيفات شرف الامبراطورة اليزابيث ، وكان اسمها ناتاليا زاجريشكى . وكانت ناتاليا فتاة صغيرة رائعة الجمال ، وقد تم الزواج بناء على رغبة الامبراطورة نفسها ، اذ كانت الفتاة قد بدأت تسترعى اهتمام شيقها .. وكان زواجها غير سعيد ، فهل كان فى وسعها ان تتنبأ ، يوم تزوجت جونشاروف ، الثرى الوجيه وارث مصانع التيل ، انها بعد عشرين عاما لن تجد المال الكافى لاصلاح حذاء ابنتها استعدادا لاشتراكها فى أول حفلة راقصة رسمية ؟ هل كان فى وسعها أن تعرف أن تلك الغلالة الرقيقة من الحزن ، التى كانت تنسدل مثل نقاب على عينى زوجها ، لم تكن الا علامة تدل على اصابته بمرض عقلى مرعب ورثه عن أمه المجنونة ؟

ولم يكن أولادها عزاء لها . فان ديمترى ـ الابن الاكبر ـ كان يتلعثم فى الحديث ، كما كان اصم . وكانت كاترين غاية فى الطول والنحافة . أما ألكسندرا فكانت حولاء العينين . ناتاليا وحدها ، ابنتها الصغرى ، كانت جمالا كاملا ! لذلك كان أمرا ضروريا جدا أن تتزوج زواجا لامعا ، حتى تعيد للمنزل القديم ، منزل جونشاروف ، أبهته وعظمته !

وها هى يدها قد طلبت رسميا للزواج . لقد عاشوا عامين فى انتظار هذه اللحظة المباركة ، ومع ذلك لم يكن فى وسع مدام جونشاروف أن تتخذ قرارا فى الموضوع .. فقد قابل الشاب ناتاليا فى حفلة راقصة ، وفى اليوم التالى — تقريبا — جاء الكونت تولستوى ، نائبا عن ألكسندر سيرجيفتش بوشكين ، ليطلب له يد الآنسة ناتاليا جونشاروف

انه كاتب كبير ، ولكنه « عريس » يختلف تمام الاختلاف عما توقعته الأم لابنتها .. انه شىء لم تكن تتوقعه ! وبعد ، فماذا كان هذا البوشكين ؟ انه مؤلف .. رجل يكتب للصحف !

ولكن الأم كانت تفضل ان يكون زوج ابنتها رجل مادة : وزيرا .. حاكما .. أو على الأقل مستشارا !.. هل كان ثريا على الأقل ؟ لقد سمعوا أنه يتقاضى أجرا طيبا على أشعاره ، ولكن هذا كان مصدر ايراد غريب جدا . أما بالنسبة لمركزه ، فمن الخير أن يقتصد فى الحديث عن هذا الأمر ، فلقد كان معروفا أنه موضوع تحت رقابة البوليس .. لأنه كان يعقوبيا من أبطال ديسمبر ، ثوريا ممن تحدثوا بشر عن الامبراطور ألكسندر ! كذلك كانوا يتحدثون عن اتصاله بعدد من العشيقات

ومع ذلك فانها لم تقل لا !.. كان الموسم على وشك الانتهاء ، واذا كان قد أضحى للفتاة معجبون كثيرون الا ان واحدا منهم لم يتقدم رسميا لطلب يدها . ان امرأة فقيرة جميلة كانت تعتبر عبئا لا يقدم على تحمله الا عدد صغير من الشبان . وكذلك فمن الخير ، فى مثل هذه الظروف ، ان يحتفظوا بخطيب «احتياطى» يجدونه فيما لو فشلوا فى العثور على آخر أفضل منه !.. ولذلك فقد أجابت على الطلب — متهربة : « ان ناتاليا صغيرة جدا ، ولذلك يجب ان ننتظر ، وان نتذرع بالصبر ! »

وفى اليوم التالى ، تلقت خطابا غريبا حارا ، علمت منه أن بوشكين قد غادر موسكو الى القوقاز فى الليلة السابقة ، وجاء به : « أجد لزاما علي ان أكتب اليك الآن ، وأنا جاث علي

ركبتى ، ودموع الشكر وعرفان الجميل تنهمر من عينى ، بعد أن جاءنى الكونت تولستوى بالجواب . ان جوابك ليس رفضا، بل انت تسمحين لى بالأمل ! »

أما موضع هذا الاهتمام ، وهى ناتاليا جونشاروف ، فقد استمرت فى حياتها ، كفتاة قابلة للزواج ، لم يكن لها صوت فى الموضوع .. اذ لم تكن يدها أو قلبها شيئا مما يخصها هى

ولما علمت الفتيات بتقدم بوشكين لخطبة ناتاليا ، قالت كاترين شقيقتها الكبرى : « ان هذا لايجوز ، فان كبرى الشقيقات يجب ان تتزوج قبل الصغرى . ومع ذلك فأنا أفضل الزواج من رجل عسكرى بسبب زيه الجميل ! » . وقالت ألكسندرا فى هيئة الحالمة : « وأنا افضل الزواج من شاعر ! »

أما ناتاليا فلم تتكلم .. **فما كان بوشكين يعنى شيئا بالنسبة لها ، اذ لم يسبق لها أن قرأت الشعر . والواقع أن مدام جونشاروف كانت قد حرمت عليها ان تقرأ أى شىء غير «حياة القديسين » و «كتاب الاتيكيت» . ولكنها كانت على استعداد لأن تتزوج من أى انسان ، حتى يمكنها الخروج من منزل والدها !**

- ٣ -

• **فى** يوم ٣١ أغسطس ، كتب بوشكين الى ناتاليا ـ وهو يغادر موسكو ـ قائلا « اننى مسافر الى نيزنى ، وأنا غير واثق من مصيرى . فاذا كانت أمك قد قررت الغاء زواجنا ، واذا كنت تنوين اطاعتها فى ذلك ، فاننى سأعلن موافقتى على جميع المبررات التى تقدمها لهذا العمل ، حتى لو كانت من نوع هذا المنظر الفاضح الذى قدمته أمس ، والاهانات التى يسرها أن توجهها الى دائما ! »

كان قد أحب ناتاليا مدة عامين ، وكانت خطبتهما العاصفة

قد أعلنت منذ ستة أشهر . وكان يعرف أنه لم يكن – فى نظر مدام جونشاروف – صفقة رابحة . وكانت لاتزال مترددة ، فى اعماق نفسها ، فى منحه يدناتاليا . ولكن بلماذا كان يمكن أن تبرر المشاجرات ، والأزمات المالية ، والتأجيل المستمر ؟ لقد تصرفت ناتاليا ايفانوف – الأم – تصرف تاجرة الأعراض، وكانت تلقى فى وجهه باستمرار بكل ما تلتقطه من أخبار تتعلق بموضوعات خسائره فى القمار، وخليلاته ، وقصائده السياسية

وظلت تملأ أذنيه بحديث « جهاز ناتاليا » ، واستحالة ايجاد النقود اللازمة لاتمامه ، والعار الذى يلحق الأسرة اذا تزوجت الفتاة بغير «جهاز» ! وماذا يعنيه هو من هذا ؟ ان كل ما يريد هو ناتاليا ، بدون أى شىء ، ولكن .. على ان يكون ذلك الآن!.. واخيرا !..، وبعد ان خارت قواه وثارت اعصابه، انطلق الى (بولدينو) ، التى كان ابوه قد منحه جزءا منها .

وكان يقضى أياما بأسرها فى الغابات ، ويترك العنان لجواده وهو غارق فى أحلامه ، وأغصان الأشجار تداعب خديه . وتذكر كيف تقدم الى خطبة ناتاليا ، وقد تم ذلك فى اليوم التالى للحفلة الراقصة التى رأى فيها ناتاليا لأول مرة . وبعد يوم واحد من الجواب غير الصريح الذى تلقاه، انطلق الى جبال القوقاز ، اذ ما كان ليحتمل أن يبقى فى موسكو دون أن يكون متأكدا أن الفتاة ستكون له !.. وذهب الى فلاديكوكاسيا وتفليس وأرمينيا ، وزار كل هذه المنطقة الملأى بذكريات فى قدم الانسانية نفسها ، والتى كانت « تنبسط » هناك على سفح جبل أرارات ، حيث استقر نوح بسفينته !

ولكن الرحلة لم تهدىء من الحمى التى كان يشعر بها، فعاد الى موسكو ، ثم أسرع الى آل جونشاروف ، وطلب رؤية ناتاليا التى أقبلت عليه شاحبة اللون ، متحفظة ، وقد أرخت عينيها . وساد بينهما صمت ثقيل ، فما لبث ان هرب من المنزل . وعرف من الصالونات التى كان يتردد عليها ان له

منافسا : الامير ميششرسكى .. كان رجلا ثريا .. اميرا، ولم يكن يكتب للصحف !

ووجد بوشكين ان البرد فى سانت بطرسبرج ـ حين عاد اليها ـ قد اشتد ، بل وجدها أشد كآبة مما كانت . **وكان يقامر ويخسر مبالغ طائلة . ولم تكن تعادل شهرته كشاعر الا شهرته كزئر نساء !**

ولكن على الرغم من كل هذا العبث مع الحب ، فان ناتاليا ما كانت لتغيب عن نظره وهى فى لباس الرقص ، وقد تعرت كتفاها ، وانسدل شعرها معقوصا بقفل ذهبى .. ناتاليا ! انها كانت نقية طاهرة ـ لا بالجسم فقط ولكن بالروح أيضا! ـ وان نقاءها يبلغ درجة الصفاء التام ! انها لم تسمع قط عن « جورج صاند » ، ولم تقرأ قط « وظائف الزواج » مثل غيرها من النساء .. انها لم تكن مثل اشباه العذارى اللاتى كانت تمتلىء بهن سانت بطرسبرج !

وكان الموقف السياسى يزيد من اضطراب بوشكين .. فقد بدا ان روسيا تغط فى سبات عميق بعد فتنة ديسمبر ونهايتها المحزنة . وانقضت أيام « المعارضة » الرقيقة التى كان يتميز بها عهد القيصر ألكسندر . لم يعد أحد يتآمر ، أو ينتقد الحكومة ، أو يسخر من البوليس ! كان كل شىء قد أصبح باردا ثقيلا جادا !.. كان حكم نيكولاس حكما تنعكس عليه صورته الشخصية .. فقد حول روسيا كلها الى معقل من معاقل الرجعية ! وكانت الصحف ، الخاضعة للرقابة ، تكاد تخلو من كل خبر عن أوروبا . أوروبا ؟ لقد أصبحت الرغبة فى زيارتها فكرة متسلطة على بوشكين . ومن جديد ، أخذت باريس ومسارحها ، والمانيا وجامعاتها ، ولندن ومصانعها ، تقض عليه مضجعه واحلام اسفاره :

« تعال .. فأنا على استعداد

« للفرار من الفتاة المتعجرفة !

« أنا على استعداد لأن أتبعكم ، يا أصدقاء
« الى أى مكان تذهبون اليه ..
« حتى ولو كان سفح سور الصين العظيم
« أو باريس التى تغلى
« أو هناك حيث لم يعد مجذف الجندول
« يغنى أنشودة « تاسو » فى الليل
« وحيث ترقد بقايا المدن القديمة تحت الرماد
« وحيث تنفث غابات الكافور روائحها .
« الى أى مكان .. أنا على استعداد !
« ولكن خبرونى ، يا أصدقاء :
« هل تموت لوعتى بعد حج بعيد كهذا ؟
« هل أنسى الفتاة المتعجرفة التى تسبب ألمى ؟
« أم أعود مرة أخرى لألقى عند قدمى القاسية
« حبى كضحية لعناد ؟! »

وكانت الحكومة قد قالت « لا » جوابا على طلباته المتكررة لجواز السفر .. ثم حدث شىء جعله يغير كل مشروعاته الخاصة بالسفر . فقد أخبروه أن مدام جونشاروف تتحدث عنه بلهجة معتدلة، وانها طلبت ان يذكروه بها! اذن فناتاليا ليست خطيبة الأمير ميششرسكى ؟ واذن فلم يضع كل شىء ؟ . وفى اليوم التالى ، غادر المدينــة دون ان يستأذن الجنرال بنكندورف . وبعــد ثلاثة ايام ــ وبعــد أن كاد يقتل جيــاده ــ وصل الى موسكو ، وسارع على الفور الى احدى الحفلات الراقصــة ، فما لبث ان رأى نفسه وجها لوجه مع ناتاليا جونشاروف .. عند الباب . وكان قد مضى على خطبتهما ستة أشهر . كانت حياته .. حياة الحرية والمغامرة .. على وشــك أن تنتهى ، ومن ثم بات من واجبه أن يفكر منذ الآن بضمير «نحن» . ولم تكن السعادة حتى ذلك الوقت قد لعبت دورا فى حياته ، فكان

عليه الآن أن يجد منها كمية تكفى لاثنين !

وشعر بالحزن ، وبميل الى قرض شعر يعبر به عن حالته، وكأنه لم يكن على وشك أن يودع حياة العزوبة ، بل على وشك أن يودع الحياة كلها !.. كانت النساء اللاتى أحبهن لايغادرن مخيلته .. بل لقد تمثلن فى أشباح خفيفة ساحرة ، انسابت فى قصائده ! كانت شهرته هى انه « دون جوان » ومغويا للعذارى! كان بوشكين، الرجل ذا المائة خليلة.. وكانت ناتاليا — باعترافه هو — غرامه الثالث عشر بعد المائة ! ومع ذلك :

« ظل يتغنى بالحب ، ولكن آه ! لقد كان صوته حزينا ..

« واأسفاه ، لم يكن يعرف من الحب شيئا الا آلامه ! ؟

وعاد هذان البيتان من شعر «زوخوفسكى» الى ذهنه، كما كان يحدث له أيام الدراسة بالكلية . . ولكنهما كانا يحملان اليوم معنى جديدا : **لم يكن الآن سيد الحب ، ولكنه كان ضحيته . . كان شهيده !.. ان قلبه ما كان فى مقدوره أن ينبض الا بحب الجمال ، فى كل مظهر من مظاهره : جمال الطبيعة ، وجمال الفن ، وجمال المرأة الحار ، الحى ! . . كان رجلا فقد الهداية والعزاء والقناعة ! وكانت النساء اللاتى أحبهن حبا جسميا قد جلبن له المرض . . أما النساء اللاتى قدم لهن روحه ، فقد قدمن له فى مقابلها الحزن ! لم تحبه امرأة واحدة — من اللاتى أحبهن — حبا مخلصا !**

وكان قلمه — صديقه المخلص القديم — ما يزال فى يده . ولقد وجد من الصعب أن ينتزع نفسه من الفصول الأخيرة من « ايجين اونيجين » ، زميله الحزين منذ عشر سنوات . وكان يشعر ، فى غموض ، انه قد خلق ب «أونيجين» شخصية ستخلده فى الأدب الروسى . والواقع أن الحديث كان قد بدأ يتردد عن عبقريته .. كان حتى الآن قد تلقى سيلا من المديح والاطراء والاحتفال ، ولكنه كان قد بدأ يصبح غير مفهوم ! لا شك اذن أن عبقريته كانت قد بلغت مرحلة النضوج !

وفى ليلة زواجه ، أخذت ذكريات غرامه توحى اليه بشعر جميل ، كله نغم ورقة ، حتى أنه كان يبكى عليه وقد غمرت قلبه نوبة من الحزن الرقيق النفاذ !

- ٤ -

• **صاح** بوشكين قائلا : « يا لسرورى ! كم أنا سعيد برؤيتك ! » . وأسرع يعانق « بول ناششوكين » ، الذى عاد الى موسكو بعد أن قضى خمسة أشهر من « النفى » الاجبارى فى (بولدينو) ، اذ كانت الكوليرا ماتزال تنشر الموت فى روسيا . ولم تفعل الحكومة شيئا أكثر من مضاعفة محطات الحجر الصحى ، وبهذا شلت حركة الحياة والمواصلات فى الدولة كلها . وكان بول ناششوكين رجلا أشقر طويل القامة ، ليس له الا ميول ثلاثة : صديقه بوشكين : وخليلته الفجرية أولجا ، ومنزل صغير للدمى لا يزيد ارتفاعه عن قدم ونصف ، كان قد شغل نفسه بصنعه . وقال بوشكين مخاطبا الفتاة الغجرية الجميلة التى جلست أمامه على أريكة كان قد فرش عليها شال مصنوع فى تركيا : « صباح الخير ، يا كنزى ! انت هنا ايضا يا تانيا ؟ ! » . وأسرع يقبل الفتاة فى جبهتها ، ثم جلس بجانبها .. وكان يبدو عليه الحزن !

وأخذت الغجريتان تجربان أوتار القيثارة التى كانت تحملها كل منهما ، وقد زينت طرفها ببعض الشرائط . وأخذت النغمات الشاكية تنساب ببطء فى سحب الدخان التى كانت تملأ جو الحجرة . وقال بوشكين ببطء : « هل تعرفين اننى سوف أتزوج يا تانيا ؟ » . وانعكست على وجهه الشاحب صورة حمراء لذلك الخشب الذى كان يشتعل فى المدفأة . وتمتمت تانيا قائلة : « أتعنى ما تقول حقا يا ألكسندر سيرجيفتش ؟ فليمنحك الله السعادة .. أنت وزوجتك ! » . وتأوهت الفتاة وهى تقول : « نحن الغجر لا نشقى فى شىء

قط غير الحب !» .. واحتضنت تانيا قيثارتها ، وبدأت تغنى بصوت حار عميق ، تمثلت فى نبراته أحزان اليوم الذى كان على وشك الانقضاء :

« أماه ! ما سحابة الغبار هذه .. فى الحقول هناك؟
« سيدتى ! ما سحابة الغبار هذه ؟
« انها جياد تركض ، جياد ..
« ولكن جياد من هى ؟
« انها جياد ألكسندر سيرجيفتش .. »

وتوقفت فجأة عن الغناء .. فقد ظهرت على وجهها صورة تدل على الرعب . كان بوشكين قد دفن وجهه بين يديه وأخذ فى النحيب . وكانت كتفاه الهزيلتان تهتزان فى حدة . وسارع اليه ناششوكين صائحا: « بوشكين .. ماذا حدث؟ ماذا حدث لك ؟ » . وأشار الى الغجريتين بمغادرة الحجرة ، ثم قال : « هيا يابوشكين .. قل لى ماذا يثقل على قلبك ؟» . فجفف عينيه الحمراوين وقال : « يجب على ان اطلب منك أن تغفر لى ضعفى .. فقد كنت أشعر بحزن قبل ان تحضروا ، وقد زادتنى الأغنية اضطرابا »

ونهض ناششوكين من مكانه فأخذ يسير فى الحجرة ذهابا وجيئة ، ثم سأله : « هل تنوى أن تتزوج وأنت على هذه الحالة الذهنية ؟ » .. فقال بوشكين : « عندما يبلغ الرجال سن الثلاثين يتزوجون . فليست هناك سعادة الا فى ان يسير الانسان على نفس الطريق الذى سار عليه غيره! » . وأحنى رأسه ، وأخذ يضرب المائدة بأصابعه وهو شارد الذهن . ثم قال : **« اننى لا أتوقع شيئا كثيرا من الحياة .. ولو صادفتنى السعادة لأدهشنى ذلك ! »**

وفى ١٧ اكتوبر ١٨٣١ ، احتفل بوشكين بدفن حياة العزوبة . وقدمت فى الاحتفال الشمبانيا والشطائر كما كسرت

الأقداح ، ولكن جو الاحتفال لم يكن بهيجا ولا سعيدا . **كان «العريس» حزينا ، وشعر زملاؤه بجو يثقل على الاحتفال الذى أطلقوا عليه اسم « الدفن » ! ..** الا ان اليوم التالى — على أية حال — جاء صاخبا بهيجا . وتم الاحتفال بالزواج ظهرا فى كنيسة الصعود . وتجمعت موسكو كلها لترى رجلا مشهورا كهذا يتزوج مثل هذه الفتاة الجميلة ! **وعندما رفعت ناتاليا نقابها — وهى تكاد تفقد وعيها من شدة الحرارة والاضطراب — وقدمت اليه وجها مندى بالدموع ، شعر ألكسندر بقلبه يتقلص . أما القبلة التى طبعها على تلك الشفتين اللتين كان يرغب فيهما منذ زمان ، فانها لم تذقه الا طعم الملح الذى تتميز به الدموع !**

— ٥ —

• **كانت** أشجار البلوط التى يبلغ عمرها نحو قرن من الزمان ، فى متنزه تسارسكو سيلو ، ترفع هاماتها نحو السماء الزرقاء الداكنة ، وقد ظلت الأرض واوراق الأشجار التى يعلوها الغبار ، تتوق الى الرى . ولكن الحر كان قاسيا . وكان بوشكين ينطلق وحيدا فى نزهات صباحية تذكره بأيام صباه .. فاذا حان المساء ، سار مع عروسه وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر — حول البحيرة . وكان قد لجأ الى هناك — مع ناتاليا — فرارا من موسكو ، ومن حماته .. وكان أمله ان يجد هدوءا وادعا ، ولكن الكوليرا اضطرت البلاط الملكى الى اللجوء الى القصر الصيفى .. وكف الزوجان عن نزهتهما حول البحيرة ، لا سيما وان القيصر كان مغرما بالجميلات !

ولكن بوشكين وجد نفسه — ذات صباح — امام القيصر .. كان شاحبا ، متعاليا كعادته .. بادى المرح ، هادىء الاعصاب . وقال وهو يمد للشاعر يده الكبيرة الباردة : « صباح الخير يا بوشكين ! كيف حال زوجتك ؟ » . فضاقت

عينا ألكسندر فجأة ، كما اغبر لونهما ، وقال : « انه لكرم من جلالتك أن تهتم بأمر زوجتى المسكينة ناتاليا . انها تسرف فى الرقص قليلا ! ولكن ، فيما عدا ذلك ، فان صحتها حسنة ! »

وقال القيصر الذى لم يلحظ شعاع الغيرة وهو يضىء فى عينى بوشكين : « **عظيم ! عظيم ! ان الامبراطورة مغرمة بها الى حد بعيد ، وهى تود ان تراها كثيرا فى القصر !** » .

ثم أمسك بذراع بوشكين وسار الى جانبه وهو يقول : « اننى لا أحب أن أرى أكبر كتاب الروس محروما من منصب رسمى ! » .

وهنا تذكر بوشكين ملاحظة للقيصر كانت قد نقلت اليه ، وجاء بها : « **ما دام قد تزوج ، وما دام أنه ليس غنيا ، فيجب ان يستمر قدره فى الغليان !** » .. وسأل بوشكين نفسه فى تلك اللحظة : ترى كيف ينوى القيصر أن يساعد قدره على الاستمرار فى الغليان ؟

وعاد القيصر يسأله : « ماذا تقول لو طلبت منك ان تكتب تاريخ بطرس الأكبر ؟ سوف تتقاضى نظير ذلك مرتبا قدره .. قل خمسة آلاف روبل فى العام ؟ » .. فصاح بوشكين مدفوعا بشعور من الحماس الحقيقى : « آه .. شكرا لك ياسيدى ! لقد شغفت بالتاريخ وقتا ما بالفعل ، ولكن ، هل تسمحون لى بالاطلاع على المحفوظات يا مولاى ؟ »

كان الترخيص بالاطلاع على المحفوظات أمرا خطيرا فى بلد كان كل شىء فيه يعتبر سرا ، ابتداء من معاهدات الصلح الى أقل الأوراق الرسمية أهمية .. وذلك خوفا من النشر . كما ان الوثائق الوزارية كانت تحرر بأسلوب خاص يحتاج الى سنوات للتمرن على قراءته وفهمه ! .. ولذلك فكر الامبراطور وسأل نفسه : هل يمنح الشاعر المتقلب ترخيصا بالاطلاع على المحفوظات والوثائق الرسمية وهو ما يزال مشتبها فى أمره ؟ وهنا مرت أمام ناظريه جدائل ناتاليا السوداء ، فابتسم فى دهاء وقال : « واذا سمحت لك بالاطلاع ، هل تقبل المنصب

الذى عرضته عليك ؟ » . فصاح بوشكين : « نعم يامولاى .. وبكل امتنان ! » . وقال القيصر دون أن يترك لهوقتا للتفكير: حسنا جدا ! اذن ، تقرر الأمر .. فاحضر لمقابلتى فى أحد الأيام القادمة ،وسوف نتحدث فى الموضوع بشىء من التفصيل» . وتحرك فى تثاقل وقد انتصبت قامته ، فبدا كما لو كان تمثالا يسير ! وبقى ألكسندر وحده ، فأخذ يفكر وقد وضع يده فى جيبه : **لقد اثبتت نعم القيصر حتى اليوم انها ليست الا لونا من العبودية ! .. وتوقف عن المسير فجأة ، ثم قال يحدث نفسه بصوت مسموع : « أيكون السبب فى ذلك هو .. ناتاليا ؟ ! »**

- ٦ -

• **قبلت** الكسندرا روسيتى ،وصيفة شرف الأمبراطورة ، ناتاليا فى جبينها ، ثم غرقت فى مقعد كبير ، وخلعت القفاز من احدى يديها وأخذت تستعمله كمروحة . وما لبثت ان سددت عينيها السوداوين الى الشابة الصغيرة وقالت تسألها : « هل عاد زوجك الى المنزل ؟ » . وكانت ناتاليا تطرز وقد جلست على مقعد منخفض ، فقالت : « نعم ، فماذا تريدين منه ؟ » . وسألتها ألكسندرا فى هدوء : « أتشعرين بالغيرة ؟ انك تعرفين اننى لست مغرمة بالكسندر كما أنه غير مغرم بى .. فأى ضرر يلحق بك لو قمت اليه لأسمعه وهو ينشد شعره ؟ » . فقالت ناتاليا وهى تمط شفتيها : « انه يقول لى دائما أن هذه الأشياء مما يخرج عن محيط المرأة ! »

كانت ساحرة الجمال وهى ملتفة فى ثوب من ثياب المنزل الطويلة البيضاء ، كان يترك لعنقها ولذراعيها حرية الحركة . وأجابت ألكسندرا على ذلك بقولها : « وهذا هو أحسن برهان على أنه لا يعدنى امرأة ! » . ثم استطردت تقول : « هيا ، لا تكونى حمقاء يا ناتاليا ! سأصعد الى أعلى لأرى زوجك » .

ثم أسرعت الى الطابق الأعلى ودخلت غرفة الشاعر دون أن تطرق الباب . وكان مستلقيا على مقعد طويل ، وقد وضع الى جانبه زجاجة ملأى بعصير التوت ، فوق مخطوط من الشعر . وقال لها وهو يرفع نفسه قليلا : « صباح الخير يا كنزى ! » . لقد كان مغرما بنصف عذراء البلاط هذه ، وبمظهرها الشبيه بمظهر الفتيان !.. كانت ناتاليا الجميلة ، الصامتة ، تبدو بجانبها خالية من الحياة !.. وكانت ألكسندرا قد اعتادت أن تأتى الى بوشكين كل صباح لتصغى الى ما كتب فى الليلة السابقة . وفيما كانت تفك شرائط غطاء رأسها ، شرب هو كوبا من الماء وبدأ يقرأ

* * *

عند ما تركت ناتاليا وحيدة ، استأنفت العمل .. كانت أشد خجلا من أن تترك مكانا للحقد فى نفسها ! فقد كان قلبها الصغير الضيق ، قلب المرأة الجميلة ، لا يضم غير المشاعر المحترمة المعتدلة !.. وكانت تعرف أنها ليست الا سيدة صغيرة الشأن من موسكو ضاعت فى عالم البلاط المتألق ، وان كل ما كان لديها من سلاح تحافظ به على الرجل الكبير الذى تزوجته ، هو عيناها السوداوان وبشرتها البيضاء وخصرها النحيل . ولكن كان هناك تحت شعرها الأسود عقل صغير ، لا يقدر على التفكير الا فى العادى من الشئون اليومية . كان كل همها أن تكون ملكة للحفلات الراقصة . وكانت ــ مثل عدد كبير من جميلات النساء ــ على قدر من السخافة !

لقد حدث كل شىء فجأة ! ففى ذات يوم ، تزوجها هذا الرجل الذى كان يخيفها قليلا .. هذا الرجل الذى لم يقبلها مرة واحدة خلال خطبتهما الطويلة ! وكانت قد تلقت تعليمات خاصة بأسرار الزواج المرعبة قبل أن تسلم اليه ، فاستلقت بين الذراعين ــ اللتين احتضنتاها بوله ــ مثل جثة هامدة ، بيضاء اللون مغمضة العينين !



الـدرامـا

- ١ -

• فى يوم ٢٥ يونيو ١٨٣٤ ، استيقظ نيكولاس الأول ـ « امبراطور جميع الروس » ! ـ مبكرا ، واشترك فى الصلاة التى أقيمت فى كنيسة قصر أنيشكوف . وكان عليه أن يظهر بعد ذلك فى قاعة العرش ليتلقى تهانىء رجال بلاطه ووزرائه ورجال السلك السياسى . هكذا كان البروتوكول الموضوع للاحتفال بعيد ميلاد الامبراطور

وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف ، فى احدى الشرفات ، وكانت السيدات والوزراء والديبلوماسيون ورجال البلاط قد وقفوا فى صفين . صف على كل من جانبى القاعة . وتقدم القيصر الى الأمام . وكان يسير ببطء ، بمظهره « التمثالى » ،



لوحة تمثل الحسناء « ناتاليا جونشاروف » ، زوجة بوشكين .. وسبب مأساته !

وهو يدب بنعل حذائه على أرض القاعة دبيبا ثقيلا . وكانت علامات الرضى بادية على وجهه فى عيد ميلاده الثامن والثلاثين!

ومر به فريق من الشبان ، يرتدون زى رجال التشريفات ، فاستوقفهم ثم قال : « يبدو لى ان رجال التشريفات من حاشيتى لم يحضروا جميعا ، ومع ذلك فقد كان من واجبهم الحضور فى مناسبة عيد ميلاد امبراطورهم ! » .

وظهرت القسوة فى عينيه ، وأخذ ينقر بأصابعه على مقبض سيفه . وساد صمت طويل مخيف ، أنهاه القيصر أخيرا بقوله : **« أين بوشكين ؟ »**

ـ لقد أرسل يعتذر بمرضه يا مولاى !

ـ حسنا جدا .. اذا كان مريضا فسوف أرسل اليه طبيبى آرنت ! أين آرنت ؟

وبدأ البحث عن طبيب الأسرة المالكة . وتحرك نيكولاس من مكانه ، فتحركت خلفه كتلة متزاحمة حمراء من رجال البلاط . وكانت القسوة ما تزال تبدو فى نظراته . وقال : « فلترسلوا الى زوخوفسكى صباح غد بعد موعد الافطار »

وفى صباح اليوم التالى ، دخل زوخوفسكى حجرة مكتب القيصر ووقف على مقربة من الباب ، فى انتظار العاصفة . كان رجلا لطيفا ، طيب القلب ،مشغوفا بأسرته ، وأصدقائه ، وقياصره ، وبلاده .. وكان لا يفهم كيف يمكن لانسان أن يثور ضد السلطة!..وقد ظل عدة سنوات يحتفظ بوظيفة المربى لأبناء الامبراطور . وكانت الامبراطورة مشغوفة به ، كما كان بوشكين واحدا من أصدقائه .. وكان ينسب الى زوخوفسكى أنه محامى بوشكين والمدافع عنه فى القصر !

وأخيرا ، رفع الامبراطور رأسه وقال : « أوه ! انه أنت اذن يا زوخوفسكى ! » .. وأخذ يتذكر حوادث اليوم السابق ، ثم استطرد قائلا : « ربما كان فى وسعك أن تفسر لى لماذا لم يحضر بوشكين أمس ليقدم الى تهانئه ، كما كان من واجبه

أن يفعل ؟ ! » . فأحنى زوخوفسكى رأسه ، وقال : « مولاى . ان بوشكين فى غاية الأسف اذ بدا منه ما يدل على عدم الاحترام لجلالتكم . والحقيقة أنه مريض ، وقد وجدته أمس فى فراشه » . وانفجر نيكولاس قائلا : « حقا ان الأمر جد غريب ، فكلما أقيم احتفال فى القصر حدث مرض أو وفاة أو سفر مفاجىء فى أسرة بوشكين ! » . ونهض فأخذ يسير فى الحجرة . وأخيرا ، وقف أمام زوخوفسكى وقال : **« هل تظن أننى مغفل حتى أقبل هذه الأعذار الأبدية ؟ هل تظن أننى أعمى ؟ وحتى اذا كنت أعمى فان الخطاب الذى ضبطه البوليس ورفعه الى يكفى تماما لتوضيح الأمر . فان بوشكين غير راض عن وظيفته كأحد رجال التشريفات . وهو يتحاشى الحضور الى القصر ! »**

وأخذ القيصر يتمشى من جديد ، وقد عقد يديه وراءظهره ، ثم صاح قائلا : « ليس من حق احد أفراد الرعية ان يناقش فيما يسبغه عليه مولاه من نعمة ! لقد أسندت اليه وظيفة ، فمن واجبه أن يقوم بها . ان غيره يشعر بسعادة شديدة فى مثل هذا المنصب ، ولكنه فى خلاف دائما مع المراسم (البروتوكول) ،فاذا كان عليه ان يرتدى زى البلاط الرسمى جاء مرتديا ملابسه الرسمية ، أو انه ينسى قبعته ... »

واستمر القيصر فى حديثه ، فقال : **« ان الشخص الذى تشمله برعايتك ناكر للجميل ، فقد أعدته من المنفى ، ومنحته خمسة آلاف روبل ليكتب تاريخ بطرس الأكبر ، فكتب بدلا من ذلك تاريخ ثورة بوجاشيف ! ومع ذلك فانه عند ما طلب عشرين الف روبل لنشره ، منحته اياها!.واخيرا عينته احد رجال التشريفات ، وهو مركز يحسده عليه الكثيرون ! »**

واذ خلا القيصر الى نفسه اخذ يفكر : لقد استحق بوشكين العقاب منذ مدة طويلة .. ولكنه اذا أمر باعادته الى ضيعته (والواقع أن هذا هو ما كان بوشكين يتمناه) فسيكون

معنى ذلك حرمان البلاط من حليته الكبرى ! وهنا تذكر الامبراطور ناتاليا بوشكين ، بوجهها الرقيق ، وكتفيها الورديتين ، وعينيها السوداوين ، وشعرها اللامع

وتذكر الحفلة الراقصة التى أقيمت فى موسكو ، حيث رآها لاول مرة . كانت اذ ذاك شيئا صغيرا ورد من الأرياف بكتفين هزيلتين . ولكنها منذ رزقت بطفلين ، وبعد نجاح أربعة أعوام كاملة فى المجتمع ، أصبحت أجمل مما كانت وأكمل، وأكثر عظمة ، وأشد ثقة فى جمالها ، بل وأكثر استعدادا للدلال !... لقد كان يتوجه أحيانا ليسير تحت نوافذها كما لو كان ضابطا صغيرا ، ثم يعمد الى سؤالها فيما بعد ، عندما يخاصرها أثناء الرقص ، عن السبب الذى يدعوها الى ترك ستائر حجرتها مسدلة دائما !

ولم يعد بوشكين ــ بالنسبة اليه ــ هو الشاعر (هذا علاوة على أنه لم يعد يلقى نجاحا ، كما أن الرقيب كان يمنع معظم انتاجه !) ، ولكنه كان قد أصبح زوج ناتاليا . وكان قد عينه فى حاشيته ليتيح ذلك لمسز بوشكين أن تدعى الى حفلات القصر الخاصة !

وكانت مقاومة ناتاليا تؤجج من رغبة القيصر . فقد جرت العادة ، عندما يقع اختياره على امرأة ــ حتى لو كانت دوقة يجرى فى عروقها الدم الملكى ــ أن يحضروها الى جناحه الخاص فى الليلة التالية ، وقد غطى وجهها بنقاب . حتى الأزواج كانوا يعتبرون مشاركة « قيصر جميع الروس » فى زوجاتهم شرفا عظيما لهم ! وهكذا سار بلاطه على تقاليد فرنسا « المجيدة ! » فى القرن السابع عشر !..

هذا الشاعر المخرب ، الغيور ، ذو الوجه الذى يشبه وجه القرد ، هو ــ فقط ! ــ الذى كان يصر على أن يحتفظ لنفسه بأجمل امرأة فى روسيا ! كان القيصر غاضبا .. فقد كان ، فى أعماق نفسه،يعتبر البلاد وكل ما فيها ملكا خاصا له! بل

انه كان على استعداد لأن يصدر قانون حق الملك هذا ، فى ليلتهما الأولى معاً ، اذ لم يكن يبدو له أن هناك ما تشتاقه النفس أكثر من المرأة الجميلة !

- ٢ -

• **كان** المطر يتساقط باستمرار منذ الصباح ، ومع ذلك فقد ظلت العربات المطهمة تتوافد ، مقلة رجالا فى افخم الثياب الرسمية ، ونساء فى ابهى آيات الزينة

وفجأة ، وصلت عربة متواضعة ، بلغ من تواضعها ان الحارس السويسرى الواقف بالباب تردد فى التقدم وفتح بابها ! .. وخرج منها رجل وزوجته لهما مظهر غريب : فقد كان الرجل قصيرا نحيلا ، تبدو على ملابسه علامات البلى . أما المرأة فكانت ذات شكل ملكى ، وقد تعرت كتفاها . وصعد الاثنان السلم . وقال الرجل لأحد الحاجبين : « فلتعلن عن قدوم مسيو ومدام بوشكين ! » . ووقفت ناتاليا أمام مرآة لتعيد تنظيم شعرها ، فنظر ألكسندر اليها . كانت قد احتفظت بمظهر الالهة . ومع أنها كانت قد رزقت بعدة أولاد ، الا أن ذلك لم يؤثر فى جمالها مطلقا ، ولم يترك فيه أى أثر . ولم تعد نحيلة الكتفين كما كانت فى الماضى .. وكذلك لم تعد نفس الفتاة الطاهرة التى أغلقت عينيها عندما احتضنها زوجها بين يديه .. **كانت قد أضحت « لبؤة » : امرأة من نساء الطبقة الراقية ، أفسدها اعجاب الناس بها ، واعجاب البلاط ، واعجاب القيصر نفسه !..** وها هم الناس قد سارعوا الى تحيتها ، والى عناقها ، والى دعوتها للرقص ، حتى أن بوشكين ما لبث أن وجد نفسه منفصلا عنها . واعتدل فى وقفته ، ومر بيده على شعره ، فلاحظ ــ وهو يرفع يده ــ ان كم سترته ينقصه أحد الأزرار. ان ناتاليا كانت ربة منزل تعسة ، فقد كانت تعود الى المنزل فى الساعة الخامسة صباحا ، وتنام حتى الظهر . كان منزلهما

مهوشا ، وكانا لا يتناولان طعاما جيدا .. وكان فى وسعه أن يشعر بأثر ذلك ، اذ كان وجهه مغبرا ، وبياض عينيه مائلا الى الصفرة !

وكان الخدم قد أخذوا فى استبدال الشموع .. ومر خادم يحمل صينية عليها بعض المشروبات ، فتناول بوشكين كأسا واستند الى أحد الأبواب . كان فى بداية زواجه قد عاد الى ارتياد عالم الطبقة الراقية لادخال السرور الى نفس زوجته الطفلة . وكان شديد الفخر والاعتزاز بجمالها وبساطتها ، كما أن نجاحها قد سره الا أنه كان يخفى غيرته .. غيرة آل هانيبال الوحشية .. تلك الغيرة التى كانت تجعل الرعشة تسرى فى جسمه والشحوب يعلو وجهه كلما طرأت على عقله مجرد فكرة أن أحد هؤلاء الرجال الذين يراقصونها ــ قد يلمس ذراعها أو خصرها ! .. ولكن بعد اربع سنوات من الزواج ، أصبح ارتياد هذه الحفلات عادة ، بل واجبا يوميا يؤديه بطريقة رتيبة ! وكان يستيقظ متأخرا ، وهو يشعر بثقل فى رأسه ، ويعيد النظر فى كتب أو مخطوطات قديمة . وفى خلال عامين ، لم ينتج شيئا أكثر من بضع صور وصفية ، وبضع قطع أدبية صغيرة . وكيف كان فى وسعه أن يكتب ؟ لقد كانت معدته مضطربة ، وقلبه منقبضا ، وكبده مختلة ! ثم ان حب الجمهور له كان قد قل عن ذى قبل ! ولم يعد شاعر الحرية ــ فى أنظار العالم ــ الا زوج مدام بوشكين ، أجمل امرأة فى سانت بطرسبرج !

وأخذت عيناه تبحثان عنها بين جمهور الراقصين ، حتى رآها وهى تراقص ضابطا أشقر الشعر ، يرتدى الزى الأبيض الذى كان يتميز به الحرس الراكب . كان يدعى « جورج دانتيس » .. وكان لاجئا ألزاسيا تبناه «البارون فاندهيكيرن» سفير هولندا . وبفضل حماية السفير له ، ألحق الشاب ، الذى لم يكن يعرف كلمة من اللغة الروسية ، بالحرس

الامبراطورى على الفور ، ومنح رتبة الضابط . كان شابا ساحرا ، حلو التعبير ، رقيقا ، حاضر البديهة .. وقد دأب على ملاحقة ناتاليا ، فبدأت تراود بوشكين فكرة النزوح بها ـ وبأولادهما ـ الى الريف .. انه لم يكن يدرى السر فى الخوف الذى تولاه من ملاحقة هذا الشاب لزوجته .. ترى هل كان فى وسع **أى شخص أن يغرى ناتاليا ، التمثال الرخامى الجميل ؟ هل كان هناك ((بيجماليون)) آخر فى وسعه أن يبعث الروح فى ((جالاتيا)) التى يملكها ؟ !**

وفكر فى حياتهما معا ، وفى سعادته القاصرة ! كلا ! انها ما كانت تحب أحدا ـ ولا شيئا ـ الا نجاحها ، والا الاعجاب الذى تبثه حولها ! لقد ولدت لتتحكم فى القلوب ـ فى المراقص التى تؤمها ـ ولكى ينخسف أمامها جمال منافساتها الشقيات !

.. وكانت هذه الحقيقة هى التى عكرت صفو حياة الكسندر ، ففقد مرحه القديم ، ولم يعد يلاحق النساء وبدلا من ذلك كان يقف بجانب أحد الأعمدة ، ويتثاءب ، وينظر الى الراقصين !. هل كان يفعل ذلك ليراقب زوجته ؟ كان يقال انه شديد الغيرة ، شديد القسوة ، بل انه وحش ضار ! .. وأدار بوشكين ظهره ، ودخل حجرة أخرى ملاصقة لقاعة الرقص ، ثم جلس هناك واخذ يتثاءب

* * *

• **كانت** ناتاليا تشعر بأنها خفيفة سعيدة ، كما كانت حالتها دائما فى ليلة المرقص . وكان الرقص قد جعلها تشعر بالحرارة ، فجلست فى ركن من الأركان وأخذت تحرك مروحتها أمام وجهها برشاقة ، وهى تبتسم وتبدى حركات الدلال التى تبديها أية امرأة بمروحتها . لقد كان جميلا أن تجلس هناك ، الى جانب هذا الشاب الذى كان يقول لها أشياء لا يصعب

عليها أن تفهمها : « كم أنت جميلة هذه الليلة ! » .. « ان اللون الوردى يتناسب تماما مع شعرك الأسود ! »

ولأول مرة ، شعرت بالتأثر لكلمات الحب !

ولو أن ناتاليا كانت قادرة على التفكير ، لتبينت ظلم القدر الذى كان يفصل بينها وبين شاب جميل ، خال من الهموم مثلها ! وكانت لا تأسف على شىء قط ، ولا تشعر بثورة على شىء ، حتى أنها أسلمت نفسها ببساطة لتلك الرقة التى كانت تنساب عليها قادمة من دانتيس ، والى ذلك المصير المجهول الذى كان يمس أعمق احساساتها النسائية .. الاحساسات التى لم ينجح زوجها يوما فى اثارتها !

وأمسكت بيد دانتيس كأنها تريد أن تؤكد لنفسها أنه هنا الى جانبها فعلا .. وأخذت عيناها الخائفتان تتحولان من ملابس زميلها البيضاء الى الشموع المحترقة التى كانت تنبىء بأن الحفلة على وشك الانتهاء . وأخطأ هو فهم حركتها ، فأسرع يضغط يدها وهى داخل القفاز . ولم تقاومه ، بل انها خضعت فى رقة لغزله الصامت !.. **انها بكل تأكيد سيدة متزوجة ، وأما لثلاثة أطفال ! انها لا يمكن أن تنسى واجبها ! ولكنها كانت فى السادسة والعشرين من عمرها ، وندر أن يضرب لها العالم الذى تعيش فيه مثلا واحدا للفضيلة ! لقد كان القصر مملوءا بأشباه العذارى ، وبالأزواج المخدوعين ، وبالأطفال غير الشرعيين !** . أفلا يمكن لحقوق العاطفة — التى يقول الشعراء أنها تغفر كل شىء ! — أن تتخذ عذرا لعناق اليدين ، وللقبلات السريعة المختلسة فى الشرفات ، وللهمسات المتبادلة أثناء الرقص ، التى كانت كافية لكى تملأ قلب وخيال وحواس ناتاليا بوشكين ؟ !

- ٣ -

• **كان** المنزل مملوءا بشخصيات مألوفة : العمات القديمات ،

وبنات العم ، وغيرهن من الشخصيات النسائية التى تجتمع دائما فى المنزل اعلانا عن وفاة او عن ميلاد ! وكانت ناتاليا مسجاة على فراش كبير ، وقد بدا وجهها وشعرها الأسود ظاهرين على الوسادة البيضاء، بالرغم من ضعف الضوء بسبب الستائر المسدلة . كانت نائمة ، ذلك النوم الذى يبعثه الاعياء الذى يواتى الأم على أثر الوضع، ولذلك لم تحس بزوجها وهو يدخل ـ سائرا على أطراف أصابعه ـ وينحنى على وجهها ليضع قبلة على جبينها . وكانت الهمسات تملأ الحجرة ، والأبواب تفتح ثم تغلق . وكان ألكسندر قد سأل : « كيف حالها ! » . فقالوا له : « انها بخير ! » . ثم عاد فسأل : « والطفل ؟ »، فأجابوه : « انها فتاة صغيرة !» . كان عائدا لتوه من موسكو ، فسمع الأخبار وهو يدخل المنزل . وكانت الخادمات تحملن آنية مملوءة بالماء ، ومناشف خضبت بالدم ، وكل ما يلازم عملية الوضع . وكان يشعر بالاشمئزاز من كل ذلك كما كان فى بيت أبيه تماما !.. وقبل الطفل ، ثم غادر الحجرة ، ولجأ الى مكتبه . وكان نيكيتا ـ نفس الرجل الذى خدمه كما لو كان مربية ، ثم خادما خاصا ـ قد أخذ يعد له فراشا على الأريكة . وفى أثناء سيره ، نظر الى صورته فى المرآة ، فرأى نفسه أنحف مما كان ، كما ان وجهه كان مغبرا ..

ومع ذلك فان سنه كانت لاتزيد على السادسة والثلاثين.. ان هذه الحياة تقتله ! كان كثيرا ما يفكر فى مائتين من رفاقه ، كان نيكولاس قد احتفظ بهم فى سجون سيبيريا طيلة عشر سنوات . كانوا يعانون من سوء التغذية ، ويراقبون ليل نهار، وقد حرموا من أسراتهم ، وأجبروا على العمل الشاق فى المناجم .. أما هو فكان حرا ، وزوجته أجمل امرأة فى سانت بطرسبرج ، وقد قربه القيصر اليه ! ولكنهم ـ الذين أبعدوا ـ كانوا يشعرون بالهدوء فى أعماق نفوسهم .. فقد أدوا واجبهم! أما هو فكان عليه أن يحتمل حياة البلاط الشاقة بكبد مريضة،

وزوجـة غاية فى الجمـال ، وجيوبه ملأى بايصـالات محال الرهون !.. كان عنوانه معروفا لجميع بنوك الرهون فى سانت بطرسبرج . وكانت خواتمـه ، وحلم زوجتـه ، بل وملابسه وملابس زوجته ، تذهب من وقت لآخر الى بنوك الرهون !

كم من مرة حاول فيهـا أن يحطم تلك القيـود التى كانت تجعل منه أسيرا ؟ كان هذا العمل يبدو فى ظاهره سهلا : فما عليه الا ان يستقيل ، ويدفع ديونه ، ثم يسافر الى الريف ، ويعمل ، ويعمل ، ويعمل ! .. **ولكن القيصر لم يكن على استعداد لان يسمع أى شيء عن استقالته .. فان هـذه الاستقالة ستبعد ناتاليا عن سانت بطرسبرج ، بل ان اصـدقاءه أنفسهم عندما سمعوا بذلك ـ أخذوا يتحدثون عن نكران الجميل .. وبكت ناتاليا . ثم انتهى الأمر أخيرا بعقد قرض جديد بضمان مرتبه! ونفـدت العشرون أو الثلاثون ألف روبل ـ التى كانت تمثـل خمس أو ست سنوات من الذل والأسر ـ فى سـتة أشهر ، وما لبث أن وجد نفسه فى نفس المركز السابق تماما !**

واعتمد رأسه بين يديه ، وسحب من الهواء نفسا عميقا . كان يشعر من وقت لآخر بشعور المغلوب على أمره ، أما الآن فان هذا الشعور بات لا يفارقه . وكانت أمه قد ماتت فى شهر مـارس . . ورافق الـكسندر جثمانهـا الى (سفيـاتو جورسكى) ، وشهد الاحتفال بدفنها . وخطر ببـاله أن من الخير أن يظل هناك .. فى المقبرة ! كانت فكرة الموت تراوده ، حتى لقد أصبحت أهم مصدر لأشعـاره ! .. وقضى فترة فى (ميخائيلوفسكو) ، ظنا منه أن الوحى قد يهبط عليه هناك ، كما كان الحال فى الماضى . ولـكنه لم يتمـكن من اتمام شيء يستحق الذكر .. لم تعد الكتابة بالنسبة اليه ميلا يشعر به أو حاجة يشعر بها ، وانما كانت وسيلة لكسب المال . وكان يشعر أحيانا أن عبقريته قد تخلت عنه حقا .. هـكذا كانت الصحف تقول منذ وقت طويل ! ..

والآن ، ها هو قد عاد الى المدينة الصاخبة ، وغدا عليه أن يرتدى زيه الرسمى مرة أخرى ، ويتوجه به الى القصر ، ويتناول عشاءه فى الخارج ، ويواجه نظارات الرقيبات . وتأوه ، ثم وضع يده فوق جنبه الأيمن . وأخذ يفتح الخطابات التى تلقاها أثناء غيابه ، فاذا بها خطابات تذكرة بديون ، وخطابات اهانة وقذف ، وخطاب ودى مكون من بضعة أسطر ، حرره اليه صديقه بلتنيف ــ ناشر انتاجه ــ وقصيدة نارية طويلة من أحد تلاميذ كلية اقليمية ، وخطاب يحتوى على اتهامات ، كتبه مجهول بيده اليسرى : **« اننا نخطرك بهذا أن زوجتك تخونك مع ضابط » ! .. والامضاء : « صديق يرجو لك الخير » !**

وفرك بيده الخطاب المجهول المصدر ، ثم قذفه بغضب فى سلة المهملات . الا أن ذهنه شغل بتلك الكلمات الوقحة التى أدرك انها كتبت بخط رجل : «أن زوجتك تخونك مع ضابط ؟» . **وأخذت كلمة « ضابط » ــ المجردة ــ تتحرك حتى لتدب فيها الحياة ، وتتخذ شكلا معينا . كانت قد أصبحت الآن زيا أبيض ، وحذاء أسود لامعا عاليا ، وشاربا أشقر ، واسما ، هو : دانتيس ! .. ناتاليا ، ودانتيس ! ..** وطفح العرق على جبينه ، وشعر بالغضب الذى عرف به آل هانيبال ــ وكان كثيرا ما يؤدى الى اصابة جده بالاغماء ! ــ ان ألسنة الناس وظنونهم لا تغفل حتى امرأة مسجاة على فراش الألم ! .. لا ، لا ، ان ناتاليا ليست خائنة . انها ، على أقصى تقدير ، قد تأثرت بالحاح دانتيس وملاحقته .. الحاح شاب جميل لم يتحول شعر فوديه الى اللون الأبيض .. شاب يرتدى زى حرس الفرسان الأنيق ! .. وفضلا عن ذلك فانها صغيرة ، لا تجد حولها ناصحا أمينا ! انها ودانتيس ليسا الا وسيلة من وسائل انتقام المجتمع ! انه لا يشعر بحقد نحوها ، بل انه شعر بشفقة لا حد لها !

وانه ليكره المجتمع المتوحش كما كان يكره كل شيء يسمو فوق المتوسط ويبتعد عن النفاق ويتعفف عن الانغماس فى الرذيلة التى انغمس فيها .. وتلك العصبة الدولية التى تجمع أمثال هيكرن ونيسلرود وبوليتيكا - منافسيه فى الأدب - كلهم كانوا يلهثون ، وقد كاد صبرهم ينفد ، انتظارا لليوم الذى يمكنهم أن يقولوا فيه ، عن أكبر شعراء روسيا ، انه أصبح زوجا مخدوعا ! انهم هم الذين يحاولون أن يدفعوا بناتاليا الى أحضان دانتيس !

انه الجحيم ! ووضع جبينه بين يديه وأخذ يضغط عليه . وفجأة ، سمع طرقا رقيقا مترددا على الباب ، فقام وأغلق النافذة . واستعادت تقاطيع وجهه حالتها الطبيعية ، ثم قال: « ادخل » . وانساب شبح أبيض الى الحجرة ، ثم أغلق الباب فى هدوء . وقال الشاعر : « أوه! أهنا أنت يا ألكسندرا ؟ » . فأجابت : « نعم ! لقد حضرت لأسألك عما اذا كنت تريد شيئا ؟ ! »

- اذن تعالى هنا .. فمنذ عودتى لم تسنح لى الفرصة لأقدم لك التحية !

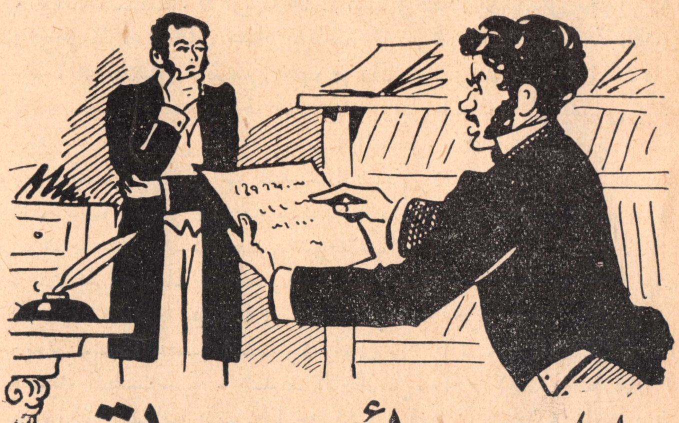
كان قد استأجر هذا المنزل المطل على رصيف (الموىكا) منذ عام وأقام فيه مع شقيقتى زوجته . أما الكبرى ، كاترين، فانه كان لايحبها ، اذ كانت عنيدة ، غبية ، خالية من جمال ناتاليا ومن رقتها . ولكنه كان يميل لألكسندرا . فقد كان فيها كل ماينقص زوجته : اللباقة ، والذكاء ، والحماس . كانت هى التى تعنى بالأطفال والمنزل ، وكان فى وسعها أن تصغى اليه ساعات كاملة ، كما فعلت ألكسندرا أخرى من قبلها ..

وجلست الفتاة على أريكة ، فرأى فى الظلال ، ملابسها البيضاء وضوء الشموع يتراقص عليها . وكانت من الناحية الجانبية تشبه ناتاليا ، اذ كان لها نفس القوام الفارع المعتدل، ونفس الملامح الصافية الكلاسيكية ، ونفس اللون الذى جعل

جميع معارفهما يطلقون على زوجته اسم « الملاك النحيل » !.. كانت شيئاً جامداً !

وفجأة ، نظرت اليه بتلك العينين السوداوين ، اللتين تشبهان عيني ناتاليا ، ثم قالت: «انك غير سعيد يا ألكسندر ؟!». واضطرب عندما سمعها تقول هذا ، وأراد أن يحول الأمر الى دعابة .. ولكنه ما لبث ان تبين عبث الكذب على هذه الفتاة التي تحبه ، فتناول يدها الطويلة الشاحبة ورفعها الى شفتيه. ولم تقاوم ! .. كانت تحتفظ في اعماقها بذخيرة من العطف ، وبظمأ للحب وللعزاء !ورفعت اليه عينيها الذابلتين ، المكدودتين، وكأنهما تقولان له : **« خذني ! سبب لي ما تريد من ضر اذا شئت ، ولكن لا تعش شقيا ! »**

وفجأة ، تذكر انه وحيد معها ، وان ما عليه الا أن يمد يده فيتحسس صدرها الناعم ، وما لبث هواء الربيع ، الذي كان يجده مخففا لآلامه مهدئا لأعصابه ، أن ملأ نفسه بالرغبة حتى سرت الرعدة الى جسمه ! وشعر بشيء يذوب برقة في داخل نفسه ، مترقبا السعادة ! .. وأراد أن ينهض ليغادرها ، ولكن بدت في عينيها مظاهر من اليأس والرجاء جعلته يعود اليها ، ثم يحتضنها بين ذراعيه . وأخذت شفتاه تبحثان عن الشفتين الأخريين ، حتى وجدتاهما .. كانتا حارتين ، ساذجتين ، متحمستين !



المأساة

- ١ -

• في يوم ٦ نوفمبر عام ١٨٣٦ ، وقفت عربة أمام منزل فاسيلى اندريفتش زوخوفسكي – الذى كان لا يبعد كثيرا عن قصر تسارسكو سيلو – ونزل منها شاب فى العشرين من عمره فطرق باب الشاعر الكبير – ومربى أطفال القيصر . ولما أعلن عن اسم الزائر ، ارتسمت الدهشة على وجه زوخوفسكى الهادىء .. فانه لم يكن على صلة ود وثيق بآل جونشاروف ، ولذلك فان زيارة صباحية يقوم بها ابن الأسرة الأصغر تكون بلا شك مثار عجبه . وقال الشاب : « اى فاسيلى اندريفتش : اننى أعلم مقدار حبك لبوشكين ، ولذا سمحت لنفسى بأن ألجأ اليك فى مسألة على أعظم وجه من الخطورة ! » فارتسم القلق على وجه الشاعر الطيب ، وسأل : « هل وقع حادث لبوشكين ؟ » .

وأجاب الشاب : **« ان تدخلك أنت وحدك يمكن أن يحول دون وقوع كارثة ، فان حياة بوشكين وشرف أختى فى كفة القدر ! .. لقد تحدى بوشكين جورج دانتيس ودعاه للمبارزة ! »**

وشحب وجه زوخوفسكى ، وظل لحظة لا ينبس ببنت شفة . ثم نهض فأخذ يسير فى الحجرة ذهابا وجيئة . وصاح وقد اصابه اضطراب شديد : « كان لا بد ان يحدث هذا ! لقد كنت أخشى وقوعه منذ عام . انه منذ عامين يتعذب عذاب الموت ، على يد دانتيس ، وملاحقاته ، والشائعات .. » . وكان على وشك أن يضيف : « والرقباء ومضايقاتهم » ، ولكن السنوات التى قضاها فى القصر جعلته حريصا فى حديثه . وبعد صمت قصير استطرد يقول : « يا للنفس المسكينة ! انه شديد الحساسية ، شديد الاخلاص . ولكن كيف وقع هذا ؟ »

وأخذ الشاب يقص ما حدث ، فقال : « لقد تلقى بعض اصدقائنا صباح أمس طرودا عن طريق البريد تحتوى على ورقة موجهة الى بوشكين ، وقد أعدمها بعضهم ، مراعاة لحقوق الصداقة . ولكن البعض أرسلها الى بوشكين .. **وهكذا تلقى ثلاثة من هذه الطرود ، التى كانت تحتوى على نص شهادة (دبلوم) ساخرة ، سمى فيها بوشكين « زوجا مخدوعا ! »** » . وقفز زوخوفسكى من مكانه وقد أخذ أنفه يهتز لفرط الغضب ، وصاح : « أى انحطاط هذا ؟ أى سفالة هذه ؟ ! آه .. اننى لأرى آثار أيديهم فى هذا العمل ! انهم لن يستريحوا الا بعد أن يوردوه موارد الدمار ! » .

ووقف سيرجى جونشاروف وقال : « يافاسيلى اندريفتش : ان لك عليه تأثيرا كبيرا ، وسوف يصغى اليك .. فحدثه واقنعه بأن هذه الدعابة الوقحة لا تستحق منه أن يخاطر بحياته ! فكر فيما يمثله بوشكين لروسيا ، وفكر فى شقيقتى المسكينة ، وفى أولادهما ! » . فأجاب الرجل : « اننى أشك فى نجاحي ، ولكنني سأفعل كل شيء ممكن لانقاذ بوشكين ! » .

وبعد نصف ساعة كانا فى منزل بوشكين . ووجداه هادئا ، يكاد يكون مرحا ، وكأنه قد قام لفوره بعمل فى سبيل الحرية ! كانت الهزات العصبية التى تنتابه من وقت لآخر هى وحدها التى تعبر عن اضطراب روحه الجريحة . وشعر الرجل الكبير بالدم ينزف من قلبه حين لمس حال صديقه .. فقد كان يحب بوشكين ، وكان قد تتبع تقدمه وذيوع شهرته ، حتى أصبح الشاعر الوطنى الأول فى روسيا .

وقاده بوشكين الى غرفة مكتبه ، حيث قال له : « اننى لا أريد أن تعرف زوجتى شيئا عن هذا الموضوع » . فأمسك زوخوفسكى بكلتا يديه وقال له : « أرجوك يا ألكسندر أن تعود الى صوابك ، وان تفكر فى زوجتك .. هل تريد أن تجر اسمها الى مثل هذه الفضيحة ؟ »

وقدم له بوشكين الرسالة : « **ان السادة والقادة والفرسان من أعضاء اتحاد الأزواج المخدوعين السامى قد اجتمعوا بكامل هيئتهم ، برياسة السيد كلى الاحترام رئيس الاتحاد صاحب السعادة د . ل . ناريشكين ، وقرروا بالاجماع انتخاب مسيو ألكسندر بوشكين مساعدا للسيد الرئيس الأسمى لاتحاد الأزواج المخدوعين ، ومؤرخا للاتحاد - السكرتير الدائم للاتحاد : كونت بورتش** »

وانتفض زوخوفسكى اذ وجد الرسالة الوقحة قد حررت بحروف تشبه حروف الطباعة ، وعلى ورقة بيضاء سميكة .. كان لا بد ان يكون كاتبها من رجال الطبقة الراقية ، اذ كانت لغتها الفرنسية سليمة . لا شك ان صانعها كان رجلا عليما بمؤامرات القصر ! لقد كان ناريشكين زوجا لامرأة جميلة جدا ، كانت خليلة القيصر ألكسندر . وكانت الرسالة توحى بأن ناتاليا قد أصبحت هى الأخرى خليلة القيصر . ووضع زوخوفسكى الورقة بهدوء على المكتب ، ثم قال : « ان هذا عمل يدعو للاشمئزاز . والخطابات التى يغفل اصحابها الامضاء



لوحة تاريخية نادرة للفنان « تشيرنيتزوف » تمثل الأصدقاء الأربعة فى عام ١٨٣٠ ، وهم : (١) الشاعر بوشكين (٢) الأديب كريلوف (٣) زوخوفسكى (٤) جنيديتش

يجب ان تقابل بمنتهى الاحتقار . والى جانب هذا : ما الذى يدفعك الى الاعتقاد بأن لدانتيس يدا فى هذا الأمر ؟ »

وقفز بوشكين عن مقعده وشفتاه ترتعشان ، وقد تحول بياض عينيه الى لون الدم . وقال : **« اننى لأرى فيه سبب هذه الاهانة التى لحقتنى .. وملاحقاته لزوجتى هى التى أثارت هذا الهمس الذى سمم حياتى منذ عامين . ولقد قررت أن أضع حدا لهذا . ولو قتلته ، فسيكون مصيرى النفى ، ولست أطلب شيئا أفضل من أن أغادر سانت بطرسبرج . أما اذا قتلنى ، فستكون هذه أيضا .. طريقة للخروج ! »**

وأخذ يسير فى الحجرة ذهابا وجيئة ، ثم قال : « لقد نظمت شئونى كلها ، فكتبت خطابا لوزير المالية ووضعت تحت تصرفه المائتى عبد والقرية التى وهبنى اياها والدى عندما تزوجت .. وهذا يكفى لسداد الدين الذى اقترضته من الخزانة ، وهو لا يزيد على خمسة وأربعين ألف روبل . ولن أدفع فوائد امبراطورية بعد اليوم ! أما عن ديونى الأخرى فاننى سأنظر فى أمرها فيما بعد » .. فقال زوخوفسكى : « ولكن لماذا تجازف بحياتك ؟ اننا كلنا نعرف أن زوجتك بريئة ! » . ودار بوشكين فى الحجرة ثم قال : **« ليس كافيا ان يعرف اصدقائى ان زوجتى بريئة ! ان زوجتى ملاك ، ولا يمكن لشبهة ما أن تمسها . ولكن اسمى اصبح ملكا لبلادى ويجب أن يحترم فى كل مكان يتردد فيه . ولهذا السبب ، يجب أن أقتل دانتيس أو أتركه يقتلنى ! »**

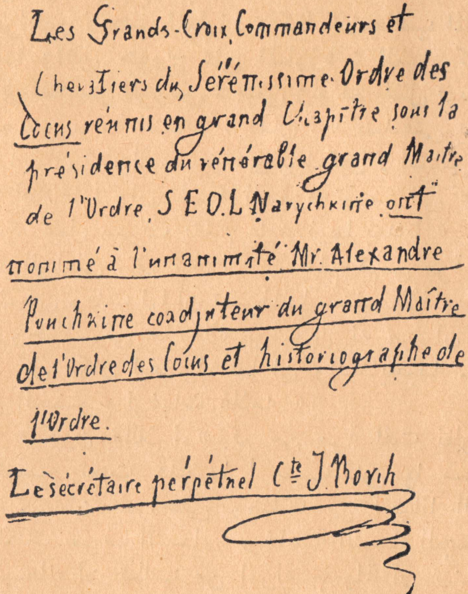
وذهب الى النافذة ، فبدا شكله هناك ــ وقد أولى ظهره للضوء ــ أنحف من حقيقته . ثم قال فى هدوء ، دون أن يغير من وقفته : « لقد تحدثت الى زوجتى فأخبرتنى بكل شىء .. لم يكن بينها وبين دانتيس سوى غزل برىء ! ربما كان يجذبها اليه ــ فان به من الصفات ما يجذب النساء ــ ولكنها لم تنس

قط واجباتها نحوى . وقد تحولت المسألة كلها الى سم بواسطة كلام الناس . والى جانب هذا فان ذلك الوحش الأسود هيكيرن ــ الذى يدعو نفسه والد دانتيس بالتبنى ! ــ يلاحقها فى كل مكان ليقول لها ان ولده يحبها .. وهو يحرضها على الخضوع لرغبات غلامه ! » . وانقطع عن الحديث اذ رن صوت الجرس . ودخل أحد الخدم ليعلن عن قدوم البارون فان هيكيرن ، فقال بوشكين فى حدة : « فليدخل ! »

ودخل البارون ، وقد بدا عليه التحفظ والضيق .. كان طويلا نحيلا ضيق الكتفين . وأخذت عيناه الخضراوان تتنقلان من شىء الى آخر ، كطير طاعن نتف ريشه ! وأخذ يتحدث عن شعوره الأبوى نحو دانتيس ، فأصغى بوشكين اليه فى صمت بارد ، وقد علت وجهه المعبر بسمة احتقار . وأنهى البارون حديثه بالجلوس على حافة أحد المقاعد ، دون أن يدعوه أحد للجلوس . وقال : « **ان جميع الآمال التى بنيتها على مستقبل ولدى قد هدمت فى نفس اللحظة التى ظننت فيها اننى أتممت مهمتى . ومع ذلك فاننى أقبل التحدى يا مسيو بوشكين ، لأن شرف جورج أغلى عندى من حياته !** »

. ونظر البارون الى بوشكين باهتمام ، ليرى ان كانت كلماته قد أحدثت التأثير المطلوب فيه . فلما رأى الشاعر لائذا بصمته ، استمر فى حديثه ، فذكر أنه جاء دون علم جورج لكى يطلب مهلة . فهل يمكن للمسيو دى بوشكين أن يمنحه أسبوعين ؟ ان أسرة جورج ، وهو نفسه ، ليكونون شاكرين ــ فى هذه الحالة ــ للمسيو دى بوشكين . ان مسيو دى بوشكين قد يفكر فى الأمر مليا ، ومن المؤكد أنه سيكتشف أنه لا ضرورة لهذه المبارزة ، فان المسيو دى بوشكين وابنه جورج يمكن أن يتفاهما وأن يتبادلا التقدير !

ووافق بوشكين على كل ما طلب منه ، وذلك حتى يتخلص من وجود البارون .. على أنه أصر على ضرورة وقوع المبارزة !


Les Grands-Croix, Commandeurs et Chevaliers du Sérénissime Ordre des Cocus réunis en grand Chapitre sous la présidence du vénérable grand Maître de l'Ordre, S E O.L Narychkine, ont nommé à l'unanimité Mr. Alexandre Pouchkine coadjuteur du grand Maître de l'Ordre des Cocus et historiographe de l'Ordre.

Le secrétaire perpétuel Cte J. Borch

صورة زنكوغرافية نادرة « للخطاب المجهول » المؤرخ
فى ٤ نوفمبر عام ١٨٣٦ ، والذى منح بوشكين دبلوم « الزوج المخدوع »

* * *

• **قدم** زوخوفسكى للخادم قبعته العالية وعصاه ذات المقبض الذهبى ومعطفه ، وطلب مقابلة السفير الهولندى . كان زوخوفسكى متعبا .. فمنذ ثمانية وأربعين ساعة وهو يجوب شوارع سانت بطرسبرج ، سعيا وراء انهاء هذه المهمة الخطيرة . ولم تكن جهوده قد أثمرت بعد .. ولم يكن

هيكيرن المسن يود وقوع المبارزة ، لأنها قد تضر بمنصبه **.. وكان الامبراطور لايحب المبارزة ، كما كان يعاقب المتبارزين بقسوة . فاذا وافق جورج على المبارزة ، انتهى كل شيء بالنسبة اليه فى الجيش الروسى ، حتى ولو لم يقتل بوشكين .**

وبدأ يدافع عن براءة الشاب ، فقال : « صدقنى يا مسيو زوخوفسكى .. ان شكوك مسيو دى بوشكين لا أساس لها .. لا أساس لها اطلاقا ! وان نفسه الحقود تقوده الى عمل من أعمال الشر .. عمل سوف يندم عليه فيما بعد ! » . ورفع البارون عينيه الى أعلى ، ثم قال : « الله يعلم كم من مرة حذرت فيها مدام بوشكين وقلت لها أن تصرفاتها ستثير الأقاويل ! » . وهنا تذكر زوخوفسكى ما قاله بوشكين له من أن السفير « يلاحقها فى كل مكان ليقول لها ان ولده يحبها .. وهو يحرضها على الخضوع لرغبات غلامه »

واستطرد هيكيرن قائلا : « كم من مرة لفت نظرها الى الهوة التى تنفتح تحت قدميها ! صدقنى يا مسيو زوخوفسكى .. ان صراحتى وصلت بى أحيانا الى حد الوقاحة . ولكنك تعرف النساء ، وخاصة النساء الجميلات . هل فى وسعك أن تطلب من امرأة جميلة أن تتنازل عن انتصارات الغرور ؟ » . ووقف زوخوفسكى وهو يقول : « اننى لم أحضر الى هنا لأناقش تصرفات مدام دى بوشكين ، ولكن لكى أحاول ، بمساعدتك ، ايجاد وسيلة لتسوية الموضوع دون اراقة دماء .. فان ملاحقات ابنك المتوالية لزوجة صديقى أثارت أقاويل الناس ، مما اضطره الى طلب المبارزة معه ، ارضاء لشرفه ! » .. فأجاب هيكيرن : « ملاحقات ابنى لمدام دى بوشكين ؟ هل تتحدث عن ملاحقات ابنى لمدام دى بوشكين يا مسيو زوخوفسكى ؟ هل أنت واثق تماما أن عنايته كانت موجهة اليها ؟ .. لقد اعتاد حقا ان يلاحق مدام **بوشكين ، ولكنه لا يبحث عن صحبتها هى بالذات .. انه**

يسعى وراء شقيقتها التى تلازمها دائما ... كما تعلم ! » .
فنظر اليه زوخوفسكى فى ذهول ، ثم قال : « تقصد ألكسندرا ؟ »
ـ لا ! ليست الآنسة ألكسندرا .. فان ابنى يحب الآنسة كاترين جونشاروف ، شقيقة مدام بوشكين الكبرى . انها هى التى يسعى الى لقائها بالتردد على كل مكان تذهب اليه زوجة صديقك . **وقد طلب منى جورج لتوه التصريح له بالزواج منها !**

ونظر البارون الى زوخوفسكى نظرة ذات معنى ، ومر بيده ، كما كانت عادته ، على وسام صليب سانت آن الذى كان يتدلى من عنقه . ثم استطرد يقول : « دعنى أوضح ما أقول يا مسيو زوخوفسكى ، فأنت رجل ممتاز ! لو طلب ابنى الآن يد الآنسة جونشاروف ، فقد يفسر طلبه هذا على أنه محاولة لتفادى المبارزة ، وهى نتيجة لا أود الوصول اليها مهما يكلفه الأمر . فى حين أن المسيو بوشـكين لو سحب تحديه .. لعلك تفهم ما أقول ؟ » . فنظر اليه زوخوفسكى وقد ألجم لسانه .. فان كل هذه الحقارة ، مقترنة بكل هذه المهارة ، قد ملأت نفسه بنوع من الاحتقار لابد أنه كان ينطوى على شىء من الاعجاب ! **فهل ظنه هيكيرن ساذجا الى هذه الدرجة التى تدفعه الى تصديق قصة غرام دانتيس بكاترين الخيالية ؟ رجل الساعة . أجمل أفراد الحرس الراكب فى سانت بطرسبرج يقع فى غرام كاترين جونشاروف ، المعدومة الجمال ، المعدومة الذكاء .. التى لا تملك شروى نقير ؟ !**

ولكن ، صبرا ! فلم يقيم العراقيل فى طريق الوسائل ؟ اذا تزوج دانتيس من كاترين فستصبـح المبـارزة مستحيلة . الناس سيجدون مبررا لتصرف الشاب . ان المهم فى نظره هو انقاذ حياة بوشكين الثمينة !.. ولذلك فقد نهض من مكانه ثم قال : « **ان ما شرحته لى الآن يغير تماما من وجه المشكلة يا مسيو دى هيكيرن . وكل ما يمكننى أن أنصحك**

به ، هو أن تتقدم بطلب يد الآنسة جونشاروف فورا . أما عن نفسى فاننى سأذهب لكى أعلن هذه الأخبار السارة الى صديقى »

وكان متعجلا ، يريد الرحيل سريعا .. فقد سوى كل شىء مؤقتا ، فى الوقت الذى كان يظن أن الأمل قد ضاع . ومدالبارون يده ، ثم قال : «كلمة واحدة يامسيو زوخوفسكى . اننى أرجو أن يظل كل ما حدث سرا مكتوما بيننا ، فان كلمة واحدة تتسرب هنا أو هناك قد تضطر ابنى الى المبارزة ! » . فأحنى زوخوفسكى رأسه وهو يقول : « يمكنك أن تعتمد على فى ذلك ! »

- ٢ -

• تم زواج البارون دانتيس دى هيكرن من الآنسة جونشاروف بسانت بطرسبرج فى يوم ١٠ يناير ١٨٣٧، طبقا لطقوس الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية . وكانت كاترين شاحبة الوجه من التأثر ، وقد أضفت عليها السعادة جمالا . كانت منذ شهرين تعيش فى شبه حلم أبيض ، تحيط به « الدانتلا » من كل جانب ، اذ كانت قد بلغت السادسة والعشرين ، وكانت فقيرة ، تتميز بغرابة الشكل أكثر من الجمال .. وكانت تلمح أمامها مستقبلا يائسا — هو مستقبل العانس — بلا أى هدف فى الحياة . **ولم تكن مسئولة عن تلك السعادة التى جاءتها عفوا ! اذ لم يكن زواجها الا نوعا من الحاجز المصطنع (بارافان) ، قصد به انقاذ سمعة امرأة أخرى ، هى شقيقتها ؟ ولكن ماذا يهمها من كل هذه الأمور ؟ ان الحقيقة باقية ماثلة : فهى عروس أجمل رجل فى سانت بطرسبرج !**

وتحولت النظارات المفردة التى أمسك بها المدعوون — فى كنيسة سانت جيمس التى عقد فيها الزواج الارثوذكسى — الى شخصه .. كان يمسك شمعة صفراء غليظة فى يده ،

فينعكس ضوؤها على وجهه . وكان يبدو ، فى زيه الأبيض ، كالضحية التى ستقدم على المذبح ! .. وشعر الشاب بأنه محط الاهتمام ، فوقف منتصب القامة .. وأحس أصحاب الأرواح الحساسة بالعطف والرثاء له ، ولكنه هو لم يكن يشعر بأنه شقى .. حقيقة أنه غازل امرأة متزوجة ، ووجه اليه زوجها التحدى للمبارزة .. ولكن ها هو يتزوج بدلا من ان يدخل حلبة المبارزة ، وهذا أبسط .. فقد كان من عادته أن يمسك بالحياة ، كما يمسك المرأة ، من وسطها !

وبعد اتمام المراسم الدينية ، أقيم احتفال فى منزل السفير الهولندى . وأخذت العروس ترقص معزوجها ، وهى ترنو اليه فى وله ! .. وفجأة ، حدثت جلبة فجائية ، وانفسح حشد المدعوين أمام امرأة وصلت الى الحفل .. وكانت ناتاليا بوشكين ـ وكان غيابها هى وزوجها عن احتفال الكنيسة ملحوظا من الجميع ! ـ وكان التأثر باديا عليها . وقبلت شقيقتها ، كما قدمت يدها لزوج شقيقتها ، وقالت له فى اخلاص : « اننى سعيدة من أجلك ! » . لم يكن فى وسعها أن تحب أو تكره فى عمق أو اسراف ، فان روحها البسيطة كانت قد خلقت للخضوع ، وكان انشغالها باعداد جهاز شقيقتها خير عزاء لها عن فقد حبيبها !

وطلب منها دانتيس أن تراقصه . وما لبث أن حملها كفريسة راضية طيعة ، وأخذ يدور بها فى حلبة الرقص . ان التضحيات التى بذلها من أجلها قد جعلتها أعز على نفسه ، وجعلته اكثر اشتهاء لها ! .. وتحولت اليهما الأعين كلها ، ولكنهما ـ فى أثناء دورانهما ومرورهما بأصحاب هذه الأعين ـ لم يلحظا نظرات الدهشة المنبعثة منها ، ولم يلحظا كذلك الشحوب الذى علا وجه العروس . انهما معا ، تحت هذه الشموع ، والمبارزة لم تقع ، وبوشكين غير موجود ! واذن ، فان

رباط الصلة الذى يجمع بينهما لا شك يبرر شيئا من رفع الكلفة !

- ٣ -

• فى يوم الاثنين ٢٥ يناير عام ١٨٣٧ ، وقف رجل أمام ثكنات الحرس الراكب فى سانت بطرسبرج ، ثم اخذ يسير ذهابا وجيئة . كان طويل القامة ، يضرب شعره الى اللون الأحمر. وكان معطفه العسكرى ذو الأطراف المصنوعة من الفراء ، ملقى على كتف واحدة من كتفيه ، على الرغم من شدة البرد التى جعلت أنوف المارة تبدو زرقاء اللون .. وما لبث ان انضم اليه أحد الضباط وقال له : « هه يالانسكوى ! ألا تزال تقوم بدورك فى الحراسة تحت نوافذ مدام بوليتيكا ؟ يا لك من فارس مغوار ! » . وابتسم لانسكوى فى طيبة ، فان عواطفه نحو زوجة زميله « بوليتيكا » كانت معروفة لكل انسان ، حتى لزوجها ! وكانت مدام بوليتيكا شقراء طويلة ، مرحة ، شريرة ، تصفف شعرها بطريقة معقدة ، وتحمل اسما غريبا هو ايداليا. وكانت علاقتهما السطحية من النوع الذى يقبله المجتمع !

وظل لانسكوى ينتظر بعض الوقت ، حتى لحق به ضابط يرتدى زى الملازم فى الحرس الراكب ، ويبدو منشغل البال. وقال له القادم « هل تعرف ما عليك أن تصنع ؟ »

ـ لقد أخبرتنى ايداليا بما هناك .. سوف اقوم بالحراسة هنا خارج مسكنها ، على أن أقوم بالتحذير المطلوب لو لاحظت شيئا يثير الشبهات ! .. دع القلق ، فان هذه ليست أول مرة أقوم فيها بمثل هذا العمل !

وانفجر لانسكوى ضاحكا وهو يقول الجملة الأخيرة ويغمز بعينه . **أخيرا ، وقع هذا الفتى دانتيس ! انه ينتزع أجمل امرأة فى سانت بطرسبرج من بين أسنان أشد الأزواج غيرة فى روسيا !** .. واخذ يربت بيده ظهر زميله وهو يقول : « اذن

فانها ستحضر ؟ »

ـ لا أعرف ، ولكنى هددتها بأننى سأقتل نفسى اذا لم تحضر !

ـ اوه ! اذن فأنت تجرب الوسائل اليائسة ؟ !

ـ ان الوسائل لا تهم .. النتائج هى المهمة !

وابتسم الاثنان معا لفكرة « النتيجة » التى ستتحقق وراء هذه النوافذ التى حرصت ايداليا على اغلاقها قبل أن تغادر المنزل . ولما كانت عشيقة لا نسكوى هى التى رتبت هذا الموعد، فقد نشأت صداقة بين العاشقين الناجحين ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يخفيه أحدهما عن الآخر ! .. ودخل دانتيس المنزل ، وصعد السلم ، بينما استأنف لانسكوى الحراسة . وأخذ يتبع ، بفكره ، صديقه وهو يدخل المنزل الذى كان يعرفه حق المعرفة .. لا شك ان ايداليا قد وضعت الزهور فى كل مكان ، كما اسدلت الستائر ، وأوقدت المصباح المستدير الذى يلقى ظلالا هنا وهناك .. يا للفاجرة! لماذا تعهدت بان تقوم بدور الوسيطة؟ **هل كان الباعث على ذلك هو حب الاستطلاع ؟ هل كان ذلك لشدة رغبتها فى اسقاط المرأة الباردة الجميلة التى كانت احدى صديقاتها ؟ أم لأنها كانت تكره بوشكين ؟ !** انه هو نفسه لم يكن يميل الى تلك المراة الغريبة السافرة . وعلى أية حال ، فمن هو بوشكين هذا ؟ صحفي .. شاعر ! ان الناس كانوا يفتحون له أبوابهم لأنه من أسرة كريمة ، ولأن القيصر كان يحب زوجته ! ..

واستأنف لانسكوى السير ذهابا وجيئة ، ومع ذلك فان شيئا ما ـ فى داخل نفسه الشريفة ! ـ حدثه أن كل هذه الاسباب لاتبرر الاشتراك فى عمل من أعمال انتهاك العرض ، حتى ولو كانت من النوع الممتاز ! ولكن مهلا ، فان كل واحد كان يعرف ان بوشكين كان على علاقة آثمة بشقيقة زوجته ! .. وأخيرا ، وقفت عربة أمام المنزل ونزلت منها

امرأة تسدل على وجهها نقابا ، فأدار لانسكوى ظهره متظاهرا بأنه لايرى شيئا . ولما استدار من جديد ، لم يرها ، فاستمر فى سيره أمام المنزل .

* * *

• **عندما** أرسل بوشكين يستدعى زوجته ، فى صباح أحد الأيام التالية ، أحست على الفور بأنه يعرف كل شيء . وسلمها خطابا وهو يقول لها : « اقرأى هذا » . ولكنها لم تكن فى حاجة لان تقرأه ، فاعترفت فى الحال : « نعم ، لقد ذهبت الى الموعد ! » .. هل كان فى وسعها أن تعرف أن خطاب دانتيس اليائس ـ ذلك الخطاب الذى هدد فيه بالانتحار وبقتل زوجته فى نفس الوقت ! ـ لم يكن الا خدعة عاشق ؟ هل كان فى وسعها أن تعرف أن الموعد المحدد لم يكن الا مكيدة مدبرة ، وان كل شيء قد أعد لالقائها بين ذراعى حبيبها ؟ ! ولكن ، من ذا الذى يصدق الآن انها قاومت ، وصاحت تطلب العون ، وهربت ؟

وطلب منها زوجها أن تتركه وحده .. طلب منها ذلك فى هدوء مثقل بقرارات هائلة ، وظل ساعة يسير ويسير فى حجرته . وجاء الليل بسرعة كأنه يتعجل الحوادث .

لقد كان كل هذا كافيا لان يفقد أى انسان صوابه ! : منذ شهرين كان يظن انه انتهى من موضوع دانتيس .. كان انتقاما هائلا ، عميقا .. فقد اضطر خصمه ، تحت تأثير التهديد بالسلاح ، الى الزواج . وكان الناس لا يزالون يضحكون فى العاصمتين من هذا الموضوع . ولو كان قد قتل دانتيس فى المبارزة لربما ظلت ناتاليا تحتفظ فى نفسها بذكرى بطل عاشق مات لكى ينقذ شرفها . أما وقد أنقذ نفسه ، فما كان يسعها الا الضحك من هذا العاشق الذى احتمى وراء ملابس امرأة !

هكذا كان يفكر ألكسندر .. ولكن لم يمض على الزواج اسبوعان،حتى اثير الموضوع من جديد،اذ بدأت مجتمعات سانت بطرسبرج المرحلة من جديد ، وكان دانتيس لايزال هو بطل الساعة ، رغم زواجه .. بل لقد زاد الزواج من شهرته !.. ولم يبعد عن ناتاليا اطلاقا . ألم تكن شقيقة زوجته ؟ ألم تكن التضحية تستحق شيئا من المكافأة ؟! ولكن لقاءهما السرى كان النقطة التى جعلت الكأس تفيض بما فيها! ناتاليا: ملاكه، ملكته، عذراؤه السمراء ، يزج بها فى هذا الجو الفاسق .. جو الطبقة الراقية ؟! أم أولاده ، يلقى بها على أريكة فيما يشبه الفصل التمثيلى الهزلى ؟!.. كادت هذه الصورة تجره الى الجنون !.. واعتمد رأسه بين يديه وبكى . وخففت الدموع من عبء الغضب البارد الذى استبد به . **انه لم يشعر بكراهية نحو زوجته . نعم ، انه كان واثقا ان كل شيء قد حدث كما وصفته له: لقد وقعت فى مكيدة.. لقد ألقى بها الى ذراعى دانتيس.. لقد ارتكبت خطأ لا جرما !.. وبقيت ثقته فيها قدسية كاملة! كان فى حاجة الى ان يصدقها !**

ولكن من المسئول ؟ هل كان هو الشاب الجميل ؟ كلا !.. بل المسئول هو الجماعة الراقية كلها ، من آل بوليتيكا وتسيلرود ، وجميع هؤلاء الألمان والمنتسبين للبحر البلطى ، ممن كانوا يتلقون أوامرهم من مترنيخ ، والذين كان القيصر يحيط نفسه بهم ، اذ كان يخشى النبلاء الروس منذ ثورة ١٤ ديسمبر . وكان على رأس هؤلاء ، هيكيرن . ذلك الرجل الأسود القلب ، المحاط بالذهب ، والذى لم يكن فى وسعه أن يغفر له - أى لبوشكين - ما سببه له من أيام قلقة ، ولا ذلك الزواج السقيم الذى تم بسببه . هيكيرن الذى كان يغرى ناتاليا على ارضاء رغبات «ابنه» .. هيكيرن الذى رتب الموعد، والذى سبق ان أرسل له «الدبلوم» الذى تلقاه يوم ٦ نوفمبر!

ولكن ، ماهو الحل الآن ؟ أيتحدى دانتيس في مبارزة جديدة ؟ أنه سيجد حيلة ما لكي يتحاشى القتال . اذن ماذا ؟ .. وفتح درجا من ادراج مكتبه ، وأمسك بكراسة تحوى الكثير مما دونه . انه بعد اليوم الذى تلقى فيه «الدبلوم» الذى ضمه الى زمرة الأزواج المخدوعين ، كان قد حرر خطابا الى السفير الهولندى .. خطابا مملوءا بالشتائم المقذعة والاهانات التى لايمكن ان تغسل الا بالدم .. ان هذا الخطاب سوف يحقق له اليوم أغراضه :

« سيدى البارون : فلتسمح لى أن أستعرض ما حدث . اننى على علم بسلوك ابنك منذ مدة طويلة ، وما كان فى وسعى ان أغض الطرف عنه . ولقد قنعت بدور المراقب ، مستعدا للتدخل فى الوقت الذى أعتبره مناسبا . ثم وقع حادث ساعد ، لحسن الحظ ، على حل المشكلة .. ولو وقع هذا الحدث فى أى وقت آخر لوجدته مشئوما . وقد تلقيت عدة خطابات معينة بدون امضاء ، فعرفت ان الفرصة قد سنحت . وأنت تعرف بقية ما حدث : فقد أجبرت ابنك على أن يمثل دورا يدعو للرثاء ، حتى أن زوجتى لم تتمالك نفسها من الضحك بعد أن أذهلها جبنه وسفالته .. ولا شك أن الشعور الذى قد يكون داخلها – بعاطفة سامية نبيلة – اندثر فى سخرية هادئة ، واحتقار حل مكانه تماما !

« واننى مضطر الى الاعتراف ، ياسيدى البارون ، بأن دورك فى هذا الموضوع لم يكن دورا لائقا . فأنك ، انت الذى تمثل أحد الرؤوس المتوجة ، قد تصرفت من الوجهة الأبوية تصرف القواد للسيد الصغير ابنك ! ويبدو أن كل تصرفاته (وهى ملأى بالأخطاء) كانت موجهة منك : فأنت بلا شك الذى أمليته ما كتب من أشياء تدعو للأسف ، ومن سخافات أخذ على عاتقه تحريرها . وانت – مثل اية امرأة فاجرة عجوز ! – الذى

كنت تتربص فى كل ركن مظلم لزوجتى ، كى تحدثها عن غرام غلامك، سواء أطلقوا عليه ذلك مجازاً أم حقيقة ! وعندما أصيب بالجدرى واضطر الى ملازمة منزله ، قلت انه كان يموت بسبب حبه لها ، وقلت لها : ((ردى الى ابنى)) !

((ويمكن ان تفهم من هذا جيدا ، ياسيدى البارون ، اننى لايمكن ان أسمح لأسرتى بعد كل ما حدث أن تكون لها أدنى صلة بأسرتك . ولقد كان على أساس هذا الشرط أن وافقت على اغفال هذا الموضوع القذر ، حتى لا ألوث شرفك فى عين بلاطنا وبلاط بلادك ، كما كان فى وسعى وفى نيتى أن أفعل ! فأنا لا أحتمل بعد اليوم ان تصغى زوجتى لمطالبك ((الأبوية!))، ولا يمكن أن أسمح لابنك ، بعد سلوكه الوضيع ، بأن يوجه الحديث الى زوجتى ، ولا يمكن ان أسمح له بأن يخدش أذنها بنكات ثكنات الحرس ، وبأن يمثل أمامها دور العاشق المخلص التعس ، فى حين انه ليس الا جبانا وسافلا

((ولهذا فأنا مضطر الى أن أتوجه اليك ، لأطلب منك أن تضع حدا لجميع هذه المناورات ، اذا كنت تريد أن تتحاشى وقوع فضيحة جديدة أؤكد لك اننى لن أتراجع عن اثارتها فى هذه المرة

((وانه ليشرفنى ، ياسيدى البارون ، أن أكون خادمك الخاضع المطيع : ألكسندر بوشكين))

- ٤ -

• استمر الثلج يتساقط طوال الليل فى هدوء . وكانت الشمس الشاحبة الضعيفة ، التى لم تكد تشرق ، قد أخذت فى الهبوط من جديد الى الأفق كأنها تتعجل الهروب من ذلك الجو ! وظهر بوشكين فى الشارع، وأشار الى احدى الزحافات ، فأقلته الى مقهى وولف (وكانت جميع المشارب فى سانت

بطرسبرج ألمانية ، وجميع المطاعم فرنسية !) . وجلس ، ثم طلب كوبا من شراب الليمون ، ونشر أمامه ورقا . كانت النساء حوله يتحدثن وهن يتناولن قطع الحلوى التى صنعت على طريقة فيينا المشهورة . وانتظر طويلا . وفى الساعة الرابعة ، دخل « دانزاس » واتجه الى مائدته . كان من زملائه فى الدراسة بالكلية، ولكنه أصبح الآن ضابطا فى سلاح المهندسين . وكان يبدو منشغل الفكر عندما أخرج من جيبه ورقة نشرها بوشكين أمامه وأخذ يقرأ ما فيها: **« شروط المبارزة بين المسيو جورج دانتيس والمسيو بوشكين :**

« ١ - يقف الخصمان على مسافة عشرين خطوة ، كل على بعد خمس خطوات من كل حاجز من الحاجزين اللذين ستفصل بينهما عشر خطوات

« ٢ - سوف يتسلح كل منهما بمسدس ، وعندما تعطى الاشارة ، يمكن أن يتقدم كل منهما نحو الآخر ، دون أن يتعدى الحاجز الذى أمامه بأى حال من الأحوال ، ثم يستخدم سلاحه

« ٣ - زود الشاهدان ، فى هذا الصدد ، بكامل السلطات ، وهما يتعهدان بشرفهما بملاحظة تنفيذ الشروط الآنفة الذكر ، كل من جانبه

« حرر فى منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢٧ يناير سنة ١٨٣٧

« توقيع : كونت دارشياك ، الملحق بالسفارة الفرنسية . قسطنطين دانزاس ، الضابط بسلاح المهندسين . » وقال بوشكين بعد ان قرأ الشروط : «حسنا!» . ثم غادر الصديقان المقهى واستقلا زحافة . ولازم دانزاس صمته . وكانت الريح الشديدة تقذف الى وجهيهما بغبار متجمد كان يلسعهما فى عيونهما ، كما كانت السحب المنخفضة تعلن عن مزيد من الثلوج . وكانت فصائل سعاة المصالح ، فى ملابسهم الخضراء

وأشكالهم الكئيبة ، قد أخذت تغادر الوزارات . **وغاض قلب دانزاس . كان كل شيء يبدو عاديا ، وكان الناس فى طريقهم الى مقار أعمالهم ، أما هو فربما كان يشيع ، الى مقره الأخير، أول وأعظم شاعر ظهر على أرض روسيا !**

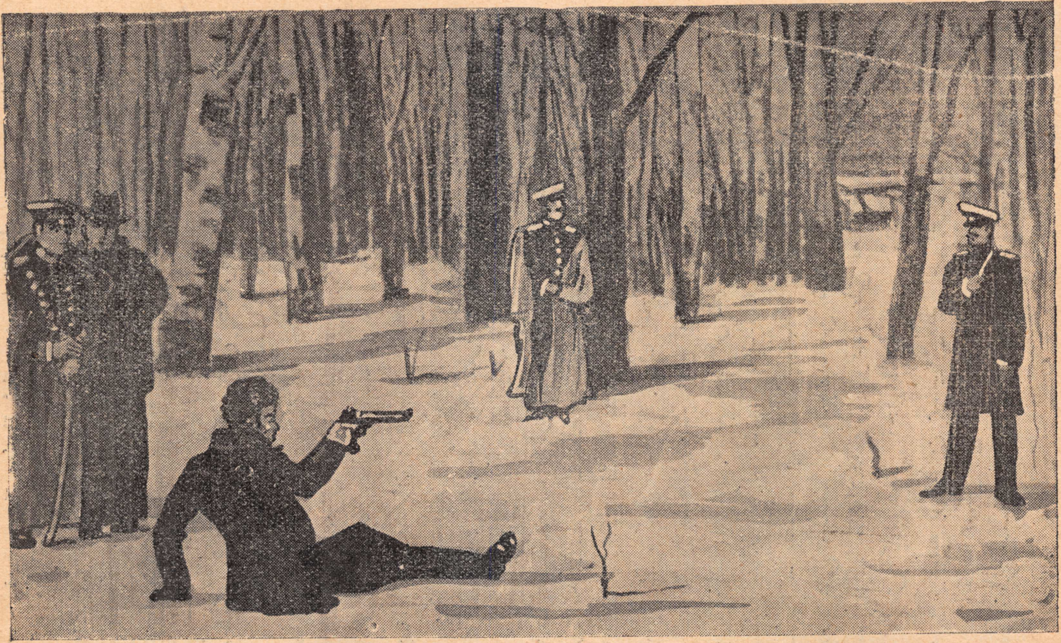
وقال بوشكين : « هل تقودنى الى حصن بيتروبول ؟ »

ـ لا .. ها نحن قد وصلنا تقريبا ، وها هى ذى زحافة عربة خصمنا .

وأخذ الشارع يتحول رويدا الى طريق ، وحقول الثلج تحل محل الغابات الصغيرة ، على الجانبين . وتوقفت الزحافتان ، ثم نزل منهما الشاهدان وأخذا فى البحث عن مكان مناسب للمبارزة . وكانا يسيران فى بطء ، اذ كانت أقدامهما تغوص حتى الركبة تقريبا فى الثلج. واختارا مكانا تحيط به الأشجار الصغيرة ، وسأل دارشياك بوشكين عما اذا كان يرى المكان مناسبا ، فقال بوشكين : « ان الأمر سواء بالنسبة لى . كل ما أرجوه هو أن تنتهى المسألة سريعا ! » . قال ذلك وجلس على كومة من الثلج .. كان الجو يبدو مليئا بالأشباح ! وأخذت الغابات تتحول الى كتل سوداء فوق الجليد الأبيض ..

وألقى الشاهدان معطفيهما على الجليد ، ليعين كل منهما الحاجز المعين لموكله المتبارز، ثم بدأ كل منهما يحشو المسدس. ونادى بوشكين قائلا: « ألم تنتهيا بعد ؟ » . كان نافد الصبر ، يريد أن ينتهى سريعا . وكان الاستعداد يثير أعصابه ، كما كانت أصابعه على وشك أن تتجمد من شدة البرد ! وأخيرا ناداه دانزاس طالبا منه التقدم. وأوقفه على بعد خمس خطوات من معطفه الذى كان يمثل أحد الحاجزين ..

ولأول مرة ، رفع بوشكين عينيه ونظر الى الرجل الذى كان يقف أمامه . أخيرا تمكن من ان يجىء به ، وأن يضعه على بعد عشرين خطوة من مسدسه . كم من مرة فكر فيها أن يصوب



لوحة مشهورة للفنان « تشيتشاجوف » ، تمثل مشهد
المبارزة المشئومة التى أودت بحياة بوشكين !

طلقاته على تلك الجبهة الشاحبة ، التى ربما استقرت عليها شفتا ناتاليا ـ احيانا ـ فى حب ؟ !

ونظر الى دانزاس، كأنه يستحثه على الاسراع باشارة البدء، ثم رآه وهو يشير بقبعته فى تمهل ، فسار نحو الحاجز وهو يرفع مسدسه . وفجأة ، سمع صوت مقذوف نارى ، وفى نفس الوقت صدمه شىء فى جنبه، كما لو كان ضربة من قبضة يد . ومادت الأرض تحت قدميه، ثم شعر بأنه يسقط فى هوة مظلمة صامتة . وأسرع اليه شاهده . وفجأة ، ثاب بوشكين الى رشده (وكان قد بدا له كأن قرونا طويلة قد مرت منذ سقط) وحاول أن يرفع نفسه عن الأرض ، وهو يستند الى يده اليسرى . . كان يشعر باعياء شديد ، وكان جسمه ثقيلا كالرصاص . وقال : **« انتظر ، فاننى أشعر أن فى وسعى أن اصوب طلقتى ! »**

ووضع دانزاس مسدسا آخر فى يده ، اذ كان مسدسه قد سقط فى الثلج . وصوب بوشكين المسدس ، وجذب الزناد ، فرأى خصمه يسقط على ركبتيه . . ثم رأى الدنيا تدور من حوله مرة أخرى ، فأفلتت أصابعه المسدس . وأسرع اليه دانزاس عدوا ، ورفع رأس صديقه ، ففتح بوشكين عينيه فتحة صغيرة . . وانحنى عليه دانزاس ، فسمعه يقول : « هل مات ؟ »

ـ لا ، بل جرح فى ذراعه وصدره !

وتمتم بوشكين قائلا : « انه لأمر غريب ، فقد كنت أظن أن موته يسبب لى سرورا، ولكنى الآن أشعر بأن هذا غير صحيح! » . وكان الدم الذى انساب من جنبه الأيسر قد كون بركة صغيرة حمراء على الثلج ، أخذ البخار يتصاعد منها فى الهواء البارد ! واقتربت الزحافة من الرجل الجريح ، فحمله دانزاس الى داخلها ، وقد أدمى قلبه أن يكتشف أن صديقه فى خفة المرأة .

وتساءل : كيف يمكن لمثل هذا الجسم النحيل المرن أن يضم عبقرية كهذه ؟.. ثم طلب من الحوذى ان يسير على مهل

وكانت الساعة قد بلغت السادسة عندما اقتربوا من منزل بوشكين . وذهب دانزاس يدعو الخدم ، فأقبلوا وقد أصابهم الذعر . وتقدم خادم بوشكين الخاص ، فحمله كما لو كان طفلا . وكانت ناتاليا تطرز فى حجرة الجلوس عندما أعلن اليها فجأة وصول دانزاس . دانزاس ؟ماذا يصنع هنا فى هذه الساعة ؟ انها لم تكد تراه مرة واحدة ، هذا الصديق القديم لألكسندر ، زوجها . وعندما دخل عليها ، رنت اليه فى نظرة رعب وكأن شعورا داخليا بالحادث المروع قد مس شغاف نفسها الهادئة لأول مرة ! .. وشرح لها ، فى شىء من الحرج ، حقيقة الأمر ، فنهضت وأسرعت نحو الباب ، بعد ان أزاحت بيدها دانزاس . وظهر خادم بوشكين الخاص وهو يحمل سيده بين ذراعيه ، وقد كف عن كل حركة . ورفعت ناتاليا ذراعيها ثم سقطت دون حس عند قدمى دانزاس .

* * *

– **ما رأيك** فى جرحى ؟ عند ما وقع الحادث أحسست بضربة ثقيلة فى جنبى وألم حاد فى ظهرى . وفى الطريق الى المنزل نزفت منه كمية كبيرة من الدم

– لا يمكن أن أخفى عنك ان الجرح خطير !

– فى وسعك أن تقول لى ما هو أشد من ذلك وقعا . هل هو مميت ؟

– ان من واجبى ألا أخفى ذلك عنك .. وعلى أية حال فلننتظر حتى يدلى كل من الدكتور آرنت والدكتور سولومون برأيهما ، فسوف يحضران فورا ..

كان بوشكين ملقى على الأريكة الضيقة فى حجرة مكتبه .

ووقعت عيناه على كتبه ـ أصدقاؤه القدامى المخلصون ـ انهم أكثر اخلاصا من الناس ! ورفع يده الى جبهته الرطبة وأغلق عينيه . ثم قال للطبيب : « أشكرك . لقد كنت أمينا معى ! يجب الآن ان أنظم منزلى ! » . فانحنى الطبيب على الأريكة ، ثم سأله : «هل تحب أن ترى احدا من أقاربك أو اصدقائك؟»

ـ اذن فأنت تظن أننى لن أعيش حتى الليل ؟

ـ لا ، مطلقا ! بل لقد ظننت ان هذا قد يسرك !

وحول بوشكين عينيه نحو الحائط، وانفلتت من بين شفتيه السليمتين آهة موجعة اذ قال : « وداعا يا اصدقائى ! »

وكان من المستحيل على أحد أن يحكم اذا ما كانت كلمة الوداع هذه موجهة الى دنيا الأصدقاء من الرجال أم دنيا الأصدقاء من الكتب ! .. وأقبل الطبيبان ، فأدهشهما أن يجدا المريض حزينا الى هذا الحد ، فى رقة ، واستسلام . لقد مضت مدة طويلة مذ رأى انسان بوشكين هادئا . كان كل شىء بالنسبة له قد انقضى ، ولكن هناك آخرين : ناتاليا ، ودانزاس المهدد بالنفى الى سيبريا ! .. وقال للطبيبين : **لا تبعثا أملا كبيرا فى نفس زوجتى ، اذ لو عرف الناس انها كانت هادئة فى ساعة موتى لاتهموها بجمود الاحساس واضطهدوها فيما بعد !»** .. وبعد دقائق استطرد : «اننى ارجو القيصر ان يسامح دانزاس ، فهو برىء . لقد امسكت به فى عرض الطريق وسحبته معى الى حلبة المبارزة بالقوة ! »

وكان ينسى نفسه أحيانا فتنطلق من شفتيه أنات الألم ، ولكنه كان اذا أحس بدخول زوجته الى الحجرة أو بأنها واقفة بالباب ، ثاب الى رشده وقال : « لا تدعوها تدخل الى هنا ، فاننى لا أريد أن ترانى على هذه الحال . يا للمسكينة ! انها تتألم .. ولكنها بريئة ! » . كانت ناتاليا تتجول من حجرة الى حجرة كأنها روح هائمة معذبة .. كانت الافكار تطن وتتصادم

فى رأسها كما لو كانت الذباب . ولم يكن فى وسعها أن تبكى . . ولأول مرة ، شعرت المرأة التعسة بعبء المسئولية العظمى التى القيت عليها : **انها منذ اليوم ستصبح المرأة اللعينة التى كلفت روسيا شاعرها الأول والأعظم !**

وعند منتصف الليل ، عاد طبيب القيصر يحمل خطابا منه الى بوشكين : **« اذا كانت ارادة الله ألا نلتقى بعد اليوم فى هذا العالم ، فأننى أبعث اليك بعفوى ، وأنصحك بأن تموت مسيحيا ! أما فيما يتعلق بزوجتك وأطفالك فلا تقلق عليهم ، فاننى سأعنى بهم ... » !**

وأرسل بوشكين فى استدعاء قس . وكانت سانت بطرسبرج تنام نوما ثقيلا . . وكان المنزل مملوءا بالأصوات ، ولكن سمع همس فى مكان ما ، ثم فتحت الأبواب وأقبل زوخوفسكى وفيازيمسكى وبلتنيف لتوديع الرجل الذى يحتضر . وظل بوشكين يقاسى طيلة الليل . وعند الفجر اشتد الألم الى درجة أن خوفه من ازعاج زوجته لم يمنعه من الصياح . وكان العرق البارد يبلل جبهته ، كما أن ذراعيه أصيبتا بالتجمد . وصاح : « الى متى أترك لمثل هذا العذاب ؟ ألا فاسرع ، عجل بالنهاية ! » .

وكانت ناتاليا ملقاة على أريكة فى حجرة الجلوس ، وشعرها الأسود منسدل على أرض الحجرة ، وعيناها السوداوان تتفرسان فى الوجوه التى تنحنى عليها ولا تريانها ! . وفى بعض الأحيان ، كانت تنتابها اهتزازات عصبية تبعث الرعدة الى أعضاء جسمها الجميلة ! ولم تسمع الصيحات الهائلة التى كانت تنبعث من الرجل الجريح . وفى الساعة السادسة واتاها نوم مضطرب ، فاستلقت تحت ضوء الفجر الشاحب وقد بدت كما لو كانت تمثالا من الحجر . وأيقظتها صرخاته الأخيرة ، فجلست وقد بدا عليها الاعياء . وقالت لها الأميرة فيازيمسكى وهى تنحنى عليها : « لا شىء يا ناتاليا ! انها صيحة منبعثة من

الطريق ! » . الا ان الدموع انسابت من عينيها وهى تقول هذه الكلمات !

وعند الظهر ، بدا عليه تحسن بسيط . وكان المخدر (الأفيون) الذى تناوله قد أخذ يحدث أثره . وعاد شىء من الدفء الى الجسد الممزق، واخذ نبضه، الذى لم يكن فى الامكان تتبعه ، يظهر مرة اخرى فى ضعف وعدم انتظام . وفى المساء ، بدأ من جديد النزاع الهائل مع الموت . ولم يعد المريض يتعذب بسبب آلامه ، بل بنوع من الحزن أشد نفاذا وقسوة من الألم الجسمى . واستعاد مرحلة طفولته ، فى احد منازل موسكو الباردة ، ومرحلة دراسته فى الكلية ، وآمال الصبا ، ثم اليأس والمنفى واضطهاد الحكومة له .. كما تذكر نبوءة « مدام كيرتشهوف » ، عندما قالت له : « سوف تموت بيد رجل أشقر » ! ..

كم كانت الحياة قصيرة ؟ ! ان عليه أن يموت اليوم ، وهو فى سن السابعة والثلاثين ، دون أن يتم رسالته ، ودون ان يزور أوروبا . ووضع يديه تحت عنقه ، وتمتم قائلا : « هل أترك .. لأقاسى هكذا .. طويلا ؟ ! » . وانحنى الطبيب فوقه وقال : « يجب أن تقاسى يا صديقى ، اذ ليس هناك شىء يمكن عمله . ولكن لا تخجل من ألمك ، بل صح واصرخ ، اذا كان هذا يخفف عنك !

ـ لا ! لا أريد أن أصرخ ، فان زوجتى سترتعب . كذلك لست أريد أن يكون الألم .. أقوى منى !

وبزغ فجر اليوم الأخير لبوشكين ،ملبدا بالضباب البارد. وكان ملقى بلا حراك على الأريكة ، وقد أغلق عينيه ، وعلا وجهه الشحوب كما لو كان قد مات فعلا . وعند الظهر ، فتح عينيه وطلب مرآة ، فأحضروا اليه واحدة . ونظر الى نفسه ثم ابدى اشارة تدل على اليأس . وفور ذلك ، راح فى غيبوبة

وعند الساعة الثانية (ولم يكن باقيا على حياته الا ثلاثة أرباع الساعة) طلب بعض فاكهة التوت المحفوظة - وكان يحب دائما طعمها المشوب بالمرارة ! - فأرسلوا فى احضار شىء منها. وقال « استدعوا زوجتى .. ودعوها تناولنى الطعام ! »

ودخلت ناتاليا وهى تتعثر ، وركعت بجانب فراش المحتضر ، ثم قربت الملعقة من شفتى بوشكين . وفجأة ، انفجرت باكية وألصقت خدها الى جبهته المنداة . وشعر هو بحرارة دموعها ، فمد يده وأخذ يداعب شعرها الجميل الناعم دون أن يفتح عينيه !

- نيتشيفو ! اننى فى تحسن .. شكرا لله ، اذهبى الآن !

ولكنه لم يعش ! .. أضحت كلماته تنفسا لا يمكن أن يسمع الا لمن يضع أذنيه على مقربة من شفتيه .. ثم طلب - مرة أخرى - أن يرفعوه ، فأمسك به الطبيب وأسنده بذراعه ، ثم رفعه قليلا . وفجأة ، فتح بوشكين عينيه كما لو كان يستيقظ من النوم ، وقال فى وضوح : « لقد انتهيت! » . فأجاب الطبيب وقد أخطأ فهم ما يقول : « نعم ، لقد تم الأمر ، ورفعناك كما طلبت ! »

وكرر الرجل المحتضر فى هدوء : **« لقد انتهت .. الحياة !»**

وأبطأ تنفسه ، وزحفت البرودة فى ذراعيه حتى وصلت الى الكتفين ، ثم امتدت الى ساقيه وركبتيه .. وتحركت يده اليمنى حركة واحدة بعد ذلك ، ثم هوت على الأريكة معدومة القوة . وانتشر على ملامحه - التى كان الألم قد شوهها فى الساعات الأخيرة - تعبير يمثل الفكر القوى السامى !

كان بوشكين قد كف عن الحياة !

- ٥ -

• فى يوم ٤ فبراير ١٨٣٧ ، غادرت عربتان العاصمة ، يتقدمهما أحد ضباط البوليس ممتطيا جوادا ، وكان يفسح



« بوشــــكين على فراش الموت » ، عن رسم أعده الفنـــان
« براونى » بريشــــته ، فى ٣٠ ينـــاير عام ١٨٣٧

الطريق للعربة الاولى التى كانت تقل مسيو تورجنيف، أحد رجال حاشيةالقيصر . أما العربةالثانية فكانتعبارة عنزحافة من زحافات الريف ، تحمل صندوقا خشبيا مستطيلا ، أسود اللون . وكانت العاصفة الجليدية اتى استمرت ثلاثة أيام قد توقفت فجأة وظهر فى السماء المرصعة بالنجوم قمر ازرق كبير الحجم . وأخذ مسيو تورجنيف يفكر ،حزينا ، فى جميع أنواع الامور التى تدعو الى الانقباض. لقد كانت الرحلة ، فى صحبة رجل ميت ، خلال أرض تبدو كأنها نهاية العالم ، تملأ نفسه بالحزن والجزع ..

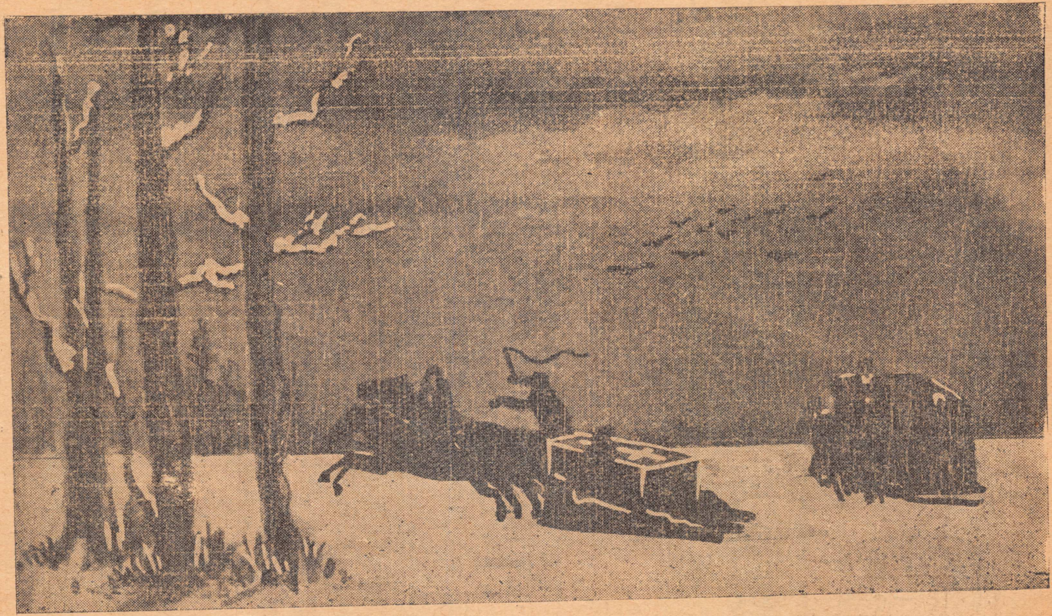
وتأوه ، ثم تذكر القول الحق : **« باطل ، باطل .. الكل باطل .. »** . لقد رأى بوشكين أمس وهو يوضع فى الصندوق الأسود .. منذ ست وعشرين سنة كان قد صحب صبيا صغيرا أسود الشعر ، هو ابن أخ صديقه الشاعر « فاسيلى ليفوفتش بوشكين » الى (تساركو سيلو) ، وها هو اليوم يصحب جثته الى مقبرة أسرة بوشكين . لقد غربت شمس الشعر الروسى ! ومن يعرف الى متى تستمر فى غروبها ؟ !

وفى ذلك المساء ، تناول تورجنيف العشاء فى منزل محافظ (بسكوف) . وعند منتصف الليل ، انتحى به المحافظ جانبا — اذ كانت الدار حافلة بالزوار — وابرز خطابا تلقاه من سانت بطرسبرج ، يتضمن تعليمات مؤداها ان جنازة « التشريفاتى » بوشكين يجب ان تكون بسيطة جدا ، ودون اى مظهر من مظاهر التكريم .. تلك كانت رغبة جلالة الامبراطور ! .. **حتى فى الموت ، كان بوشكين يسبب للمسئولين المتاعب ! لقد كان دائم الكفاح .. انسانا خطيرا ، يجب توقع انفجار روحه العدائية فى أية لحظة ! ..** وعند ما توفى ، تقاطر الناس من كل حدب وصوب على منزله ، حتى اضطر أهل المنزل الى اغلاق الأبواب . انه شىء لم يسمع بمثله من قبل !

بينما أخذ البلاط الملكى وملكات الجمال فى الرثاء لجورج دانتيس « المسكين ! » ، الذى اعتدى على مركزه وأهين ، ثم اضطر الى مغادرة البلاد .. على أن روسيا كلها — من تحتهم — كانت تبكى شاعرها الأول ! .. وخصصت الصحف المقالات الطويلة عنه .. ولكن الرقيب ما لبث أن أصدر أمره بمنع ذكر اسم بوشكين فى الصحف !

على ان الجثة كانت فى خطورة القلم ! وطالما بقيت فى مكانها ، فهناك خوف من وقوع اضطرابات . ألم تنتشر الشائعات بأن الدهماء شرعوا فى تحطيم نوافذ السفارة الهولندية، وان الجنازة ستتخذ ذريعة للقيام بالمظاهرات ؟ ! انه انحراف .. انها فتنة .. بل انها ثورة كاملة ! وهكذا كانت تكافأ « نعم » القيصر ، الذى أسبغ عطفه على ارملة بوشكين . آه ! ما أشد جحود الناس؟! واذن ، ينبغى التخلص من الجثة ، مهما يكلف ذلك . وبالفعل، نقلت الجثة الى كنيسة غير التى اتفق عليها فى الأصل ،وأجريت المراسم الدينية فى سرعة . وكان القس يبتلع الكلمات : اسرع ! اسرع ! ان البوليس ينتظر الرجل الميت المخرب ! .. ثم وضع التابوت على زحافة ،وصدر الأمر الى مسيو تورجنيف بمرافقة الجثة الى مقاطعة بسكوف

وشعر تورجنيف ، الطيب القلب ، بالحزن لذلك الأمر الذى صدر بمنع تكريم الشاعر الكبير فى موته .. فان الانتقاص من كرامة الرجل الميت — مثل الانتقاص من شهرته تماما — كان يصيبه نصيب منه !.. وفى الصباح التالى، وكان صباحا كئيبا قارس البرد ، استأنف الركب رحلته ، فوصل فى فجر اليوم التالى الى دير (سفياتو جورسكى) ، وهو الذى تقرر ان يدفن فيه الشاعر الكبير . وكان الفلاحون قد بدأوا فى حفر القبر ، والعرق يتصبب منهم ، رغم برودة الجو . وعندما رأوا تورجنيف ، نهضوا ثم رفعوا قبعاتهم .



النعش الذى يضم جثمان بوشكين ، فى طريقه الى مقابر دير «سفياتوجورسكى»
– عن لوحة للفنـــان « نازوموف »

وأخيرا ، أعد القبر ، فرفع الفلاحون التابوت على أكتافهم وأنزلوه فيه . وألقى تورجنيف بحفنة من التراب فوقه ، ثم بدأ يلقى بضع كلمات منتقاة .. ولكنه ما لبث ان تذكر ان المستمعين ليسوا سوى بعض الفلاحين الأميين ، وضابط البوليس ، فاختصر الموضوع . وانهال التراب على التابوت فى صوت جاف مفاجىء ! .. وقدم تورجنيف المنح للرجال الذين حفروا القبر ، ثم غادر المكان برفقة ضابط البوليس . وما لبث الفلاحون ان جمعوا معاولهم وانصرفوا لحال سبيلهم .

وبدأ الثلج يتساقط .. وأخذ ـ شيئا فشيئا ـ يغطى القبر الجديد، الذى وضع عليه صليب صنع من الخشب غير المدهون !

- ٦ -

. فى خلال شتاء عام ١٨٦٥ ، وصل الى (نيس) رجل ثرى وجيه ، هو البارون جورج دانتيس دى هيكيرن . وكان قد أعد منزل الأسرة للسكنى ، وأدخل اليه غاز الاضاءة . ولكنه كان منزلا كئيبا ، يثير فى نفسه العديد من الذكريات ، مثل موت زوجته وهى تضع ابنهما الرابع . كانت كاترين قد عاشت ـ بعد ان ارسل يستدعيها الى فرنسا عقب طرده من روسيا ـ محاطة بالاعجاب الدائم من الزوج الذى هبط عليها من السماء ! وكان جورج يذكرها دائما كامرأة رقيقة ، مطيعة، ولذلك فانه لم يتزوج بعد وفاتها

كان الآن قد بات متقدما فى السن ، محترما ! وكان أحد مؤسسى شركة الغاز بباريس ، وقد ظل يضيف اسم والده بالتبنى الى اسمه ، وذلك اعترافا بجميل الديبلوماسى الهولندى عليه ! أما البارون دى هيكيرن الشيخ ، فقد كان يشغل اذ ذاك منصب سفير هولندا فى (فيينا) .. وكان يشغله بنفس

المهارة وبنفس الأساليب الملتوية التى أكسبته كراهية وتقدير سانت بطرسبرج ! .. وكانت ثروة دانتيس الشخصية تسمح له الآن بأن يصبو الى أطماع سياسية خاصة .. اذ كان يحلم بمقعد فى مجلس الشيوخ !

كان يفكر فى جميع هذه الأشياء وهو يسير ببطء فى طريق المتنزه ، مستمتعا بالسماء الزرقاء والشمس الدافئة . وكان قد بلغ الثالثة والخمسين ، ومع ذلك ظل يحمل آثار شكله المتميز السابق ، كما ظل يسترعى أنظار النساء . وأجفل البارون فجأة .. فقد مرت به سيدة فى الخمسين من عمرها، تتميز بالجمال على الرغم من تلك الضفائر الرمادية اللون التى كانت تحدد وجهها البيضاوى النقى ، وعينيها السوداوين . هل هذا ممكن الحدوث ؟ ناتاليا ؟ ناتاليا هنا ؟ ! واستدار ليلحق بها ، ولكنها كانت قد ابتعدت ، فآثر السير فى طريقه. وعلى اية حال ، هل كانت تسمح له بأن يتحدث اليها ، لو كانت هى ؟ !

وبدأت الذكريات تعود الى عقل دانتيس : **ناتاليا فى ثوب أحمر من ثياب الرقص . ناتاليا فى ثياب الركوب وهى تمتطى الجواد الى جانبه فى جزر سانت بطرسبرج . ناتاليا وهى تبكى وتضرع اليه ان يطلق سراحها يوم الموعد الذى نظمته ايداليا بوليتيكا . ثم زواجه من كاترين ، ومبارزته لبوشكين بعد ذلك بشهرين . ان الله يعلم انه لم يقصد قتل خصمه ، فقد صوب المسدس الى ساقى بوشكين ، ولكن يده انحرفت الى صدره! ..**
وتذكر أيامه الأخيرة فى سانت بطرسبرج ، والحصار الذى ضربه المتظاهرون حول السفارة الهولندية ، وكان هو والبارون دى هيكرين وكاترين داخلها ، ثم تجريده من رتبته العسكرية، ورحلته فى الزحافة ، وذراعه الجريحة ...

كل شبابه استعرضه فى مخيلته، حين رأى تلك المرأة التى

خالها ناتاليا ! .. وما لبث ان واصل سيره ، وقد اضطرب لذكرى ذلك الماضى الأليم !

* * *

• **استمرت** المرأة التى أثارت ذكريات دانتيس فى سيرها ، متجهة الى الفندق الذى كانت تقيم فيه باسم مدام لانسكوى. لقد مضت عشرون سنة مذ تغير اسمها من ناتاليا بوشكين الى مدام لانسكوى

كانت ناتاليا قد اعتزلت المجتمع بعد وفاة بوشكين ، وأقامت فى ضيعة أخيها ، مع أولادها الأربعة وشقيقتها ألكسندرا ، التى كان الحزن قد برح بها كما لو كانت هى الارملة التى أصيبت بوفاة زوجها ! وترعرع هناك أطفال بوشكين ، وأخذت الذكريات الأليمة تتبدد شيئا فشيئا . وفى ذات يوم ، عادوا جميعا الى سانت بطرسبرج ، حتى اذا حل عيد الميلاد ، عام ١٨٤١ ، رآها القيصر نيكولاس فى احد المتاجر الكبرى التى تبيع الالعاب .. وكان قد ذهب لينتقى بنفسه هدايا عيد الميلاد لولى العهد وشقيقاته وابناء عمه . وتقدم منها القيصر مبتهجا ، بل مضطربا ! .. **ناتاليا فى سانت بطرسبرج ؟ ! اذن ، لابد ان تعود الى قصر (انشيكوف) ، لتشترك فى الحفلات الراقصة ، كما كانت تفعل من قبل . لا ! لا يمكن ان يحرم القصر من حلية كهذه !**

وعادت . وكانت أول حفلة شهدتها حفلة راقصة تنكرية . وارتدت ناتاليا زيا تركيا ، وأخفت وجهها بنقاب من الحرير . لم تكن قد فقدت شيئا من جمالها ! وأمسكها الامبراطور من يدها ، وقادها الى الامبراطورة ، فرفعت منظارها المفرد الى عينها ونظرت اليها ، ثم قالت : « فاتنة ! .. جميلة جدا ! »

وبدأت تحيا حياة الطبقة الراقية .. تلك الحياة التى كانت

تحبها من أعماق نفسها . فقد أمست الآن ارملة حرة ، لايمكن ان يتتبعها أحد بغيرته .. لم يكن هناك من يقف أمامها ليؤنبها .. لا أحد ، سوى شقيقتها ألكسندرا .. أو بالأحرى عينيها ، اللتين كانتا تؤنبانها على خيانتها للميت ! .. ثم أخذت فكرة الزواج تغزو عقلها من جديد ، اذ كان القيصر يحبها ، وكان عطفه الدائم عليها قد أخذ يسترعى الأنظار . **وبدا من بول لانسكوى ــ عشيق ايداليا ، ونفس الرجل الذى قام بدور الحراسة تحت النافذة، يوم موعدها الأول والاوحد مع جورج دانتيس ــ بدا من هذا الرجل اهتمام خاص ! وكان قد أشيع انها عشيقة القيصر .. ولكن ماذا يهم ؟ حتى اذا كان هذا صحيحا ، فان مخلفات القيصر تعتبر مغنما حسنا لضابط فى الحرس الراكب !**

وتم زواجهما فى هدوء . ولم يخب فأل لانسكوى ، اذ رقى بعد زواجه الى رتبة « الكولونيل » ، ثم أصبح جنرالا ! وعندما وضعت زوجته مولودها الأول ــ وكان فتاة ــ قام الامبراطور بدور والده الروحى (الاشبين)! .. ثم اخذ القيصر يتردد على الحفلات التى كان يقيمها لانسكوى لضباطه ، ويتحدث مع زوجته الفاتنة فى ألفة ومودة ، بل انه كثيرا ماصعد الى الطابق الأعلى ليقضى بعض الوقت مع ابنته الروحية .. **وكانت «ألسنة السوء» تتحدث فتقول ان الفتاة الصغيرة أقرب شبها اليه من ابيها الجنرال !**

* * *

• **والآن** ، هاقد اصبحت ناتاليا ارملة للمرة الثانية .. فقد مات زوجها ، كما مات ــ منذ عشر سنوات ــ الرجل الذى لعب دورا هاما فى حياتها : القيصر نيكولاس ، اذ قتله ضباطه المتمردون فى حرب القرم . ولم تعد ناتاليا بعد ذلك الى

القصر الامبراطورى .. فقد كان القيصر الجديد ـ ألكسندر الثانى ـ صغيرا ، محبا للآراء الجديدة : أعاد تنظيم الجيش والوظائف العامة والقضاء ، وانشأ الجامعات ، وعزم على تحرير الفلاحين ! .. لقد انتهت حياتها بوفاة نيكولاس .. كانت جزءا من عهده ، والآن ، أضحت من مخلفات هذا الماضى !

ولكن ، فى الوقت الذى كانت هى وجميع الذين بقوا على قيد الحياة يتحولون ببطء الى الفناء والعدم ، كان هو .. الرجل المدفون فى دير (سفياتو جورسك) . . كان يعود الى الحياة، ويزداد اشراقا وسناء !.. وبقى نسيجا وحده .. فلم يكن له تلاميذ ! ولكن ، كان له من يؤمن به . وكان الأدب الروسى ، الذى رفعه بمجهوده الفردى الى مستوى الأدب العالمى ، قد اخذ يؤتى ثماره ـ فى روعة تدعو للدهشة ـ بظهور تولستوى ودوستويفسكى وتورجنيف. لم يعد لروسيا، بالنسبة لهم ، حدود الا مع الله ! لقد كانت أرضا يسكنها المجانين ، والأنبياء ، والسكارى ، والمجرمون ، والبلهاء ممن يحملون جميع ذنوب البشرية وجميع آمالها ! وكان كتاب روسيا يستدفئون فى حرارة شمس بوشكين ، الذى تميز بالبساطة والانسانية !

لقد عرف كيف يعيش وكيف يخلق ، على الرغم من الشر ! وبقى حيا ، خالدا ، كما تنبأ هو فى القصيدة التى كتبها فى أيامه الأخيرة ، فجاءت كالنغم الشاذ فى قطعة موسيقية لم تنته بعد :

فى داخل نفسى أقمت نصبا لم تبنه الأيدى ،
وسيبقى طريقا تسلكه أقدام الناس
ان تمثال الكسندر نفسه لا يسمو الى نصبى
الذى يشمخ برأسه الباهر فى فخار !

لن أموت تماما ، ولكن ستخلد روحى على القيثارة
غير قابلة للفساد ، وبدون جسم
وستمتد شهرتى طالما بقى تحت السماء
شاعر واحد على قيد الحياة !
سوف تكتسح شهرتى أرض روسيا الواسعة
وسيردد جميع سكانها هذا الاسم ، الذى سيتألق ضوؤه
على قبائل السلاف والفين المتعالين ، والطنجش المتوحشين
وعلى فرسان الكالموك : فى السهول
سوف أصبح محبوبا ، وسوف يذكر الناس دائما
الأفكار الكريمة التى أثرتها ، وأفخم تاج فى موسيقاى
وكيف احتفلت بالحرية فى هذا العصر القاسى
وطالبت بالعطف على هؤلاء المضطهدين
آه ، يا الهة الفن ، أطيعى الآن وصايا ربك
لا تخشى الاهانة ، وقابلى المديح والقدح ببرود
ولا تطلبى مكافأة ، ولكن فى حكمتك
الزمى الصمت عندما تقابلين معتوها !



LES CONFESSIONS
اعترافات
جان جاك روسو
أول ترجمة عربية
كاملة محلاة
بمئات الصور والرسوم !
J.J.ROUSSEAU
جان جاك روسو
إنها المفاجأة الكبرى التى تدخرها لك "مطبوعات كتابى"
لتتحفك بها فى القريب العاجل ، حين تقدم لك الترجمة
الكاملة لأعظم كنز أدبي مجدته الإنسانية بأسرها
وقراء العالم أجمع .. إنه درة أعداد :
مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها
حلمى مراد